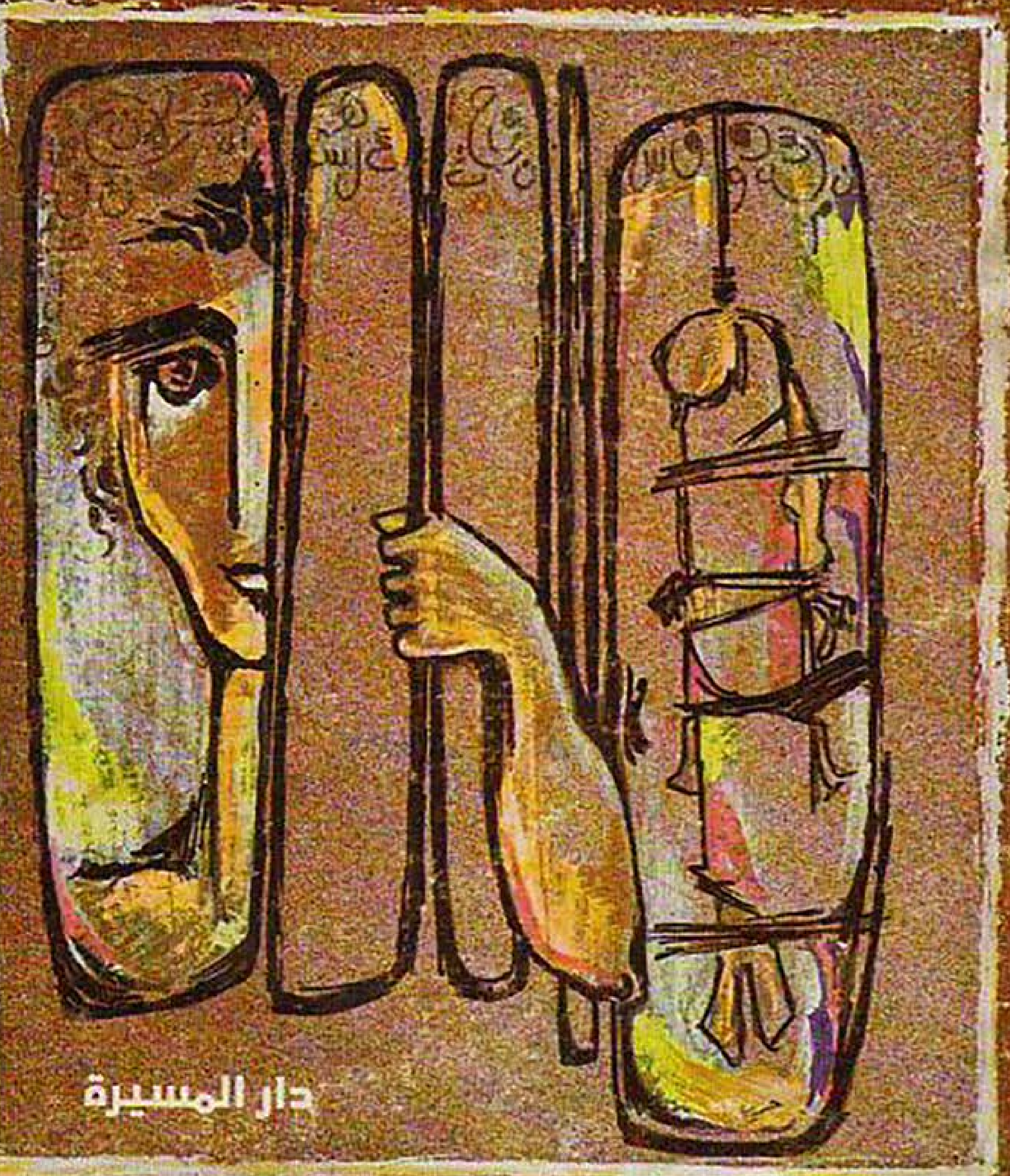
الدكتور عصمت سيف الدولة

إعدام السجّان



دار المسيرة

إعدام السجّـــان

الدكتور عصمت سيف الدولة

إعدام السجّان

دار المسيرة
بيروت

الطبعة الأولى ١٩٧٨

اهداء

لست اقدم هذا الكتاب بهذه الكلمات فأني اضيق ضيقاً شديداً بمقدمات الكتب . ولقد كففت عن تقديم كتبي منذ سنين أفضل أن يكون الكتاب قادراً على ان يلتقي بقارئه كما هو بدون تقديم وأرى المقدمات محاولات يريد بها المؤلفون ان يكونوا حاضرين لقاء كتبهم وقارئيها . وهم لا يحضرون صامتين بل منحازين إلى كتبهم لافتين القارىء إلى ما يعتقدون انه يستحق انتباهاً . ولو كان يستحق حقاً لما احتاج إلى من ينبه إليه . ويتحدثون في المقدمات عن الغايات التي استهدفوها بما كتبوا وأولى بما كتبوا ان يكون مفصحاً عن غايته بدون حديث . ويدفعون بالمقدمات اعتراضات يتوقعونها ولو كانوا واثقين بما كتبوا لتركوا كتبهم ترد الاعتراض عليها .

ولست اضيق بالمقدمات وحدها بل اضيق بأسماء المؤلفين . ولست اشك لحظة في انه عندما ترفع عن الكتب مقدماتها وأسماء مؤلفيها ستكون اقدر على إداء وظيفتها الثقافية . وانّا لنعرف هذا معرفة اليقين من واقع حياتنا الثقافية في الوطن العربي حيث حملت الاسماء « الكبيرة » كتباً تافهة إلى عقول الناس ، وحيث لم تلتق افكار عبقرية بعقول الناس لأن اسماء الناشئة من اصحابها لم تكبر بعد . وعندما نرى في كل مكان من الوطن العربي مراكز السلطة أو مراكز خدمتها تفتح عنوة أو نفاقا أبواب الاجتهاد

وأبواب المطابع وتسخر وسائل النشر والاعلام لاغراق العقول في محيط من الفكر التافه ، وعندما نرى الجهلة من أصحاب الملايين يشترون عقول المثقفين واقلامهم ليكتبوا لهم ما يضعون عليه اسماءهم ....الخ ، عندما نرى كل هذا يكون من حقنا أن نتمنى ان تترك لكل كتاب فرصة تتفق مع قيمته الحقيقية بدون اضافة من خارجه ، وان تترك لكل قارىء فرصة اللقاء بكتابه بدون اغراء أو عداء ، فلا نضيف إلى ثقل الكتاب ثقل صاحبه ، ولا نغري القارىء أو نستفزه بما نضيف إلى الكتاب من مقدمات أو أسماء .

على من يرى في هذا الرأى غرابة ان يتأمل غريب ما نرى في مجتمع لم يتحرر بعد من عبودية الثقافة الغربيـــة . الم نر كيف ان الاسم « الاوربي» يفتح في اذهان كثير من المثقفين العرب ابواب قبول وثقة بما يكتب الأوربيون ، وكثير مما يكتب الأوربيون لا يستأهل الورق الذي يكتب عليه . الا نرى كيف ان الكتب المترجمة عن اللغات لاتينية الأصل أكثر قبولا – قبل ان تقرأ – من الابداع العربي الاصيل . وليس كل ما يكتب باللغات لاتينية الاصل يستحق ان يقرأ أصلا .

كلها ، مقدمات واسماء ، عربية وغير عربية ، تلعب دوراً غير عادل في استقبال الكتب أو قبولها . وكلها تؤثر في مجتمعنا قريب العهد بالحرية الفكرية . ولا بد لنا ان نقرأ لنصد انفسنا عن المعرفة من اجل مقدماتها أو اسماء اصحابها ولكننا في اشد الحاجة إلى ان نعرف راغبين غير مكرهين وان نقبل او نرفض ما نقرأه بدون اغراء او عداء . ولن يتأتى للقارىء العربي هذا الا اذا التقى بمصادر المعرفة بعيداً عن مؤلفيها اسماء ومقدمات .

واذا كان اعفاء العلاقة بين الكتاب والقارىء من فضول المقدمات امرا يسيرا يستطيعه المؤلفون بدون ان يفقدوا شيئا فان اعفاء العلاقة بين القارىء

وكتابه من حضور المؤلف بأسمه امر غير يسير . قد يفقد المؤلفون به نسبة كتبهم اليهم وما يصيبون من ورائها من فضل ادبي او مالي . بالرغم من هذا فأني اتمنى ان يهتدي الناس إلى نظام يحفظ للمؤلفين حقوقهم بدون ان تظهر اسماؤهم على ما يؤلفون . نظام كتلك النظم التي يثبت بها حق الناس فيما يملكون من عقار ومنقول بدون حاجة إلى حفر أسمائهم على ما يملكون .

انها أمنية نتمناها . قد لا يحتاج اليها الذين بلغوا من الثقافة قدرا لا تؤثر فيه المقدمات والاسماء ولكنا على يقين من ان جمهرة المثقفين والمتطلعين إلى الثقافة من ابناء امتنا في حاجة إلى ان تصبح الامنية حقيقة .

اني ، اذن ، لا اقدم هذا الكتاب بل اهديه. أولا إلى الطليعة من الشباب العربي ، الذين يؤمنون بامتهم فيأملون تحقيق وحدتها ، ويعلمون ان التنظيم القومي هو أداة تحقيقها فيعملون على ان تلتقي الطلائع القومية التقدمية في تنظيم قومي تقدمي واحد يشقون به وفيه طريق امتهم العربية الممزقة إلى دولةالوحدة الاشتراكية الديموقراطية. اهديه اليهم جملة و إلى كل واحد منهم علهم يعرفون منه هوان السجون فلا يخشونها ولا يبنونها .

ثم اهديه إلى الوجوديين اعتذارا أقدمه اليهم عن اني سخرت من قبل بفكرة « العدم » من فلسفتهم . انني ان كنت قد انكرتها فكرا فقد لمستها تجربة . واشهد بانني قد أدركت من تجربتي كيف يستطيع الانسان في قيوده ان « يعدم » السجن والسجان وجنوده . وان في الانسان لقوى لا يدركها إلى ان يكاد الخطر يدرك انسانيته . حينئذ تجتمع قواه التي كان يعيها مع قواه التي كان يجهلها في دفقة انسانية واحدة تدفع عنه ما يمس انسانيته . ويرى الانسان ملكاته وملكات اخرى لا يراها قد تمردت على القيود التي لا تستطيع ان تحطمها فتدفنها تحت ركام من النشاط البدني والفكري والفني .

ولقد كانت لي يوما ملكات بدنية اصارع بها في حلبات الرياضة ولت مع الشباب ثم عادت في السجن تدفع كآبته بقدر ما تطيق الكهولة . اما النشاط

الفكري فهو حياة كاملة ما كان للسجن ان يوقفه ، بل زاده السجن ثراء ومضاء . وخرجت منه بحصيلة من الانتاج الفكري اكثر غنى مما كان يمكن ان ينتج لو كنت منقطعا له في احدى الجامعات . وهل ثمة جامعة اكثر علما من جامعة الحياة ؟ ولم يكن كل هذا غريبا . فحجبته عن هذا الكتاب .

انما الغريب حقا هو ذلك النشاط القريب من الفن ، رسائل ومسرحا وشعرا ورسما ونحتا.. واشياء أخرى. ذلك لم يكن لي به عهد اعيه . ذلك افتقدته من قبل ومن بعد ، ولم التق به الا حينما كنت في حاجة اليه . لهذا استحق ان اثبته في هذا الكتاب المقصور عليه تأكيدا للثقة التي تستحقها مقدرة الانسان. كل انسان .

وبعد ،

فان احداثا كثيرة وقعت منذ ١٩٧٣ ، منها ما يغري بالاضافة او التعديل . بل منها ما يغري بالتصحيح . ولكنا اخترنا الا نمس قدسية افكار الزنزانة وثمار حياتها الغريبة فأوردنا كل ثمارتها كما هي بدون اضافة او تعديل او تصحيح ...

القاهرة في ٤ أكتوبر ١٩٧٧ عصمت سيف الدولة

(١)

الرسائل

قبل أن يعالج الأدب العربي الخلق المسرحي والقصصي كانت « الرسائل » ، بعد الشعر ، جزءاً عزيزاً منه . ويبدو لي أن الأدب العربي قد ألقى عنه قشوره التي كانت يوماً من لبه وجذوره فلم نعد نصادف « الرسائل » في أدب المحدثين . وهذي علامة نمو صحي ويسر كبير . آيـــة النمو الصحي أن الأدب العربي قد اغتنى بما أضاف إلى مجالات ابداعه من ضروب أخرى لم تكن منه وهو يغادر مجالا كان ضربا من فنونه . كذلك كل كائن حي كلما نما ونضج نفض عنه بعضا من معالم طفولته . اما أنه يسر كبير فلأن اولادنا لا يقاسون اليوم ما كنا نقاسيه ونحن في مثل سنهم ندرس الادب العربي أو نحمل حملا على دراسته . أنهم لا يكرهون على ما كنا نكره عليه من حفظ تلك « الرسائل » المطولة من الكلمات الضخمة ، والمعاني المصطنعه اصطناعا لتتيح لجملة مسجوعة مكانا في نص كان يستطيع أن يؤدي غايته بغير اصطناع .

و اعتقد ، بقدر ما أعرف عن الادب وهو غير كثير ، ان « الرسائل » التي قضينا سنين نحمل على دراستها كفرع من فروع الادب العربي ليست أدبا اذا اخذناها بمعايير النقد الحديث حيث لا تغني الصياغة الجميلة عن المضمون الانساني في الخلق الفني . وحيث يكون الخلق الفني ثمرة جديدة

لتفاعل المضمون والصياغة ولكنه متميز عنهما . ولكن الرسائل على اي حال كانت أدباً يوم ان كان المعول الأساسي في الأدب على التعبير ، او فلنقل ، المقدرة على التشكيل الجميل لمفردات اللغة .

ولو كنت قد اخذت نفسي بأي المقياسين لما اجزت لها ان تدس في هذا الكتاب رسائلي إلى الصديق (...) فطبقا للمقياس القديم ليس في هذه الرسائل الا ما استطيعه من فنون البيان . ولست استطيع منه شيئا يمكن ان يقال له ادبا . وطبقا للمقياس الجديد ليس في هذه الرسائل مضمون يمكن ان يقال له فنا . انما هي خواطر سائحة ملأت رأسي اياما فافرغتها كلاما لافرغ لما هو اكثر منها فائدة واقل منها طنينا . فلماذا اقحمها هنا اقحاما؟.

لانني لا اعرف ماذا افعل بها. انها لا تنتسب إلى ذلك القدر من الكتابة السياسية الذي لم اورد منه هنا شيئا. ولا تنتسب إلى باقي ما جاء في هذا الكتاب من ضروب التعبير غير المتعمد . ومع ذلك فإني اعتمد في تبرير ورودها في هذا الكتاب على القارئين . بل اني اعتمد في تبرير اخراج هذا الكتاب كله على القارئين . اعني بعض القارئين . فبعض القارئين نقاد للادب والفن وان لم يكونوا ادباء ولا فنانين . وبعض القارئين نزاعين إلى النقد ولو لم يكونوا من النقاد المعدودين . وكل هؤلاء ، الاصيل والدعي ، لا يرضى لنفسه ان يترك الكاتب نفسه . انه ان يعرض الكتاب كما كتبه صاحبه ، ويكتشف فيه حقيقة كاتبه وما اراد ان يعبر عنه يكون هو غائبا عن النقد الذي يطرحه. والنقاد ، الاصلاء والادعياء جميعا ، لا يريدون ان يغيبوا عن اذهان من يقرأون لهم ، فيسقطون افكارهم على افكار من ينتقدون اعمالهم ، ويخلطون نواياهم بنواياهم ، ويكتشفون في رؤوس الكتاب والفنانين الوانا من الفكر والفن لم تخطر على بال اصحابها .

اعتمادا على هذا الذي اعرفه عن النقد واساليبه اوردت الرسائل التالية فلعلي اجد من بين القارئين ناقدا اصيلا او دعيا يمارس فيها هوايته فيكتشف فيها شيئا لا اعرفه .

ثم ان هذه الرسائل قد جاءت كما تجيء المذكرات واحسب ان المذكرات لونا من الوان الادب . ثم ان في هذه الرسائل تقديما لبعض ما جاء في هذا الكتاب فهي مقدمة لازمة لمعرفة ما يجيء بعدها ، ثم .... ان لم يكن هذا كافيا لتبرير ورودها فيكفيني مبررا انني اردت هذا . ولقد كانت القصة كلها صراعاً بين ما أريد وما يراد لي ولا أريده . وعلى من لا يكفيه ما كفاني ان يكف نفسه عنها ويتجاوزها إلى ما بعدها .

هل وصلت هذه الرسائل إلى من وجهت اليه ؟ ..

وصلت متأخرة لأنها لم تصل تباعا بل وصلت جملة . ووصلت ناقصة ولهذا قصه . فقد كنت اكتبها على شرائط من الورق الف كل اثنتين منها حتى تصبح في سمك وطول السيجارة . وافرغ لكل اثنتين سيجارة من تبغها واحشوها بهما فتعود سيجارة سوية كما كانت ولكن بدون دخان. فلما انتهيت منها جميعا جمعتها في علبة سجائر واكملت العلبة سجائر حقيقية ثم انتظرت موعد الزيارة القادمة حيث اتبادل مع الزائرين علب السجائر ونحن نتبادل السجائر . وجاء يوم الزيارة وحملت علبتي الملفوفة . واذا بالمكلف بمصاحبتي إلى حيث أقابل الزائرين الرقيب (...) والرقيب (...) انسان طويل عريض جسيم البنية جهم المنظر . غير ان ضخامة ظاهره كانت على حساب باطنه . غض العقل إلى حد الغباء . طيب القلب إلى حد السذاجه . التعامل مع هذا النوع من البشر غير مأمون . اذ لا أحد يستطيع ، وهو آمن ، أن يتوقع ما يفعلون أو ما تكون ردود افعالهم على ما نفعل . ولو اكتشفت الرسائل في مكمنها لكان حجم النتائج متوقفا على عقل الحارس وحجم كياسته . ان كان سويا اهلكها خفية وكفى نفسه وغيره شر التحقيقات وان كان مثل الرقيب (...) لكان قمينا بأن يقيم الدنيا ويقعدها كأنه اكتشف قنبلة .

لا بد اذن من التخلص من الرقيب (...) وخير طريقة للتخلص منه

هي التودد اليه . وخذوها عني مؤكدة . ان صادف احدكم الرقيب (...) فليحمله على الابتسام قبل ان يخوض معه في أي موضوع آخر . انها غاية صعبة ولكن ممكنه . فان نجحت وابتسم الرقيب (...) فاطلبوا منه ما شئتم فانه سميع مجيب ...

مقدمه المتودد في السجن سيجارة . هذا لا شك فيه . ولقد توددت حتى ابتسم وقبل أن « يرتاح » فلا يتعب نفسه واقفا اثناء الزيارة التي ستطول . وتركني لغيره ممن يفرطون في الكياسة فلا يرون – عامدين – ما يتناوله الناس ولو كان في حجم الفيل . تركني الرقيب (...) مبتسما وسيجارته بين اصبعيه . ولكنه لم يلبث ان عاد مهرولا . يا للهول . لا .. انه ما يزال مبتسما ... مدّ إليّ سيجارة محترق طرفها وقال بسذاجه لا تتفق مع جثته النامية :

– ما هذه السيجارة التي اعطيتها لي يا دكتور . . . ان رائحة الدخان فيها كرائحة ورق محروق . .

– آسف ايها الرقيب العزيز . . . لا تثريب عليك . . هاتها . . وخذ غيرها .

فأعطاها لي بدلاً من أن يرميها – مثلاً – وبدون أن يسأل نفسه أو يسألني لماذا اريد أن استرد سيجارة محروقة رائحة الدخان فيها كرائحة الورق المحروق . المهم حرقت رسالتان في سيجارة قدمتها تودداً للرقيب (...) وانا احسب انني اقدم له سيجارة حقيقية . ومن حسن الحظ انني كنت احتفظ بأصول الرسائل قبل أن أنقلها إلى شرائط الورق الرقيق .. فأخذتا مكانهما في هذا الكتاب .

(١)

في ١٠/٨/١٩٧٢

. . . .

أكتب اليك إستجابة لبواعث عدة . أولها رغبتي في أن تعرف عمق شعوري بالغبطة ، أو قل السعادة ، لما بلغني من أنك تصدقني ولا تصدق ما نسب إلي . أن كل الذين كانوا قريبين مني في حياتي لم يشكوا لحظة في زيف التهمة المستحيلة التي أدنت بها . موقفهم هذا يتسق مع معرفتهم بي معرفة القرب والمعاشرة . لهذا تقبلت موقفهم تقبل الذي يتوقعه . أما أن يبلغني أنك أنت تصدقني ولا تصدق ما نسب إلي ، وتذهب في هذا إلى حد الاسهام في محاولات إنهاء الموقف الذي أنا فيه ، فقد كان له عندي تأثير عميق هز مشاعري وأسعدني ، لا لأني لم أكن أتوقعه منك ، فالواقع أن كل صادق يتوقع أن يكون مصدقاً ، ولا لأنك غريب عني ، فالواقع أنك لست غريباً ، ولكن لأن العلاقة بيننا لم تكن في ظروفها قد توثقت إلى الحد الذي أتوقع فيه الثقة بلا حدود . من هنا كان موقفك فذاً في تأثيره عميقاً في أثره . كان كومضة ضوء في جوف الظلمة . ذلك لأن تجربتي كلها ، منذ ١٦ فبراير ١٩٧٢ ، كانت خوضاً في أوحال الكذب . كانت تجربة قذرة . فعندما ترى الشرطة يكذبون ، والمحقق يلفق ، والمحامين

يغالطون ، والمحكمـــة تأخذك بأكاذيب المتهمين . . . عندما تعايش عالماً مجرداً تمـــاماً من الصدق ، أو الجرأة عـــلى قول الصدق ، أو حـــتى الحياد عن الكذب ، فإنك لا تستطيع أن تتحرر من الشعور بالغثيـــــان ، غثيان المقروف وهو يخوض في أوحال عفنة في ليلة مظلمة ، ثم يأتي من يقول : أنك لست وحدك ، وليس الذين يقفون معك مقصورين على الذين عرفوك معرفة القريب المعاشر بل ثمة من يقف معك لانه يصدقك . ان كنت لا تستطيع أن تدرك أن ذلك كان في حينه كنبضة حياة في عالم من الرمم حررتني من الشعور الكئيب الذي كنت أعانيه ، شعور الذي أطبقت على أطرافه قبضات جثث متيبسه ، أن كنت لا تستطيع أن تدرك هذا فلا أستطيع الا أن أتمنى لك أن لا تدركه . ويكفيني أن أقول : أشكرك . !

ثم اني أكتب اليك استجابة لباعث آخر . أنك مشغول منذ وقت طويل بالقانون وعلاقته بالأنسان . وأنت في موقع صياغة القانون ، أما أنا ، فاني كنت « موضوعاً » للقانون منذ ستة أشهر ، ولمست عن قرب « مواضع أخرى » . ومن حسن الحظ اني كنت منتبها للموضوع منذ البداية . أرادوا أن يجربوا فيّ القانون ورأيتهم يجربونه في آخرين ، فقلبت الامر أو عدلته ، وأعتبرت نفسي تجربة للقانون تكشف عن جوهره وأزددت خبرة بما تعلمته من تجارب الآخرين . ولقد كنت أظن أن سأخرج فأصوغ التجربة دراسة . أما والأمر قد أصبـــح عشر سنوات فأنت أولى مني بأن تعرف ما لمسته ، وأنت أقدر من غيرك على الانتفاع به فيما أنت مشغول به منذ وقت طويل : علاقة القانون بالأنسان .

أو ، ربما كان الباعث على هذه الرسالة هي رغبتي في أن أتكلم حتى لا أهزم ، أي رغبتي في تحدي الذين أرادوا لي أن أسكت . والواقع أنني لم أكف عن الكتابة بالرغم من القيود المفروضة لحرماني منها .

ما الذي أريد أن أقول ؟ .. لنبدأ من البداية خطوة خطوة لنرى في أية خطوة صادفنا القانون وكيف كانت علاقته بالأنسان .

لعلك لا تعلم أن أكثر مصـــادر الثقافة متعة لي هو مـــا يدور حول سيكولوجية الحيوان . أنه موضوعي المفضل ، وأرجو — أن كنت لا تفعل — أن تجرب القراءة فيه .. ستجد متعة عقلية فائقة وأنت تتابع سلوك الكائنات غير ذات العقول . ولقد بدأ اهتمامي به في فجر أحد أيام صيف سنة ١٩٥٠ . كنت أسير وحيداً على أيقاع الموج الهاديء لأدرك الشمس قبل أن تظهر . كان ذلك في مصيف رأس البر . وكنت أحب أن أذهب فجر كل يوم إلى ذلك المكان « اللسان » الممتد من الارض في البحر فأرى الشمس تخرج من الماء . كنت أحب أن أراها في يقظتها عارية قبل أن تحجب ذاتها بأشعتها التي ترد البصر أو تحرقه . ولكني ، في ذلك اليوم ، لم أدرك الشمس في يقظتها . شد أنتباهي عنها عصفور من السمانّي معلق في شبكة . تأملته . هو قابض على خيوط الشبكة لا يطير وليس ثمة ما يمنعه من أن يطير وخطر لي السؤال : لماذا يظل السمانّي قابضاً على الشبكة إلى أن يقبض عليه صاحب الشبكة ؟ ولقد استغرقني السؤال أياماً . ثم أنني بقدر ما قرأت في سيكولوجية الحيوان لم أعرف أجابة على السؤال إلى أن عرفته في منتصف ليل يوم ١٦ فبراير سنة ١٩٧٢ . أنه ليس الخوف ، ولا الارهاق ، بل هو شلل المفاجأة. فالعصفور المسكين يبدأ رحلته من أوربا وما يدرك البحر بعده اللانهائي ، بلونه الذي لا يتغير ، بموجه المتكرر ، حتى يبدأ العصفور في الانسجام مع ظروفه البسيطة . يتسق جسماً وحركة وأتجاهاً مع البحر المنبسط البسيط . يخلق من جديد . يصبح « عصفوراً فوق بحر » . وبعد أيام كثيرة من حياته الجديدة ، يجد نفسه فوق شبكة فيقبض عليها وينتظر . ينتظر أن يفيق ليعرف — مجرد معرفة — كيف أدى البحر إلى شبكة . ولما كان معدوم الذكاء يطول انتظاره . لا البحر يعود اليه ولا هو يخلق ذاته مجدداً .. الى أن يأكله أحد هواة أكل السمانّي .. مثل هذا — مع فارق الوعي — كان ما حدث لي ليلة ١٦ فبراير سنة ١٩٧٢ ، وما يحدث لأي أنسان يكون قد قضى سهرته العائلية ، وحمل أبناءه إلى مخادعهم ، واستأنف مع زوجته احلام اليقظة حول المستقبل . مستقبله . مستقبلهما . مستقبلهم . يقيسان ما هو

آت على مـــا مضى ويصوغان آمالهما من نسيج حياتهما البسيطة ، المتسقة ، مضطردة النمو في سلام وأمن . ثم ... في منتصف الليل تماما يدق « القانون » ناقوس المفاجأة . مباحث أمن الدولة . ضباط صامتون . مخبرون لا يكادون يخفون ما تحت ملابسهم من أسلحة . القانون ! ! أهلا ؟ تفضل . ما الخبر ؟ .. ولكن القانون يقتحم منزلك ويلتحم بك . يدخل بدون أن يقدم أذنه ثم يصمت. والشبكة لا تريد أن تقول للعصفور لماذا هي قائمة وأين ذهب البحر . لا أعتقد أنني صادفت من قبل ولا من بعد شللا فكريا مثل ذلك الذي أصابني وأنا أجد « القانون » داخل منزلي ، في منتصف الليل ، ينبش الاثاث ، ويبعثر الاوراق ، ويقرأ الخطابات ، ويستبيح كل ما تعبر عنه كلمة « مسكن » من مفاهيم تتصل بذات الانسان ، وبدون أن يقول : لماذا ؟ .. ما الخبر ؟ . تعرف فيما بعد . هل ثمة أذن من النيابة ؟ تعرف فيما بعد . اني أعرف أن المقاومة هنا مشروعة . فأقتحام المنازل ليلا احدى الحالات القليلة التي يبيح القانون دفعها بالقوة حتى الموت . موت المقتحم . وقد كنت قادراً على أن أدفع . ولكن المسألة أن ثمة عيونا عزيزة جزعة تنظر اليك كمصدر وحيد للطمأنينة . أذن فلنتنزل عن حقوقنا القانونية ولنقبل التفتيش ونصبر على اذلال « استباحة » مسكني من أجل اشاعة الطمأنينة في النفوس الجزعة . ولنبدي قدراً مفتعلا من الاستهانة . ولنصنع قهوة ولنشرب . ولنثرثر ثرثرة فارغة . ولنترك للعابثين أن يعبثوا ما دمنا سنعرف فيما بعد وإلى أن نعرف فيما بعد . هذا هو القانون في أول احتكاكه بالانسان . فكيف نضمن الا يمر الانسان بمثل هذه التجربة ؟ . بأمرين لا يغني أحدهما عن الآخر :

أولهما : لا يجوز في غير حالة التلبس اجراء التفتيش أو القبض ليلا . ان مراقبتي للآثار السيكولوجية للتفتيش والقبض ليلا ، مراقبتي لها في نفسي ، قد اقنعتني بأن هذه القاعدة لا تقل لزوما للانسان وحريته ، وعلى وجه خاص لمقدرته على استعمال الحقوق التي خولها له القانون ، عن حق الدفاع

الشرعي . انني لا أتصور حالة واحدة ، غير حالات التلبس ، يكون التفتيش أو القبض فيها ليلا لازماً للعدالة . انها ببساطة ضربة تعذيب أولى تأتي في الظلام لتشل مقدرة الانسان منذ البداية على الدفاع عن نفسه . ان الذين ينفذون القانون لا يحتاجون إلى ظلام . الخفافيش وحدها لا تتحرك إلا في الظلام . ومن الانسان اللصوص والقتلة . والشرطة الذين يقتحمون المنازل في الظلام يعرفون من أنفسهم أنهم محتاجون اليه كما يحتاج اليه اللصوص والقتلة سواء بسواء . انهم لا يواجهون الانسان باسم القانون ولكنهم يغتالون نفسه ثم يلقونه بين مخالب القانون . وليس أدل على ذلك من أن ذلك الذي لا يطيقون عليه صبراً حتى الصباح يلقونه في الزنزانة أياماً قبل أن يحتاج اليه المحقق . لا . ان القانون في الظلام اعتداء ظالم .

الامر الثاني : الذي لا يغني عن الأول ولا يغني الأول عنه ، حتى لا يصبح الإنسان عصفوراً في شبكة ، هو أن يعلن الانسان ، قبل القبض عليه أو التفتيش ، بصورة من الامر الصادر بالاجراء تتضمن بيانا وافياً بالتهمة الموجهة اليه وبياناً كافياً بالادلة التي بررت القبض عليه . يستلم صورة ويثبت استلامه بتوقيعه على الاصل . ولا تقل لي ماذا يحدث لو أمتنع عن الاستلام . انه اذن ليس بشراً ، لا يوجد بشر معرض للقبض عليه يمتنع عن معرفة أسباب الخطر الذي يتهدد حريته : ان الغدر هو عدو المشروعية . وما دام الانسان ، طبقاً للقانون المكتوب ، لا يجوز القبض عليه الا في تحقيق مفتوح عن جريمة معينة وبعد أن تكون قد تجمعت أدلة محددة تثبت نسبة الجريمة اليه ، فإن هذه الحقوق « القانونية » تصبح عبثاً اذا لم يعرفها الانسان « قبل » وليس « بعد » القبض عليه حتى لا يشعر بأنه يتعرض لطعنة غادرة في الظلام .حتى لا يحس بأنه ضائع . أي حتى يبقى انساناً مقبوضاً عليه باسم القانون ، وليس شيئاً محمولا إلى حيث يواجه القانون . ان فترة الشيئية هذه، تلك الفترة التي يجهل فيها الانسان تماماً لماذا تهــدر انسانيته ، لماذا أصبح

شيئاً ، يجب أن تلغى من تجربة احتكاك الانسان بالقانون ؟

هل أستمر ؟ ... اذن تصبح على خير وإلى الغد .

(٢)

في ١٩٧٢/٨/١١

بمجرد مغادرة المنزل ، ومواجهة الموقف منفرداً ، يختفي العصفور ويعود الانسان إلى نفسه . شيء غريب حقاً أمر النفس الانسانية . ما أن أرى أنوار الشارع الباهتة ، وأتبين على ضوئها المريض أشباح شلة من الشرطة وسياراتهم في انتظاري حتى أشعر شعوراً قوياً بموجة من الغبطة والانتعاش الفكري . لماذا ؟ .. كيف اتحرر من الشعور بالقهر والضياع واسترد شعوراً طاغياً بالقوة والثقة فيما لا يتجاوز الوقت الذي قطع فيه المصعد المسافة ما بين الدور الخامس والدور الارضي . الشرطة أكثر عدداً ، وقد خلفت ورائي اعز الناس ، والمجهول ما يزال مجهولا ، ومع ذلك كنت أنظر إلى اشباحهم وابتسم ذات أبتسامة سليمان وهو يستمع إلى النملة القمية تحرض رفيقاتها . لقد حيرني هذا الشعور المباغت بالسعادة ، سعادة الانسان بنفسه ، وما يزال يحيرني . هل كان مرده إلى أنني قد أصبحت اواجه الموقف منفرداً . ربما . فاني من هواة التصدي منفرداً للمسئوليات . أم كان مرده إلى أنني قد بدأت فعلا أول جولة في المعركة . ربما . فان المعارك تنعش نفسي وتجلو ذهني. أو ربما يكون الأمر أكثر من هذا بساطة. ربما كان فرحة الطفل التائه التقى بأهله . فرحة الغريق تصادف قدماه أرضاً . ربما كان الأمر انني كنت قد عدت انا نفسي مرة اخرى . التقيت بنفسي مرة أخرى ففرحت . أيا ما كان الامر فانني منذ تلك اللحظة حتى هذه اللحظة لم افقدها مرة أخرى

ولم افتقدها ابدا . العكس . لقد صاحبتني صحبة وثيقة فعرفتها اكثر مما كنت أعرفها . وفي جوف « الزنازين » الخرساء قضيت مع تلك العزيزة ، نفسي ، ساعات طويلة نتحاور ونتبادل الرأي . وكثيراً ما عبثنا معاً فضحكنا كثيراً . وأنها لصحبة ممتعة يعرف فيها الانسان من نفسه الحاضرة دائماً ما لم يكن قادراً على معرفته وهو مشغول عنها بغيرها . اليك مثلا من الحوار الذي كان يدور بيننا . كان ذلك في أول ليلة في الزنزانة رقم ١ من سجن القلعة . والحق أنها لم تكن ليلة فقد حملت اليها ، او حملت عليها ، يستويان ، الساعة الثالثة من صباح يوم ١٦ فبراير ١٩٧٢ . على أى حال ما أن غلقوا الباب وانفردت بنفسي حتى قالت : انت سعيد . أو فلنقل مغتبط . هل تعرف لماذا ؟ .. انك لا تعرف . وآية هذا أن غبطتك مشوبة بالحيرة . ولكني اعرف. هل تريد أن أخبرك ؟ ...

قلت : ارجوك .

قالت : اني اعرفك جيداً فقد صاحبتك منذ مولدك وشاهدتك تنمو وتنضج . وكنت شريكة لك في كل افكارك وتجاربك . والمفروض أن تعرف عني ما اعرف عنك ولكنك تنسى . أن ذاكرتك ضعيفة . اما انا فلا انسى شيئاً .

قلت مقاطعاً : اسمعي . انني متعب . ولا بأس عندي في أن احاول النوم . فلا تثرثري . ليس هذا الوقت مناسباً للثرثرة . فاما انك تعرفين لماذا انا سعيد واما انك لا تعرفين . ان كنت تعرفين فقولي . والا فنامي ودعيني انام . ولا مانع عندي في ان تختاري ما يعجبك ، المرتبة أو « البرش » .

قالت نفسي بخبث : نحن وحدنا فلا تحاول التظاهر بأنك تستطيع النوم أو أنك لاتبالي ان قلت لك أم لم أقل . اعترف أولا بأنك تتلهف لمعرفة سر سعادتك او غبطتك وسر راحتي شخصياً مع ان الظروف كلها تبدو كئيبة .

قلت ضاحكاً : فليكن . اني اعترف فقولي وخلصينا .

قالت : المسألة بسيطة . انك تواجه لأول مرة مشكلة حياتك كلها . المشكلة التي طالما ارقتك ليالي طويلة والتي كنت تتهيب دائماً مواجهتها . هل تذكر نوبات الحزن التي كانت تعتريك حتى تشكو منها . لقد كنت تظن أنها ، لطول ما ترددت عليك ، ذات علاقة بخلل عضوي لا تعرفه . ولكن الامر لم يكن كذلك . انا اعرف حقيقتها. وقد كنت اعرف دائماً . ولطالما حاولت ان ادفعك إلى مواجهة اسبابها ولكنك لم تكن على أستعداد للمواجهة . كنت تهم ثم تتراجع . او فلنقل بصراحة – بيني وبينك – كنت تهرب . وعيك الذي لا تعيه كان يعرف أنك تعيش حالة هروب مني . من ذات نفسك .

قلت متبرماً : وبعد .. اختصري .

قالت مبتسمة : لماذا تضيق بي . محاولة هروب أخرى . لقد انتهى وقت الهروب . فانك الآن غارق حتى اذنيك في مشكلتك التي هربت منها طويلا . اسمع . هل تتذكر يوما أردت فيه أن تلقي بنفسك ، أي بي أنا ، إلى التهلكة لمجرد ان تضع حداً لتلك المشكلة . في ذلك الوقت كنت قد اكتشفتها وحاولت ان تنهيها بالتحرش بها . بافتعالها في غير أوانها .. ومع ذلك سرعان ما طويت مشروعك الاحمق . على أي حال لن ارهقك وانت مرهق ، لندخل في الموضوع . من انت حقيقة ؟ .. ما هو المحور الذي تدور عليه حياتك ؟ . . أنت تعرف هذا . انه الصدق . الصدق معي أنا . اليس كذلك . هو كذلك . ومع أني أشكرك فاني لا أجهل الاثمان الفادحة التي دفعتها طوال حياتك من أجل ان تكون صادقاً معي . ثم ها نحن منذ سبع سنوات ، منذ ذلك الوقت الذي نشرت فيه كتابك الأول ثم اندفعت بعده تكتب وتكتب وتتحدث وتدعو الناس إلى غاية صعبة ، وتحرضهم على أن يتحدّوا كل القوى التي تقف وتحول

دون تلك الغاية . وذهبت إلى حد الدعوة إلى الثورة . اتذكر ؟ عندما كنت تكتب ذلك الفصل عن الثورة ، كنت معك ، وضحكت انا وسألت ما هي الثورة ؟ .. لقد كنت أخشى أن تختفي وراء كلمة فتفقدني أو افقدك . ولكنك كنت صادقاً معي كعهدك فقلت ، أعني كتبت : الثورة هي تحطيم القانون . أظن أن هذا كان في كتابك « الطريق إلى الوحدة العربية » اليس كذلك ؟

قلت بصوت خافت : نعم .

قالت : هل تذكر متى كتبت ذلك الفصل . أعتقد انه في اوائـــل عام ١٩٦٦ .

قلت : نعم .

قالت : في ذلك اليوم الذي قلت فيه ما تعتقده من أن الثورة هي تحطيم القانون .

قلت مقاطعاً : اسمعي . أنا لم أقل تحطيم القانون بهذا النص . قلت على ما اذكر ، عدم الخوف من القانون .. أو تحدي القانون .. أو شيئاً من هذا القبيل ... ليت الكتاب معنا الآن .

قالت : فليكن . المعنى واحد . عندما يقوم القانون حائلا دون الغايات التي تدعو اليها فانك تدعو الناس إلى إختيار الغاية بدون توقف عند القانون . المهم انه منذ ذلك التاريخ نبتت فيك تلك البذرة ، بذرة الشوك الذي أدمى ضميرك وارقك ليالي طويلة . منذ ذلك اليوم الذي كتبت فيه ما كتبت بدأت مشكلة حياتك التي صاحبتك ملحة وهربت منها متردداً إلى أن وجدت نفسك ، وجدتني معك ، نواجهها الآن . وبالله عليك لا تقل ان هذا شيء جديد . فلقد شاهدتك اياماً واسابيع وأشهر طويلة في مكتبك ، وفي منزلك ، وقت عملك ووقت لهوك ، وانت مع الناس وانت وحدك ، ساهماً ممزقاً

حزيناً بفعل التناقض الذي يكاد يفرق بيننا ويضعك في موقف مضاد مني . مني انا نفسك التي لا تستطيع ان تسعد انت الا اذا كانت هي معك في اتساق كامل . مائة . الف . مليون مرة تسأل نفسك ، تسألني ، هذا السؤال المر : كيف أدعو الناس إلى تحدي القانون ، مع كل ما اعرفه من آثار تحدي القانون ، وانا اعرف انك غير مستعدة لا لتحدي القانون ولا لتحمل آثار تحديه ؟ .. كيف أدعو الناس بقوة إلى فعل لا أملك القوة على فعله ؟ .. أي عذاب يسحقني كلما تصورت ان شاباً مجهولا قد يصدقني فيذهب إلى السجن الذي اتهيبه . انني لم أمر بالتجربة . لم تقتحم الشرطة مسكني . لم ينتزعني احد من اعزائي . لم ار الزنزانة ولم اجرب التعذيب . لم أتهم . لم احاكم. انا أكتب فقط من مكاني المريح وادعو الناس إلى هجر منازلهم إلى السجون ثم اتوجه إلى منزلي . فهل انا كاذب ام صادق . آه . وصلنا .. اليس كذلك .. باختصار انك كنت تعيش قيماً لم يثبت صدقها في التجربة ، وكان يعذبك ما تعرفه من انها لم تثبت في التجربة ، ويكاد يطحنني معك شكك في امكان ثبوتها في التجربة ... إلى ان وجدت نفسك ، وجدتني ، في قلب التجربة حتى بدون ان نتحدى ، لا أنت ولا أنا ، أي قانون . هذا هو سر سعادتك وسر راحتي التي تسعدك . ان ايام عذابك الصامت الطويل ، ايام احزانك الغامضة ، ايام مخاطر التناقض بيني وبينك ، قد اوشكت على النهاية . صحيح أنك لم تختر التجربة ولكن هذا لا يغير من الامر شيئاً . انك فيها وانا معك . وقريباً سنعرف ان كنا قادرين على ان نتعايش صادقين أم لا . وأنا اعرف أن النتيجة لاتهم كثيراً . الذي اعرفه اكثر يا صاحبي هو اننا عشنا سوياً سبع سنوات نحاول الاجابة على سؤال يتعلق بذات العلاقة بيننا . وما كان يرهقنا معاً ليس نوع الاجابة بل عجزنا عن معرفة الجواب . ونحن الآن مكرهان على ان نجيب ، اية اجابة . بعدها تنتهي مشكلتنا التي كادت تفسد حياتنا . فنحن الآن نواجه كل مخاطر تحدي القانون . بحق أو بغير حق لا يهم . المهم انك منذ الآن ، ومهما تكن النتيجة لن تر مرة أخرى ذلك الكابوس الذي

كان يطرق عليك باب حياتك ويسألك سؤاله الساخر : هل أنت على استعداد لكي تواجه المواقف التي تدعو اليها غيرك ؟ .. اني لست في حاجة إلى ان اقول لك ا لجواب . فاني اعرف انك منذ ان وجدت الشرطة تحيط بك ، بعد أن انتزعتك من اعزائك وساقتك إلى المجهول ، قد عرفت ا لجواب . ها انا ذا ، أخيراً ، أصدق مع نفسي وأخوض المخاطر التي دعوت اليها الآخرين . ذلك كان مصدر السعادة التي طغت على مشاعرك وانت تخطو من منزلك إلى المجهول . لانك في تلك اللحظة فقط عرفت معرفة اليقين انك صادق معي أنا الغالية العزيزة عليك . أنا نفسك . فلتنم يا حبيبي وسأستريح أنا معك فلقد انقضت أيام تعبنا الطويل .

ثرثارة هى نفسي تلك .

ومع ذلك لم يكن هذا الا مثلا لما شغلتني به منذ أن التقينا معاً بعد منتصف ليلة يوم ١٦ فبراير سنة ١٩٧٢ . والواقع انني استطبت معاشرتها واستغلت هى انفرادها بي لتكشف لي من جدها وغيها ما لم أكن أعرفه أو اتصوره . تصور أنك تعيش مع نفسك العمر كله وأذ بك تكتشف انك لم تعرفها معرفة كاملة قط ...

بعد الايام الاربعة الاولى قالت لي : اسمع . عندي لك مفاجأة .

قلت : أية مفاجأة تأتي منك وأنا الذي أعرفك جيداً .

قالت متضاحكة : هذا ما تظنه أنت ... انك لم تعرف مني الا ما كنت تريد ان تعرفه .

قلت متحدياً : مثلا .

قالت : مثلا .. هل تعرف انني فنانة ؟ ..

قلت ساخراً : هل هذه هى المفاجأة ؟ . أعرف أنك تعشقين الرسم

وتحاولينه .. ولا انسى الأيام التي انتزعتني فيها من المدرسة الثانوية لنذهب سوياً نرسم على شاطىء ترعة الابراهيمية في أسيوط . كما اني لا يمكن أن انسى الأيام التي لوثت فيها ، برعونتك ، سترتي الوحيدة بالألوان وأنت تحاولين الرسم . أو يوم أن اكرهتني إكراهاً على أن اقتطع من وقتي المحدود ثلاثة أيام كاملة أقضيها في متحف اللوفر في أول زيارة لي لباريس أو ...

قالت مقاطعة : لا ...

قالتها بنبرة ممطوطة ساخرة تتضمن في جرسها الرخو معنى « يا مغفل » .

تجاهلت السخرية وقلت : هل تعرفين من الفن شيئاً غير الرسم ، والنبي اتلهى ، هل تذكرين السنة الأولى في كلية الحقوق حينما كنت تجرينني جراً إلى قاعة الموسيقى تنصتين ساعات للمقطوعات الكلاسيكية زاعمة انه لا ينقصك إلا معرفة الموسيقى .. وأنا أضحك منك في كمي ، كما يقولون ، لانني كنت اعرف انك « سرحانه » في أشياء أخرى وانك في الحقيقة لا تستطيعين التفرقة بين الحان تشايكوفسكي وضجيج شكوكو ..؟

قالت بدلال : ومع ذلك أنا فنانة . أديبة .

فضحكت كثيراً ثم قلت : أديبة ؟ .. ياسلام .. اننا منذ أن قرأنا سوياً « اوراق الورد » و « رسائل الاحزان » للرافعي في السنة الثالثة من الدراسة الثانوية ، ومنذ تلك النزوة الطارئة التي بددت فيها عاماً تقرئين مسرحيات إبسن وشكسبير خلال الدراسة الجامعية .. لم تقرئي كلمة واحدة من الادب. أم تظنين أن شعر المراهقة أدب . بل اني أتهمك بأن كراهيتك للادب ، تلك الكراهية التي هي تعويض مفتعل عن العجز عن الخلق الادبي ، هي التي حملتني على أن أردد في مناسبات متعددة رأيك السوفسطائي الذي كان يقول : ان الادب والفن عامة درجة من السمو الانساني تتجاوز بكثير المستوى المتدني الذي تضعنا فيه هموم أمتنا . الست أنت التي لقنتني القول بأن الفن ترف يتجاوز الرخاء في حين أن على أمتنا وجماهيرها المسحوقة أن تكافح من أجل

تجاوز مرحلة الفقر . ألم تغضبي مني عندما « غافلتك » وقلت في كتابي ألاول « أسس ألاشتراكية العربية » ان الفن والادب يقومان بالنسبة إلى الانسان بذات الوظيفة التي يقوم بها الدين ، يصقلان انسانيته ليكون قادراً على تغيير واقعه ألاجتماعي . قولي أي شيء ولا داعي لمسألة ألادب هذه .

أتدري ما الذي حدث ؟

تلفتت في الزنزانة فلم تجد أي شيء يصلح للكتابة به . فقامت إلى دواء « الجوكوفير » وأخذت بضعة من حبوبه الحمراء واذابتها في أناء فارغ من الورق ، واحد من تلك الاواني الورقية التي يعبأ فيها لبن الزبادي ، فاذا هو حبر أحمر . ثم تأتي بالمصحف وتشير إلى هوامشه البيضاء المتسعة . ثم تنتزع باظافرها الطويلة شظية من خشب الكرسي العتيق ، وتضع كل هذا بين يدي وتأمرني أمراً بأن أكتب . ثم يوماً بعد يوم تملي علي ما لا أدري كيف أستطاعت أن تصوغه . ثلاثة اسابيع كاملة ثم قالت : اقرأ. فاذ بي أمام مسرحية كاملة أسمتها « هو » . والحق أنني رأيتها مسرحية رائعة كتبت دفعة واحدة بدون مراجعة كما لو كنت انقلها من أصل مكتوب .. ضحكت شامته ثم قالت : ما رأيك الآن .

قلت : مدهشة . لم أكن أعرف ..

قالت متهكمة متألمة : ليتك عرفت في الوقت المناسب إذن لأرحت نفسك ، أعني أرحتني ، من كل ذلك الحديث الذي تؤذن به في مالطة وفعلت شيئاً ابقى وأخلد .

قلت ثائراً : ولو ..

قالت : انك عنيد وأنا أعرفك . المهم أعترف بأنني فنانة ودعنا نخلق ما نستطيع .

قلت محتجاً : لا . مسرحيات أكتبها بتلك الشظية . لا .

قالت : فليكن : « بلاش » مسرحيات .

وأخرجت لي من تحت أبطها قطعة من الخشب وسكينا وبدأت هي — وليس أنا هذه المرة — تنحت وتنحت ، وبعد اسبوعين قدمت لي تمثالا ، لم أستطع — وأنا أراقب محاولتها ألاولى بآداتها البدائيه — ألا الاعتراف بأنه رائع . كان تمثال فتاة عارية تضم بعضها إلى بعضها وتخفي رأسها بين ركبتيها . أسمته (الحقيقة) . وقالت فأبانت : عندما تبدو الحقيقة عارية في الوطن العربي لا بد من أن تخجل من نفسها فتخفي وجهها . وهكذا — أكتشفت فيها جانباً انسانياً حقاً لم أكن أعرفه تماما . وكنت بذلك سعيداً فشاركتها وشاركتني محاولات لم تنقطع من الخلق الفني ، انقضت فيها أيام طويلة ارادوها سجناً فحولها الفن ومحاولاته إلى خلوة عبادة . ارادوها قهراً وقسوة فحولها الفن ومحاولاته إلى لذة ومتعة ...

أكثر من هذا متعة لي كان ذلك الجانب العابث الذي كان لعبة نفسي المفضلة مع انني — شخصياً — كنت أنكره عليها وأنكره على غيرها واراه غير لائق بالجادين مثلي من الناس . عندما حاولت أن تعبث أول مرة نهرتها . فقالت : هوّن عليك . ما الذي جنيته من الجد والتزمت . ان العبث كتلك الرقصات أو ألاغاني التي يقدمونها فيما بين فصول المسرحيات المملة. إن لم تنفع فهي لا تضر . فدعنا نعبث قليلا .

وكيف ؟ .. هكذا تساءلت .

قالت : اسمع .

ثم أسرت لي في أذني بخطتها الجهنمية، وبدأت أنا في التنفيذ كما هي العادة . كان الضحية هو الضابط (....) أحد الجماعة المكلفة باخراج قضية أكون المتهم الاول فيها . عرفت من نفسي أن الضابط المذكور ، محدود الذكاء ، قد حلل شخصيتي وانتهى إلى أنني مغرور وأن معاملتي حسب ما يرضي غروري هي المدخل إلى إلانزلاق بي إلى المواقع التي يريدها . وكان العبث الذي

أوصتني به نفسي هو أن أجاريه وأبالغ في الغرور ثم أتأمله وهو يحتمل ويكتم غيظه من أجل ما يريد ... وبدأت اللعبة . يقول — مثلا — مساء الخير يا دكتور . فلا أرد التحية كما يفعل خلق الله عادة . بل أقول . هل تعرف يا ... كيف حصلت على الدكتوراه . وهات يا اختراع . والمسكين يسمع ويوافق ويبدي عجبه واعجابه ليرضي غروري . فان سكت لينهي الحديث ، بدأته من جديد . أنت يا .... تذكرني بزميل نضال قديم يوم أن كنا نجهز للثورة ... وهكذا . اسمعته عشرات القصص في غير مناسباتها وهى قصص لا تصدر إلا من مريض حتى الجنون بذلك المرض الذي يسمونه الغرور . وكلما ضاقت أنفاسه ضحكت نفسي ، إلى أن كف السيد ... عن مجرد رؤيتي . ولقد ضحكنا كثيراً ونحن نلعب تلك اللعبة التي لم امارسها من قبل ولم أكن أتصور أن نفسي التي تبدو جهمة متزمتة تعرف ، بل تتقن ، قواعدها وممارستها .. ولست في حاجة إلى القول انني قد تعلمتها منها وأتقنتها ثم مددت أطرافها العابثة إلى غيره ممن استطعت أن انالهم ... وهكذا حولت اللعبة الكئيبة إلى لعبة مرحة ، مع أنهم كانوا يلعبون لعبتهم في ذات الوقت الذي العب فيه لعبتي ...

(٣)

في ١٩٧٢/٨/١١ مساء

كادت نفسي العابثة أن تحيل رسائلي اليك حديثاً متصلا عنها فقطعته عامداً هذا الصباح . وها انا ذا أعود اليك هذا المساء لاعود بك إلى موضوعنا الاصيل . علاقة القانون بالانسان إذا لم تخن الذاكرة .

كان أول لقاء بالقانون — كما عرفنا — في الظلام . وقد حدثتك عن ضيعة الانسان والقانون ذاته إذا التقيا في الظلام بمعناه المادي ، من المغرب إلى الشروق وبمعناه الفكري ، الجهل بمبررات الالتقاء . وبعد هذه المرحلة يلتقي الانسان

بالقانون في صورة بشر . هل تتذكر الخلاف بين فقهاء القانون في تعريف القانون ، ذلك الخلاف الذي قضينا العام الاول في كلية الحقوق ندرس أسبابه ومضمونه ونتائجه . مساكين أولئك الفقهاء . خذها عني : القانون هو البشر الذين ينفذون النصوص التشريعية . وأول ما يلاقيك متجسداً في رجال الشرطة . وأول من جسده في لقائه معي كان رجال شرطة أمن الدولة . انتبهت اليه فيهم وأنا راكب سيارة ملاكي جيزة يحيط بي ضباط يلبسون الملابس المدنية العادية . وكان انتباهي سؤالا : لماذا يتنكر القانون ؟ لماذا تحمل سيارة الشرطة أرقاماً وعلامات زائفة ويخفي رجال الشرطة حقيقة وظائفهم بملابس مزيفة ؟ طوال هذه الرحلة من المنزل إلى المكتب ، واثناء التفتيش ، كنت مشغولا بهذا السؤال عاجزاً عن الاجابة عليه . ان القانون بكل جبروته ، وبكل ما هو مفترض فيه من عدالة أيضاً ، مجسد الآن في هؤلاء البشر الذين يوحون إليّ إيحاء قوياً بأنهم عصابة تخشى القانون فتزيف ملابسها وسياراتها.ومن يدري. كيف يستطيع الانسان أن يتأكد من أنهم القانون مجسداً وليس عصابة نشطة ؟.. البطاقات ؟ .. أنهم لا يقدمونها . ثم ان العصابات قد تزيف البطاقات . ولنفرض أنهم القانون متجسداً في بشر فلماذا يتنكر القانون ويخفي ذاته . ليتجسس ؟ .. ولماذا يتجسس القانون ؟ .. لماذا لا يواجه الانسان سافراً ، ويسأله صريحاً ، ويحاكمه علنا ؟ ... يا صديقي انني لم أفهم الاجابة قط . اني أفهم أن القانون قد يوظف طائفة من الناس يراقبون الناس خفية فيتخفون ، اما لأن القانون لا يريد أن يشعر الناس بأنه يراقبهم واما لانه يريد أن يعرف ما يتعمد الناس إخفاءه من جرائم . تلك مرحلة جمع المعلومات والتحريات ..... الخ حيث تكون غاية القانون أن يعرف . ولكن عندما يبدأ القانون في مواجهة الناس على ضوء ما عرف فلماذا لا يواجههم مكشوف الوجه بينّ الهوية ؟ .. ان الذين اقتحموا مسكني ومكتبي وقبضوا عليّ لم يكونوا يبحثون عن معلومات أو تحريات كما يسمونها ، بل كانوا ينفذون القانون فيّ وعليّ . كانوا هم القانون

قد عرف ما عرف وقرر ان يلتقي بي ، ومن حق الانسان ، اي انسان ، أن يعرف الوهلة الاولى ، وبدون حاجة إلى سؤال ، أن ذلك الرجل الذي «يلبس» ملابس منفذي القانون انما يتقدم اليه بأسم القانون . أنا لا أدري كيف يعرف الصينيون القادة من الجند في جيشهم ذي الملابس موحدة الطراز ، ولكني أعرف الآن ، من تجربتي ، أن على رجال الشرطة في كل الظروف أن يميزوا أنفسهم بزيهم الخاص حتى يتجنب الانسان، كل انسان، رعشة الرعب عندما يجول بخاطره وهم يأخذونه إلى حيث لا يدري أنهم قد يكونون عصابة مجرمة... ان كنت تحسب أن تلك مسألة شكلية فلقد كنت احسبها كذلك إلى أن عرفت الاوهام التي تعذب الانسان . تكاد تفتك بذهنه وهو لايدري على وجه اليقين من هم هؤلاء الذين يقبضون عليه وينتزعونه من منزله ويستبيحون حرمة مكتبه.

ومع ذلك فثمة ما هو أدهى وأمرّ من أمر هذا القانون . أنها مشكلة لمستها بيدي في كل لحظة من اللحظات التي قضيتها في قبضة أو في سجن أولئك الذين يتجسد فيهم القانون . وأعترف مقدماً أني لم أجد لها حلا كاملا . ان أولئك الذين يحتكون بالانسان ويبعثرون أمنــه بأسم القانون لا يقيمون وزناً للقانون . انهم لا يخالفونه عامدين أو غير عامدين . ليتهم كانوا كــذلك . أنها إذن لمشكلة بسيطة . انهم يفكرون ويتصرفون مؤمنين بأن القانون لا يلزمهم أسلوباً في سبيل خدمته . يعرفون جميعاً أن القانون (١٩٦٨) يحرم عليهم دخول سجن القلعة إلا بإذن من النيابة العامة ، ومع ذلك فإن مدير سجن القلعة التابع لمصلحة السجون يقيم ، بأمرهم ، ولا تضحك ، خارج السجن ويتولى إدارة السجن واحد منهم مقيم فيه . السجانون مخبرون تابعون لهم . لا يجوز لهم التحقيق من وراء ظهر النيابة ويحققون . يعرفون أن التعذيب جناية خطيرة ويعذبون . يعرفون أن ليس من حقهم حضور التحقيق ويحضرون . يعرفون أن القانون يخول النيابة العامة وحدها حق الاستجواب ولكنهم يتدخلون في الاستجواب ويسألون ... الخ . سلسلة غير مقطوعة من المخالفات القانونية يرتكبها أولئك الذين يتجسد فيهم القانون . ويبدو أن هذه قاعدة المستبدين .

عندما قال لويس الرابع عاشر « الدولة أنا » الغى الدولة وبقي هو . ومثله كل مستبد . ومثله من يجسد القانون فيصبح القانون هو فيلغى القانون ويبقى هو . والغريب المدهش المثير حقاً هو أنهم يفعلون هذا مقتنعين اقتناعاً كاملا بأنهم لا يتجاوزون حقوقهم بل انهم يتفانون في تنفيذ القانون . أما مصدر الحق ، ومرجع القناعة ، فهو – كما عرفت منهم – التقاليد الواقعية . ولقد كانت فضحية مفزعة لم يهتم بها أحد في المحكمة عندما سأل أحد المحامين كبيرهم الشاهد .... كيف تدخل السجن بدون إذن ؟ ... فقال ببرود عجيب فلنكن واقعيين انني أستطيع أن احضر أي واحد من السجن إلى مكتبي فلماذا لا أذهب اليه . تأمل . المحكمة ذاتها لم تنتبه إلى الدلالة الخطيرة لتلك الكلمات المشينة . أي ضمان أمن اذن لاي أنسان إذا كان ضباط مباحث أمن الدولة قد نشأوا على تقاليد تضعهم « واقعياً » فوق القانون . إذا كانت التقاليد القديمة فخذها مني كالصاعقة . بالرغم من كل شيء فاننا لم نتحرر تماما من الاحتلال الانجليزي الذي أنشأ قسم الشرطة السياسي وأرسى قواعده الخالده . أي تحرر ذاك إذا كان من تقاليد أخطر جهاز في الدولة أن يخدم القانون بأي أسلوب ولو كان أسلوباً غير مشروع ؟! أي قانون ذلك الذي يخدمه . لو كان واحد أو اثنان أو حتى خمسة هم الذين يفعلون هذا لهان الامر . ولكن المأساة أن عدم التزام القانون في الاسلوب هو قانون أسلوب جهاز أمن الدولة . كيف يمكن أن ينتهي هذا ؟ ..

لست أدري .

أو ربما حدثتك عن بضعة أفكار غير ناضجة عندما يصل الحديث بنا إلى موضوع السجون . ذلك لان خلاصة التجربة هو أنك منذ اليوم الاول الذي تدخل فيه السجن لا تفتقد في السجن شيئاً ، أي شيء ، حتى المخدرات.. ألا شيئاً واحداً : القانون .

وأشعر بأنني قد أطلت عليك . ولكن لقد سبق السيف العذل . انها البداية.

وأحسبني سأكتب كثيراً . الواقع أني أكاد أشعر بأني أتحدث إلى نفسي ولا أتحدث اليك أو أني أكتب مذكراتي ولا أكتب رسالتي . واني لاجد في هذا متعة لا أجرؤ على قطعها . هذا مع اعترافي بأنني لم أكن أنوي الاسترسال في الحديث ... آه ... ربما هى نفسي تلك الخبيثة تعبث مرة أخرى . لا . انها تقول انها لا تعبث . بل تؤكد ما قالته لي منذ البداية . انها تكتب وتتحدث لتظل دائماً مبقية على ضراوة المعركة التي نشبت منذ ستة أشهر بيني وبين الذين ارادوا لي أن أسكت وأن أكف عن الكتابة .

وتصبح على خير وإلى اللقاء غداً .

(٤)

في ١٩٧٢/٨/١٢

أني اتحدث اليك على السجية لا أفتعل . فأما أن أكمل حديث الليلة السابقة افتعالا وأما أن احدثك بما أنا به منفعل . وللآخرة خير لي من الاولى . فلا تنس الذي قلت إلى أن أعود اليه واليك . ما أريد أن أقوله هو أنني كنت أفكر فيك حين كان نظري يدب على أسطر الصفحة الأولى من صحيفة « الاهرام » إذن **فأنتم** تريدون تحريم أية منظمات خارج أطار الاتحاد الاشتراكي العربي . إذن لم تكن هى محرمة بقانون . اذن لماذا أنا هنا. وليس هذا مهما فان قضيتي ليست شكلية إلى هذا الحد . المهم أنكم تريدون أن تحققوا الوحدة الوطنية بقانون رادع . وموعدكم يوم الثلاثاء . فليكن الله في عونكم فأنتم في أشد الحاجة إلى عنايته .. ولكن أية وحدة وطنية ؟ ... وعلى ماذا الوحدة الوطنية ؟ .. ولماذا الوحدة الوطنية ؟ بارك الله فيكم جزاء ما أثرتم فينا من تساؤلات التهمت يوماً كاملا من تلك الايام الرتيبة التي يطيلها الفراغ حتى يصبح اليوم دهراً . وجئت أحدثك عن الافكار التي هضمتها ثم لم اكف

عن اجترارها اغلب النهار .

انني افترض ، وأفهم ، مما نشر ، أن الوحدة الوطنية لازمة لمعركة مسلحة يقاتل فيها الشعب مع ، أو خلف ، طليعته المسلحة (ا لجيش) لتحرير الارض العربية المحتلة . بدون هذا الفرض تسقط الوحدة الوطنية ولن يكون البديل التاريخي الحتمي الا ما هو أكثر عنفاً وتدميراً من الحرب ذاتها . وأعتقد أنك تدرك هذا تماماً . وفي يوم قادم تأتيك بشائر ا لخبر اليقين . ستكون مصر في حالة حرب.اما حرب ضد إسرائيل واما حرب أهلية. انني اتنبأ. هو كذلك. ولقد سبق أن تنبأت بأحداث الطلبة قبل بدايتها بستة أشهر . على أي حال ان حديثي عن الوحدة الوطنية . والوحدة الوطنية ، أيها الناس ، تعني أو تفترض أن ثمة قوى أو اتجاهات مختلفة في الوطن الواحد . بدون التسليم بأن هناك خلافا بين القوى الاجتماعية في الشعب وان ثمة مبررات موضوعية لذلك الخلاف ، تكون دعوة الوحدة الوطنية شعاراً فارغاً . وتكون محاولة بناء الوحدة الوطنية أو حمايتها مضيعة للوقت . اذ لولا ا لخلاف واسبابه الموضوعية لكان الشعب موحداً وبالتالي لما كان ثمة مبرر للدعوة إلى الوحدة الوطنية والعمل من أجلها . انما يأتي مبرر الوحدة الوطنية بين القوى الاجتماعية المختلفة عندما تواجه تلك القوى جميعها عدوا مشتركاً فيكون عليها ، لتأمين مصالحها جميعاً ، أن تؤجل — أقول تؤجل ولا أقول تلغى أو تتنازل — تؤجل خلافها وصراعها لتوحد جهودها ضد عدوها المشترك حتى تنتصر عليه . يترتب على هذا أن الوحدة الوطنية لا يمكن أن تقوم من أجل المفهوم « الرومانتيكي » للوحدة الوطنية أو خوفاً من ردع القوانين التي تصاغ لفرض الوحدة الوطنية.تلك أفكار طفولية. انها تتم، أو يمكن أن تتم — أقول يمكن أن تتم ولا أقول يتظاهر الناس بقبولها — إذا تحدد لها مضمون واضح يجيب إجابة لا تحتمل التأويل على السؤال الآتي : ما الذي نوحّد عليه جهودنا ونؤجل من أجله خلافاتنا ؟ ان أي غموض في الاجابة على هذا السؤال لن يؤدي — في أحسن الظروف — إلا إلى وحدة وطنية شكلية يقبلها الجميع علنا

ويحاول كل واحد خفية – الغدر بها . ولو عن طريق استغلالها لصالحه . فتنفض ولو بعد حين .

ان كل الشروط الموضوعية للوحدة الوطنية في مصر العربية متوافرة . أولها الاحتلال الاسرائيلي . وثانيها أن التناقضات بين القوى الاجتماعيةليست عميقة أو جوهرية أو ملحة بدرجة عمق وجوهرية والحاح التناقض بين كل تلك القوى من ناحية وبين عدوها الصهيوني الاستعماري من ناحية أخرى . أذن فهي قابلة موضوعيا للتأجيل إلى ما بعد التحرير . ولكن ما هو الهدف المشترك الذي تتم عليه الوحدة الوطنية أو يمكن أن تتم عليه ؟ هنا النقطة الجوهرية إن الوحدة الوطنية لا يمكن أن تكون محلا للبحث الجاد إذا كان الهدف هو إزالة آثار العدوان واسترداد الارض المحتلة . لسبب بسيط : ان هذا ليس محلا للخلاف . وقد قلت ان التسليم بوجود خلاف هو مبرر الدعوة إلى الوحدة الوطنية أو العمل على تحقيقها . الاختلاف بين الناس قائم الآن حول الاسلوب: قتال أم لا قتال . لا أقول حرباً أم لا حرب . ومن باب أولى لا أستعمل ذلك التعبير البهلواني « لا حرب ولا سلام » ... اننا في حالة حرب منذ ١٩٤٨ ، والشيء الوحيد الذي يمكن أن يجدّ بعد حالة الحرب هو القتال الفعلي . وهكذا ترى ان كثيراً من الناس كانوا معذورين حين لم يفهموا تماماً دلالة القول بأن قد اتخذنا قراراً بالقتال بدون أن يدور قتال . لان القرار بالقتال بدون قتال مجرد اعلان للحرب . والحرب معلنة منذ ربع قرن . وفي ظل حالة الحرب لا يكون ثمة محل لأي قرار سوى القتال الفعلي . الاشتباك . اطلاق النار . وما يستلزم ذلك من قرارات تابعة تخدم القتال الفعلي كالتعبئة مثلا . مؤدى هذا أننا إذا أردنا أن ننجز ذلك الهدف القومي الكبير ، الخطير ، المؤثر ، الذي هو الوحدة الوطنية فلن نستطيع انجازه حقيقة ، وليس شكلا ، إلا على الالتزام الجماعي بالقتال . هل القتال فوراً ؟ ... لا . ان المسؤولين مسؤولون عن توقيت بدء العمليات وبالتالي من حقهم أن يحددوا وقتها على ضوء الامكانيات المتاحة والمتوقعة وفرص النصر . هنا يرد سؤال اعتراضي ألم يردد السيد

رئيس الجمهورية ، المسؤول الاول ، هذا الذي أقول عشرات المرات . ألم يقل ان قرار القتال قد اتخذ ولا رجعة فيه ؟ . بلى . ولارد بسؤال مقابل : الا يدعو رئيس الجمهورية أيضاً إلى الوحدة الوطنية وهو ما يعني أنها غير متحققة ؟ .. بلى أيضاً . أين الثغرة في موقفنا إذن ؟ .. كيف ان الوحدة الوطنية غير متحققة إلى الدرجة التي تستدعي مجلس الشعب لاجتماع طارىء ليصوغ لها قانوناً يلزم الناس بها مع أن قرار القتال قد اتخذ ولا رجعة فيه ؟ .. الثغرة هي ان البدائل عن القتال ما تزال قائمة ومطروحة . قائمة بيننا ومطروحة منا . قرار مجلس الامن . مبادرة روجرز . مبادرة فبراير . يارنج ... ثم ذلك السيل من الكتابات والاقوال غير المسئولة التي يرددها اساتذة النفاق أو معلمي الانهزامية وهم يمدون — بكل طريقة — في حياة أمل الحل السلمي . إذن ففيما أرى :

أولاً : إن محاولة فرض الوحدة الوطنية على غير القتال عبث أو ارهاب .

ثانياً : إننا نستطيع ، ويجب علينا ، أن نفرض الوحدة الوطنية على القتال.

ثالثاً : إننا لا نحتاج في هذه الحالة إلى إعادة تأكيد ان قرار القتال قد اتخذ ولا رجعة فيه .

رابعاً : إننا في أشد الحاجة إلى حرق البدائل عن القتال التي تحول — هي التي تحول — دون الوحدة الوطنية وذلك برفض قرار مجلس الامن الذي دفنه أصحابه فعلا . أي أن رفضه من جانبنا لا يعني أكثر من اهالة التراب على جثة متعفنة . سحب الموافقة على مبادرة روجرز . سحب مبادرة فبراير ١٩٧١ . الالتزام الشعبي بأن يكون القتال المسلح هو الاسلوب الوحيد للتحرير .

إن مجرد الاعتراف بالواقع بدون اتخاذ مواقف ملزمة منه لن يحقق الوحدة الوطنية التي تقتضيها ظروف أمتنا المهزومة . ولن يحققها القانون .

إذا تمت الوحدة الوطنية على هذا الوجه فان تدعيمها وحمايتها يقتضيان امرين لن تعيش الوحدة الوطنية بدونهما :

الاول : حمايتها بالقانون : أقصى العقوبة لمن يقف ضد الوحدة الوطنية بالدعوة الصريحة أو الضمنية ، وبالحركة الفردية أو الجماعية ، إلى العودة إلى الحلول السلمية أو السياسية أو مناهضة أسلوب القتال المسلح لتحرير الارض العربية المحتلة . أقصى العقوبة لمن يفعل أو يحاول ، ما من شأنه أضعاف أو فض الوحدة الوطنية بتقديم الخلافات الداخلية على الصراع الاساسي بيننا وبين اسرائيل أو يحاول إستغلال الوحدة الوطنية للحصول على مكاسب أو إمتيازات لم تكن له من قبل . أقصى العقوبة لمن يحاول ، ظاهراً أو خفية ، بطريق مباشر أو غير مباشر ، تأجيل القتال أو الدعوة إلى تأجيله إلى ما يتجاوز أجلا أقصى يحدده ويعلنه ويعرفه الشعب وأصدقاؤه وأعداؤه أياً ما كان تاريخ هذا الاجل.

باختصار ان الوحدة الوطنية على القتال أخطر من أن يعلق مصيرها على النوايا فمن اراد ان يبقى فيها يبقى ومن اراد ان يتراجع عنها يتراجع . أو بمعنى آخر عندما تقوم الوحدة الوطنية على القتال لا بد ان تصبح جزءاً من نظامنا الدستوري والقانوني تبقى حتى النصر مهما طالت المعركة .

الثاني : إذا تم هذا ، وفي إطاره ، أي في إطار قانونه الرادع فإن الوحدة الوطنية — كما قلت — تقتضي تأجيل الخلاف وتوحيد الجهود على موضوعها . ولما كانت قوى وأفراد كثيرون متعرضين حالياً للسجن أو العزل السياسي أو الاعتقال ... الخ جزاء على خلافات قامت بينهم وبين السلطة فإنهم — فيما عدا العملاء لقوى أجنبية — يجب أن يخرجوا من سجونهم أو من عزلتهم ليأخذوا أماكنهم في الوحدة الوطنية على القتال . ان قانوناً لحماية الوحدة الوطنية لا يتضمن إنهاء العقوبات الاصلية والتبعية عن كل الجرائم « السياسية » السابقة على صدوره لن يكن في حقيقته الا تهديداً قانونياً لمن هم خارج السجون ووسيلة قانونية لانتقالهم اليها .

هل أحلم ؟ .. يبدو هذا . فهأنذا أكتب اليك رسالة لن تصلك . .

إن وصلتك قبل أن يكون قانون الوحدة الوطنية قد صدر . إنه إذن ، حديث كاحاديث الاحلام قد يغطي المستقبل كله ثم ينتهي باليقظة في لحظة ، دعنا إذن نعود إلى ما كنا فيه من حديث .

(٥)

في ١٩٧٢/٨/١٢ مساء

. . . . .

كنا نتحدث عن أولئك النفر من البشر الذين يتجسد فيهم القانون في المرحلة الاولى من احتكاكه بالانسان : رجال مباحث أمن الدولة . وأنكرنا عليهم أن يتجسسوا أو يتلصصوا مع أنهم يمثلون القانون . وقد تحسب إنني أنكرت ما أنكرت دفاعاً عن الانسان وحده . أبداً . انه دفاع عن الانسان والقانون معاً . القانون متجسداً في رجال مباحث أمن الدولة . أي إنه على وجه ، دفاع عن رجال مباحث أمن الدولة من حيث هم نفر من بني الانسان . لقد عايشتهم فترة طلقة بعد أن إنتهى التحقيق . أى بعد أن أدوا ما أمروا به . عرفتهم أفراداً . وعرفت الانسان في كل فرد منهم . وأستطيع أن أقول انني وجدت في بعض من عرفتهم نماذج من خيرة الشباب . ذكاءً وثقافة متفوقة وخبرة فذة بالحياة ، ونضج سابق لاعمارهم ، وآراء في مجتمعهم نافذة كأشعة الليزر ، ثم فوق هذا دماثة في الاخلاق . ولن أنسى ما حييت واحداً منهم كان يتحـدث إلي ، في الزنزانة ، عن هموم وطنه فإذا به يجهش بالبكاء وينتحب ، فاكتشف فيه ، في أعماقه ، أحزان شعبه جميعاً .. متى عرفت فيهم كل هذا ؟ .. بعد أن أتموا ما أمروا به . بعد أن قاموا – بكفاءة فذة – بدورهم البوليسي بكل ما فيه من مخاتلة وكذب وخداع واستدراج وتزييف وقسوة قسوة مثل قسوة الوحوش . كل منهم، بغير إستثناء ، دكتور جيكل ومستر هايد . فانظر إلى نفر من البشر يلعبون ساعة بعد ساعة

ويوماً بعد يوم أدوارا لا يؤمنون بها ولا يصدقون وعودها ويعيشون ممزقي الضمائر معدومي الثقة بالواقع وبأنفسهم . تصور القانون لا يتجسد في أفراد إلا بعد أن يكون قد شوه فيهم الانسان وحولهم إلى مثل ذلك المسخ ذي الشقين : دكتور جيكل ومستر هايد . فهل يصلح المسخ البشري لتجسيد القانون ؟ .. هل يصلـــح إنسان قادر على الكذب مثـــل مقدرته على الصدق ، قادر على التعذيب مثل مقدرته على الصداقة ، انسان محدود بالامر بلا حدود في السلطة ، تقي في ذاته بلا قيم مع غيره ... هل يصلح ليجسد القانون في إحتكاكه بالانسان ؟ ..

ثم ليت الامر يقف عند هذا الحد . إنني من أعماق الصعيد كما تعرف. من تلك المنطقة التي بذت ، يوماً ، شيكاغو في العنف كما لا بد تعرف . وقد عشت نصف عمري في ذلك المجتمع القريب من البداوة ، ورأيت الناس يعيشون سنين في ظل الرعب ، الخوف من الموت ثأراً . رأيتهم رجالا وشباباً ونساء أيضاً يسعون في الارض مسلحين ، خائفين ، ساهمين ، يتوقع كل منهم في أية لحظة ، رصاصة تنطلق من حيث لا يدري لتهتك قلبه ، كل هذا تحت سحابة من الخوف الموروث من السلطة وممثليها . ومع ذلك أشهد بأنني لم أر في حياتي رعباً قاتلاً مثل الرعب الذي يعيش فيه رجال مباحث أمن الدولة . كل منهم ، من أول أعلى رتبة إلى آخر المخبرين الصغار ، مرعوب وخائف من زملائه الآخرين . انهم يعرفون أن وظيفتهم تحتم عليهم ان يتركوا ضمائرهم واخلاقهم وقيمهم في منازلهم قبل أن يذهبوا إلى حيث يعملون . فهم يعملون معاً بدون ضمائر أو أخلاق أو قيم . يعملون معاً بالامر يصدر اليهم . كل واحد منهم يعرف هذا من نفسه فيعرفه في الآخرين . فكل منهم عدو للآخر وأن كانوا لا يقولون . ولست قادراً على أن أقص عليك ما إكتشفت من دلائل الرعب الذي يسيطر على أفئدة أولئك المساكين . لقد خدموا أسياداً كثيرين مختلفين . وتلقوا اوامر كثيرة متناقضة . واستمعوا إلى مواعظ كثيرة يكفّر بعضها بعضاً . وشاهدوا دولاب الغدر يرتفع

بالضحايا ويضحي بأصحاب المكان الرفيع . فلم يعودوا يثقون برأي أو بشيء أو بأحد . أصبح همّ كل واحد منهم أن يحمي نفسه من أن يكون ضحية.. وذلك بأن يبالغ في طاعة الجلادين . ليس متاحاً لهم كدليل على اخلاصهم لرؤسائهم الا المبالغة في تنفيذ ما يأمرون ، أيا ما كانت الاوامر . ليس متاحاً لهم من تعويض نفسي عن الرعب الذي يعانونه في أعماقهم الا المبالغة في الارهاب . ليس كل ما يفعلونه تنفيذاً لاوامر صادرة بل إضافات هستيرية من عندهم إلى ما صدر من أمر لتعويض ما يشعرون به في أنفسهم من عجز عن التمرد . وكل واحد منهم على زميله رقيب . وكل واحد منهم حريص على أن يثبت لمن يراقبه أنه مباحثي أصيل . فهل يصلح المرعبون لحمل سوط القانون . انهم مرضى . انني لا أقول هذا مجازاً بل اعبر عن حقيقة لمستها . واني لأعرف من علم النفس ما يسمح لي بأن أقول وأؤكد ان حياة الرعب التي يعيشها ضباط ورجال مباحث أمن الدولة ، أعني الرعب الذي يحسونه في أنفسهم والرعب الذي يمارسونه في الناس قد أحالهم إلى مرضى ينبغي أنقاذهم ولو استدعى الامر وضعهم في مصحة .

إن مجرد تصور ان تلك الشخصيات المريضة تتزاوج وتنجب وتربي أطفالا وتتعامل مع الناس يجعلنا نتساءل عن مآسي أسرهم ومصير أولادهم . هل ثمة طريقة لانقاذهم وانقاذ الناس منهم وردهم إلى طبائعهم الانسانية السوية ليكونوا أكثر كفاءة في تجسيدهم للقانون وهو يحتك بالانسان ؟ .. وهل ثمة طريق ليستفيد وطنهم بكل ما يتوافر فيهم من ذكاء وثقافة وخبرة بالحياة ؟ فكرت أن نعم . تحريرهم من القهر الذي هم ضحيته . تحريرهم من الخوف حتى لا يخيفوا الناس . في كلمة واحدة استقلال الشرطة وعدم قابليتهم للعزل.

انني لا أجد أي مبرر اجتماعي أو قانوني أو وظيفي للتفرقة بين الشرطة والقضاة . كلاهما قائم على أنفاذ كلمة القانون . وكلاهما يسهم بذات القدر في تشكيل الصورة النهائية للعدالة .بل اني أذهب إلى أكثر من هذا

وعندي له مبررات أخرى ساحدثك عنها فيما بعـــد . اني أذهب إلى ضرورة التفرقة بين الشرطة الادارية والشرطة القضائية . واعني بالشرطة القضائية أولئك الذين يمنحهم القانون ما يسمى « صفة الضبطيه القضائية » أي سلطة التداخل أو التدخل في حياة الناس وحرياتهم . أما الشرطة الادارية فأعني بها الذين يديرون ويخدمون ويحرسون المرافق بدون أن تكون لهم سلطة القبض أو التفتيش . يجب ، من أجل الانسان رجل الشرطة والانسان في مواجهة رجل الشرطة ، أن تكون الشرطة القضائية هيئة مستقلة أعضاؤها غير قابلين للعزل لا يخضعون في تأديبهم أو ترقيتهم الا لمجلس أعلى للشرطة ويحصلون على كافة الامتيازات التي يحصل عليها رجال النيابة العامة والقضاء . ثم ، وهذه اضافة بالغة الاهمية ، يتبعون وزارة العدل وليس وزارة الداخلية . انني لا استطيع أن اسهب في بيان العلاقة الجوهرية بين هذا الاجراء وبين سيادة القانون . ولكنني أستطيع أن أؤكد — على ضوء خبرتي العينية — أنه ما لم يتحرر رجال الشرطة من الخوف على أنفسهم لن يكفوا عن اخافة الناس . ما لم يأمنوا على حياتهم لن يحترموا أمن حياة الآخرين . ما لم يكونوا محصنين ضد استبداد السلطة التنفيذية بهم لن يكفوا عن الاستبداد ينفذونه كما أمر به أو ينفذونه تطوعاً ليعوضوا به الشعور بالقهر المسلط عليهم . إنك تبحث منذ زمان طويل عن ضمان لسيادة القانون ، وتفتش عن حل لمشكلة الحرية في التشريع . وكذلك نفعل نحن رجال القانون ، الذين نعرف نظريات سيادة القانون ونعشق الحرية كلمة ، ونفتش عن طوق النجاة في أصدار القوانين أو تعديلها . أقصى ما وصلنا اليه كان حصانة القضاة . لا يا صديقي ما عليك الا أن تدخل السجن — بعد الشر — وتكون محتفظاً بصفاء ذهنك حتى تتأمل فترى الحل مطروحاً أمامك . قد لا يكون ثمة عيب في التشريع وبالتالي قد لا يفيد شيئاً أن نضيف مزيداً من القوانين . أما القضاة الاجلاء فانهم يخبزون مما تعجنه الشرطة . فعليك بالشرطة فبين أيديها يتقابل القانون بالانسان ويختلطا ويعجنا . أي بين أيديهم يصاغ المصير الحقيقي

لسيادة القانون وحريات البشر . وما لم يحصن هؤلاء ضد تأثير السلطة التنفيذية عليهم ، مثل القضاة تماماً ، فان القضاء المستقل لن يخبز فعلا الا العجينة التي قدمتها السلطة التنفيذية . أعني أنه لن يحكم الا بما تريد السلطة التنفيذية لانه يتلقى عناصر الحكم من عميل نشيط خاضع لتلك السلطة . وهكذا تفقد السلطة القضائية استقلالها بطريق غير مباشر . يا إلهي ! كيف لم استطع أن أدرك هذا مع الثقافة القانونية الفائقة والممارسة أكثر من ربع قرن . يالسخف وسطحية ما كتبته في الكتاب الذي أعجبك عن « سيادة القانون » . تصور فيّ أؤلف كتاباً عن سيادة القانون واناقش فيه أغلب ما قيل من نظريات وأزعم فيه أنني قد إهتديت إلى رأي غير مسبوق ، ثم لا أفطن إلى ذاك الحل البديهي الذي ادركته خلال شهر واحد في التجربة الحية : ان سيادة القانون تساوي استقلال وحصانة الشرطة كما ان واحداً وواحداً يساويان إثنين . يالضيعة المثقفين بعيداً عن تجربة الحياة . يالضيعة الثقافة لا تنضج في أفران السجون . أتدري ماذا أحسب ؟ .. أحسب أنه لما كانت السلطة تنزع دائماً إلى الاستبداد فان كل الحكومات في العالم ، وفي التاريخ ، قد تآمرت حتى تخفي الحل الوحيد لمشكلة الحرية وسيادة القانون : استقلال الشرطة والقضاء معاً من السلطة التنفيذية والتشريعية . ولما كان الاستبداد لا يريد أن يكشف عن تآمره فقد رضى بأن « يلهى » الناس باستقلال القضاء ، والقضاء مصب العدالة ، محتفظاً لنفسه بالسيطرة على الشرطة ، ومن الشرطة يبدأ مصير العدالة . لست أعرف ما إذا كانت ستبقى لي — بعد خروجي من السجن — بقية من طاقة أسخرها من أجل الدعوة لاستقلال الشرطة أم لا .. واني لاعرف الآن معرفة اليقين كيف تتجسد الديمقراطية وسيادة القانون التي قلت عنها في « نظرية الثورة العربية » ، ان دولة الوحدة العربية لن تكون دولة الشعب العربي الا إذا كانت دولة ديموقراطية . في دولة الوحدة لن يتجسد القانون الا في بشر متحررين تماماً من القهر مستقلين تماماً عن السلطة التنفيذية ، كيما يكون الانسان العربي في دولة الوحدة إنساناً

متحرراً تماماً .

اياً مـــا كان المصير فهأنذا اتحدث اليـــك عن الضمان الاول للحرية والديموقراطية ، وهو يدخل في صميم اهتماماتك ، فلأترك ، إذن ، بين يديك مشكلة أولئك الذين يحملون التعاسة إلى كل منزل يدخلونه لا لشيء الا لأنهم هم أنفسهم تعساء . ولننتقل إلى مرحلة أخرى من مراحل احتكاك القانون بالانسان .

التحقيق .

متى التحقيق ؟ .. لماذا تأخر التحقيق ؟ .. أزمة تنتهي عندما يبدأ التحقيق . هكذا كان يسأل ويجيب رجـــل القانون الساذج في زنزانته المغلقة . كان يظن ان رجل التحقيق ، ممثل النيابة العامة، هو المفتاح المضيء للموقف ولكن ما هو الموقف ؟ .. لا يهم — ان من حقي القانوني أن أواجه بالتهمة المنسوبة إليّ وبالأدلة القائمة ضدي منذ اللحظةالاولى . وسأتمسك بهذا الحق. ولا شك في أن المحقق ، ممثل النيابة العامة ، رجل القضاء ، سيكشف لي كل ما حرص رجال المباحث على إخفائه ، فلأنتظر في ظلام ا لجهل إلى أن يبدأ التحقيق . واستدعيت ليلا إلى ما حسبته تحقيقاً داخل السجن . فإذا بخمسة ضباط من مباحث أمن الدولة يستجوبونني في غرفة مغلقة . جاء دوري إذن لاعوى . جاءت ساعة الاختبار العنيف . توقع العنف رهيب . أكثر رهبة من العنف ذاته . بدأوا مناورة الحديث . اسئلة سخيفة تريد أن تنتزع إجابات بدون أن تقول لماذا . وبقدر ما كنت أخشى العنف وأتوقعه في كل لحظة في كل حركة كنت في حاجة إلى كل شجاعة الانسان فاستجمعتها لمجرد أن تعادل الخوف فأبقى كما أنا انساناً . فاذا بي أصبح استفزازياً. ردودي حادة. صوتي عال . وأكاد أبدأ أنا بالتحرش . وذهب بي الشعور بالعدوان والتحفز فرده إلى حجب الصدق عنهم فكذبت عليهم عامداً في كل كلمة قلتها وراوغت فلم أقل شيئاً حقيقياً . كنت أشعر بأنني لو صدقت معهم فأنا

تخاذل أمامهم. غير أن طبيعتي خانتني فأضطربت ذلك الاضطراب النفسي أوالجسمي الذي يعتريني كلما قلت كذباً حتى بـدون أن يفطن الطرف الآخر . فلم البث كثيراً حتى قلت لهم إنني لن أقول الحقيقة الا أمام المحقق . قلتها بحسم لم يترك مجالا لمزيد من الحديث فردوني إلى زنزانتي بدون عنف .

أين المحقق ؟ .. أين المفتاح المضيء للموقف المظلم ؟ ... ولكن مرة أخرى ما هو الموقف ؟ من هو ... لا أدري ، ولكنه جاء بعد منتصف الليل أمام باب زنزانتي المغلقة ونطق بصوت واضح ، كما لو كان يحدث شخصاً آخر ، بجملة واحدة أعطتني فكرة — لاول مرة — عن الموقف . إنني لا أشك في أنه تعمّد أن يهديني قبساً من ضوء . واني من صميم قلبي لأشكره ...

في اليوم التالي استدعيت لمقابلة ممثل النيابة وبداية التحقيق . فرجت . وخرجت متحدياً نافشاً كالديك ، فأخيراً أنا ذاهب لمقابلة القانون مجسداً في صديق للعدالة . وإذا برحلتي تنتهي إلى مبنى مباحث أمن الدولة . وإذا بأربعة من ضباطها حاضرون في غرفة التحقيق . واستقبلني المحقق ببرود ممتعض . إجلس . جلست . أنا فلان ممثل النيابة . تشرفنا . فتح المحضر ، ما اسمك ... وقبل أن أنطق إذا به يسألني بصوت غنج ممطوط يقطر إهانة وإستهانة : الا قل لي أنت دكتور بصحيح ؟ ...

أعوذ بالله . باللمرارة . باللغضب . ماذا أفعل . نسيت التحقيق والقانون والمباحث والزنزانة وفي لحظة واحدة لم يعد لي الا هدف واحد : أن أرد الاهانة . ولكن كيف ؟ .. الهدوء أولا . وأجبت على سؤاله المتطفل المهين بهدوء . وما أن بدأ التحقيق بسؤالي عن « بيان طارق » حتى جلست على منصة الاستاذ بالنسبة اليه أدافع أولا عن بيان طارق وحركة الانصار دفاع الواثق بألا جريمة لا في بيان طارق ولا في حركة الانصار ، ثم القى علي ذلك الانسان محاضرات في الفلسفة والقومية والاشتراكية . على مدى يومين

وأنا أتحكم في التحقيق من خلاله وأجيب على السؤال بحيث أضع على لسانه السؤال التالي ، وادخل به ساحات فكرية لا يعرف كيف يخرج منها وأصوغ إجاباتي في صلف وغرور وأكاد أملي عليه ما يكتب . والمسكين لا يدري إنني كنت أرد اليه الاهانة بالاسلوب المناسب . وعندما سألني آخر سؤال : أنت متهم بانشاء تنظيم مناهض للمبادىء الاساسية للنظام الاشتراكي. جمعت كل ما أردت أن ألقنه له في إجابة واحدة هي أنني صاحب المبادىء الاساسية ومفكرها الوحيد (وهو ليس حقيقة إنما أنا أحد دعاتها) . هل فهم أم لم يفهم ؟ ... لا أدري . وإنما الذي أدريه هو أنه كان في اليوم الثاني للتحقيق قد تلقى كلمة في التليفون فأوقف التحقيق وغادرني ثم عاد .. شخص آخر يجاملني ووالله لقد شعرت بالمرارة تتضاعف وأنا أراه يحترمني بأشارة ممن لا أعرف .

يا للقانون الذليل . هل ثمة مبرر لذلة القانون ؟ .. نعم . انه الخوف أيضاً . والمسألة في كلمات مختصرة : عندما يدخل القانون مجسداً في ممثل النيابة العامة دار مباحث أمن الدولة يصبح القانون ومن يجسده في قبضة أصحاب الدار . لا تسألني لماذا ؟ .. إني أعرف ولكن الشرح يطول. ولا شك أنك تعرف . يكفي أن أؤكده لك من عيني المحقق تتطلعان إلى رجال المباحث عند كل سؤال كما لو كان يستوثق من أنهم راضون عن سؤاله . من ضحكته كلما إبتسم ضابط . من هرولته تاركاً التحقيق كلما أستدعي إلى حجرة مجاورة.من تركه المضبوطات يفعل بها المباحثيون ما يريدون ولا يقدمون اليه إلا ما يختارون . من رغبته الشرهة في أن يكتشف جريمة من حركاته . من سكناته . من إنفعالاته . أؤكد لك أنه كان أكثر مَن في الغرفة خوفاً . أكثر مني بمراحل مع أني كنت خائفاً . وهو مقصود . وإلا فهل يستطيع أي انسان أن يقدم أية إجابة معقولة أو شبه معقولة عن السؤال : لماذا يتم تحقيق النيابة العامة في مبنى المباحث العامة ؟ . لماذا ينتقل ممثل النيابة إلى غرفة رجل الشرطة ليحقق في حضوره وتحت رقابته ؟ .... المفروض أن

النيابة العامة تنتمي إلى القضاء الذي يتولى المهمة الاخيرة : الخبيز ، فلماذا تشترك النيابة العامة في العجين . ان الامر كله يعود إلى نصابه بقرار بسيط واحد في غير حالات التلبس والمعاينة لا يجوز للنيابة العامة إجراء التحقيق إلا في مقرها . يا من لا تكف عن الغناء للحرية وسيادة القانون على رقابة الصحف هاك قرارا إدارياً بسيطاً ومع ذلك فهو أكثر لزوماً للحرية وسيادة القانون من ألف قانون .

اكتشفته في عيني ممثل النيابة وهو يمارس مهنته العظيمة في ظل رقابة ثقيلة . فليستقل القضاء في المكان الذي يمارس فيه مهنته حتى يستطيع أن يستقل بالميزان الذي يزن به عدالته . هذه هي القاعدة فلا يغرنك الرجال القلة الذين يقيمون موازين العدالة بصرف النظر عن المكان والزمان . انهم إستثناء .

القاعدة ان القانون يحتك بالانسان في مرحلة التحقيق ، حيث ترسى دعائم الادانة أو البراءة ، فإذا بهم يختارون له مكاناً مغلق النوافذ دون العدالة فما ان يدخل حتى يختنق ويصبح القانون جثة . لماذا ؟ . لا أدري إلا أنه إغتيال لمرحلة قضائية . يريدون أن يبقى التحقيق في مرحلة التجسس والتلصص والاختلاق فيأخذون المحقق إلى جوار مخزن الاكاذيب . ليرمموا البناء الواهي أولا فأول ... الوقائع حتى الآن لا تشكل جريمة ؟ . هذه وقائع أخرى . الشهود غير واثقين . هذا شاهد واثق . المتهم لا يتذكر . نذكره . المتهم قال كذا . لحظات ويعود فيقول ما يريدون . ترى ما الذي سيقوله المتهم التالي . إطمئن . هذا إقرار منه بما سيقوله . . وهكذا . المحقق في مبنى مباحث أمن الدولة وبين رجالها لا يحقق . أعني أنه لا يستوثق من حقيقة وقائع أبلغت اليه بل يبنى بناء مقصوداً وكلما أحتاج إلى طوب أو طين قدموه اليه . ثم لاحظ بدقة وتأمل بعمق . لا يلبث المتهم ، كل متهم ، أن يدرك هذه الحقيقة فإذا به يفقد الثقة تماماً في القانون مجسداً في رجل القضاء

فيستسلم للقانون مجسداً في رجل المباحث . وإنك لترى في قضيتنا أمثلة صارخة على كل هذا . كل متهم حقق معه أكثر من مرة . وفي كل مرة يقول شيئاً جديداً « ويصحح » ما قاله أولا . ثم يعود ليضيف أو يحذف « ويصحح » .. من الذي « يذكرّ » المتهم بالاقوال ا لجديدة « وينبهه » إلى ضرورة تصحيح ما فات ، ويعود فيذكره بأقوال أخرى ؟ ليس المحقق .. سمعت في أثناء المحاكمة :

سؤال : متى قابلت المتهم لآخر مرة .

جواب : منذ ثلاثة أشهر .

سؤال : ولكنك ذكرت في أقوالك الاولى إنك لم تقابله إلا مرة واحدة منذ خمس سنوات .

جواب : تذكرت الآن .

سؤال : كيف تذكرت .

جواب : السجن يشحذ الذاكرة .

ولم يفطن المحقق إلى السخرية المرة من التحقيق التي صاغها المتهم الثالث في جوابه الاخير . ولما لم يفطن لم يسأله : كيف وبأية وسيلة يشحذ السجن الذاكرة .

ثم إقرأ اخر سؤال للمتهم الثاني .

سؤال : الديك أقوال أخرى .

جواب : نعم . أريد أن أقرر بأنه لم يحدث ضدي أى إكراه لأقول ما قلت .

لا يمكن أن تكون فطنة المحقق قد خانته فيما يعنيه المتهم من هذه الكلمات الاخيرة . انها حتى لا تحتاج إلى فطنة .. فقد سبق للمحقق نفسه أن قطع

التحقيق مرات عديدة ليتيح للمتهم فرصة يتذكر فيها أو يذكره من هم أعلم منه بما يراد بالتحقيق .

ان هذا لا يجري في كل القضايا ، لان كل القضايا لا تحقق في مقر الشرطة، لأن الشرطة لا تهتم بكل القضايا . ولكنه جرى ويجري في كل قضية يهمها أن تصل بها إلى نتائج مقررة من قبل . وأنت تعرف المحقق العظيم الاستاذ أحمد موسى الذي لم يقبل أن يشاركه أحد في التحقيق يوم أن كان رئيساً لنيابة أمن الدولة . فما الذي حدث . لم يستطع أن ينفذ ما يريد بل فقد منصبه الكبير . انها رأس الذئب الطائرة . فما الحل ؟ .

الحل بسيط .

إن النيابة العامة والشرطة يقومان معاً بتجسيد القانون في إحتكاكه بالانسان. ولن يكون واقعياً أن نعزل النيابة عن الشرطة ونحرم عليهما الاتصال والتعاون. إذن فلتكن الشرطة مستقلة كالقضاء . ويوم أن يكون كل منهما هيئة مستقلة عن السلطة التنفيذية محصنة ضد العزل والتأديب والنقل عسفاً من مكان إلى مكان ، متروكة لضمائر الانسان فيها ، تابعة لوزارة العدل ، يستوي أن ينتقل المحقق إلى دار الشرطة أو تنتقل الشرطة إلى دار النيابة فلن يخشى أحدهم أحداً ...

وللحديث بقية .. وتصبح على خير .

(٦)

في ١٩٧٢/٨/١٣

. . . . .

قرأت اليوم في صحيفة « ألاهرام » مقتطفات من مناقشة اللجنة التشريعية قانون الوحدة الوطنية . وقرأت القول بأن التشريعات السائدة في مصر منذ

سنة١٩٥٣ لا تجعل من إنشاء التنظيمات السياسية جريمة. إذن فقد كان رأيي صحيحاً عندما قلت الشيء ذاته في الدفاع الذي أرسلته إلى المدافعين عني . ليته لم يكن صحيحاً . لقد ذكرته في دفاعي إتكالا على معلومات قانونية متراكمة في ذهني لم أفحصها . ولقد أبديت الرأي ذاته لبعض المحامين أثناء المحاكمة فاستبعدوا أن يكون صحيحاً . فظننت أن قد فاتتني معرفة القوانين التي تحرم المنظمات السياسية . وارتحت لهذا الظن الذي تأكد بأن أحداً من المحامين لم يثر هذا الدفاع . أقول إرتحت لأن المحاكمة كانت تبدو حينئذ قائمة على أساس ولو كان واهياً . ما قيل في اللجنة التشريعية بدد الظن . إذ لا شك في أن القائل قد راجع كل القوانين قبل أن يقول . بدد الظن فعصف — لفترة — بالراحة التي كان مصدرها الشك فيما أعرف من القانون . لماذا ؟ .. لانه ردني إلى الواقع لاواجه الفضيحة الدنيئه . إذا لم يكن ثمة عقاب على التنظيم فالعقاب منوط بغاية التنظيم . إذن فقد حوكمت وأدنت وسجنت لانني مناهض للمبادىء الاساسية للنظام الاشتراكي وليس لانني أنشأت تنظيماً — ياللعار — يا لعار الذين أتهموا . صاحب « أسس الاشتراكية العربية » و « الطريق إلى الاشتراكية العربية » و « نظرية الثورة العربية » ... مناهض للمبادىء الاساسية للنظام الاشتراكي . ياللعار . يا لعارهم بل قل يا لخيبتهم وغبائهم . لم يجدوا غير هذه التهمة التي لا يصدقها أحد لستر ما أرادوا ؟ ... لم يستطع ذكاؤهم أن يستر ما أرادوا الا باتهام أستاذ في الاشتراكية بمناهضة ما علمهم ؟ .. أم ترى انني متهم بمناهضة الاشتراكية لاني لا أدعو إلى الاشتراكية بل أدعو إلى دولة « الوحدة الاشتراكية » ؟

على أى حال فإن حديثي اليك اليوم يدور على غير هذا . ولندع الحكم والمحكمة إلى أن يكون حديثنا عن مرحلة إحتكاك القانون بالانسان في قاعة المحكمة . ان ثمة كلمات قليلة أريد أن أقولها لك كصديق قبل أن أصل حديثي السابق . قد لا يكون ما نقلته الاهرام عن أعضاء اللجنة التشريعية مطابقاً لما قالوا . وهو بعد مختصر إختصاراً لا بد أن يكون مخلا . ولكني لا

أخفي عليك أنني كنت أحس بقشعريرة وأنا أقرأ ما قاله كثير من الاعضاء . انكم مقدمون على إصدار أخطر قانون منذ إصدار قانون الطوارىء الذي أعطى ما أعطى من سلطات لرئيس ا لجمهورية .

اليوم أنتم مقدمون على ما هو أخطر منه . ان الكلمات التي بذل الاعضاء جهداً في صياغتها وتأكيدها لنفي أية شبهة في أن القانون يستهدف الحد من الحريات ، هذا التأكيد ذاته ، كان يكشف بوضوح عن الشبهة القوية التي حاولوا نفيها . تريدون أن تعاقبوا إطلاق الشائعات . فمن الذي يحدد ما إذا كانت مقولة ما حقيقة أم شائعة ؟ وهل تكون الدولة مستعدة لكشف كل أسرارها لتثبت أن ما قيل كان شائعة ولم تكن حقيقة ؟ ... اليك نصيحة أخ صديق . ان كنت واثقاً ، أيا كان مصدر الثقة ، اننا موشكون على القتال فلا تثريب عليك في أن تسهم في أصدار هذا القانون . أما إذا كنت لا تثق أن ثمة قتالا ، أو حتى تشك في أن ثمة قتالا ، فكف يديك عن جدل مشائق الحرية إن لم يكن عقيدة فخوفاً من المستقبل . والمستقبل كما أراه رهيباً ولن يرحم أحداً . إني أتحدث اليك حديثاً لن يصلك في الوقت المناسب ان وصلك أصلا .. إذن فإني بهذا الحديث أصلي من أجلك ومن أجل الحرية ...

ولنعد مرة أخرى إلى حيث كنا .

غادرت سجن القلعة إلى سجن القناطر يوم ١٣ مارس ١٩٧٢ . والسجن هو القانون في تجسيده المادي . والمفروض أن أحدثك عن القانون سجناً . ولكن ليس الآن . فالسجن باق وأنا باق فيه . وفي كل يوم إزداد خبرة به فلا بأس في أن أرجىء الحديث عنه . أعن المحاكمة اذن ؟ لا . لمّا بعد . ففيما بين إنتقالي إلى سجن القناطر والمحاكمة حدث أمران أريد أن أحدثك عنهما . أولهما أقل شأناً من الآخر . فلأبدأ بما هو أقل شأناً .

يوم ١٧ مارس ١٩٧٢ أعلنت في السجن بقرار الاتهام . ولست أريد مناقشته فقد سبق لي أن فعلت وقرأت أنت دفاعي . ولكني أريد

أن أقول انني في ذلك اليوم فقط عرفت أسماء المتهمين بأنهم أعضاء التنظيم الذي أنشأته . وإلى أن حكم عليّ ،وإلى الآن ،لا أعرف ماذا قالوا في التحقيق . فإن المحكمة قد رفضت طلب السماح بإطلاع المتهم على التحقيق بحجة أنه ما دام قد أنكر التهمة فلا جدوى من معرفته ما قال الآخرون . تأمل ! كما أنه لم تحدث أية مواجهة أثناء التحقيق . تم التحقيق مع كل واحد على حدة ، لم يقابل أحد أحداً ، ولم يسمع أحد ما قال الآخر ضده أو معه . ثم وضعت ألاوراق على بعضها وأعطيت أرقاماً مسلسلة لتبدو تحقيقاً واحداً في جريمة واحدة اشترك في ارتكابها كل المتهمين . أليس من العناصر الجوهرية في التنظيم ، أي تنظيم ، أن تكون ثمة وحدة فكرية بين أعضائه . وحدة فكرية على المنطلقات والغايات والاسلوب ؟ ... إذن ، أليس من حق كل متهم بأنه عضو في تنظيم أن يعرف ويواجه المتهمين معه ويعرف أقوالهم ؟ ... أليس هذا لازماً ليستطيع أن يثبت للمحقق ، إذا كان ثمة وجه للاثبات ، إن فيما بينه وبين هؤلاء المتهمين ، أو بعضهم ، خلافاً شخصياً ، أو قضائياً أو سياسياً ، أو فكرياً ... أي خلاف يحول دون إمكان اجتماعهم معاً في تنظيم واحد . كيف يستطيع أن يثبت هذا ؟ ... أعني كيف يستطيع أن يستعمل حق الدفاع الذي يقال أنه مقدس إذا كانت الاسماء والاشخاص والاقوال محجوبة عنه . الرد الوحيد الممكن ان لهذا الدفاع فرصة ستكون متاحة أمام المحكمة ، وان المحقق يجمع أدلة الاتهام ولا يدافع عن المتهم . هذا الرد الوحيد الممكن يكشف لك ثغرة هائلة في القانون . وهى ثغرة عرفناها من دراستنا القانون . وقد سبق أن صدرت محاولة تشريعية لسدها لم يطل أجلها . أعني بالثغرة في القانون ، أو الخرق في العدالة ، أن تكون النيابة العامة أداة تحقيق وأداة إتهام في الوقت ذاته . انني لم أقدر الضرورة الواقعية لنظام قاضي التحقيق الا من خلال تجربة التحقيق معي بمعرفة جهاز الاتهام : النيابة العامة. لقد تأكدت من أن عضو النيابة الذي يبدأ التحقيق وفي ذهنه أنه سيكون مكلفاً بإثبات التهمة أمام المحكمة ، يحقق منذ البداية لنفسه . يهتم وهو محقق

بما يهمه وهو مدع . ويتجاهل وهو محقق مالا يفيده وهو في موقف الاتهام . انهم لا يحققون من أجل الحقيقة المجردة لسبب بسيط يعيشونه : لا يمكن للمحقق ، أي محقق، أن ينسى أنه مكلف بإثبات التهمة أيضاً. ان أقصى ما يستطيع أي محقق أن يصل اليه من التجرد هو أن يترك المتهم وشأنه . إن أستطاع أن يثبت براءته فقد أفلح وإذا لم يستطع فقد جنى بعجزه على نفسه . هذا هو أقصى ما يستطيع أي محقق « عادل » أن يصل اليه: الا يهتم ببراءة المتهم . أما أن يساعده ، أو يبحث هو عن الحقيقة بصرف النظر عن موقف المتهم ومقدرته فهو مستحيل الا في حالتين . أن يكون أعضاء النيابة العامة ملائكة وهم ليسوا كذلك . أو أن يكون القائم بالتحقيق مستقلا عن سلطة الاتهام . وهذا هو قاضي التحقيق . ويثير هذا نقطة أخرى . كل هذا والحديث ما يزال عن الامر الاول الذي لا شأن له . تتصل هذه النقطة بسرية التحقيق .

لا شك في أن سرية التحقيق ، كسرية المحاكمة ، قد تكون لازمة لأسباب شتى تبعا لنوع الجرائم . سرية بالنسبة لمن ؟ .. المفروض أن تكون سرية مطلقة الا عن المحقق . ولكن هذه قاعدة معدومة . أنظر إلى قرار القبض والتفتيش الذي يصدره المحقق في تحقيق سري وينفذه عدد من الضباط والمخبرين. انهم يكلفون صراحة في الامر بضبط « ما يفيد التحقيق » فكيف يعرفون ما يفيد التحقيق الا إذا كانوا عارفين موضوع التحقيق ومدى تطوره وما يفيده وما لا يفيده ؟ ... والحق أنهم يعرفون . ان جميع أسرار التحقيق السري تكون مباحة للشرطة . الشرطة يساعدون المحقق ويعملون تحت أشرافه وهم موظفون مسئولون عن حفظ السرية . هكذا يمكن أن يقال ولا يكون قولا مجرداً من المعقولية التي يمليها الواقع العملي. فليكن . وماذا عن المتهم ؟ .. ألا يمكن أن يكون له مساعد ، هو في أشد الحاجة اليه ، وأن يكون المساعد أهلا للثقة في تحمله مسئولية المحافظة على سرية التحقيق مثل باقي المخبرين ولا أقول الضباط ؟ انه هناك . ولكن المتهم محروم من مساعدته بحجة السرية المهتوكة

على السنة الضباط والمخبرين . انه المحامي . دلني ، أرجوك ، على مبرر واحد يحول دون حضور المحامي في التحقيق السري إلّا تلك الحجة المهينة للمحامي والمحاماة ، وهي أنه ليس محلاً للثقة . إن أي مخبر غير متهم في تقديره لمسئولية المحافظة على سرية التحقيق والمحامي متهم . ونسيت أن هناك مبرراً آخر لعله الحجة الاصلية لأنها حجة منكورة . إن حضور المحامي مساعداً للمتهم في التحقيق سيشل أو يعوق أية محاولة للعبث بحقوق المتهم في الدفاع عن نفسه . إن حضور المحامي يعني أن على المحقق أن يفحص أدلة البراءة كما يفحص أدلة الاتهام . وهذا « غير مرغوب فيه » . والا فبالله عليك لماذا يحتم القانون حضور محام مع المتهم بجناية ولو كانت قد حققت سرياً ولو كانت المحاكمة سرية ؟ كيف يكون هذا المحامي محلا للثقة ، الثقة في المحافظة على السرية ، أمام المحكمة ولا يكون محلا للثقة في أثناء التحقيق؟ الإجابة هي أن المسألة ليست مسألة أسرار وسرية، ولا هي مسألة ثقة أو عدم ثقة ، انما المسألة أن حضور المحامي أمام المحكمة لا يضر شيئاً . يضر شيئاً بماذا؟ .. بالسرية أم بالمقدرة على طبخ القضية ؟ ... الإجابة واضحة . إذن ، أيها المشرع ، إذا كان لا بد من إنقاذ الانسان من عبث القانون عندما يكون القانون متجسداً في محقق فلا بد من :

أولا : أن يكون المحقق غير تابع لسلطة الاتهام .

ثانياً : أن يكون من حق المتهم الاستعانة بمحام سواء كان التحقيق سرياً أم غير سري .

ثالثاً : يتحتم ، أقول يتحتم ، حضور محام مع المتهم في التحقيق ولو عن طريق الانتداب في كل القضايا التي يحتم القانون حضوره فيها أثناء المحاكمة .

وأنتهى الامر الذي ليس له شأن كبير . والكبر نسبي . وأرى الامر الثاني أكبر بكثير من مشكلات الإجراءات الجنائية وان كان لا يمت إلى القانون بصلة مباشرة .

(٧)

في ١٩٧٢/٨/١٣ مساء

في الاسبوع الثاني من شهر مايو قلت لرفاق السجن إستعدوا فإنكم خارجون يوم ١٥ مايو أو بعده بأيام . وبعد أن مضت الايام وهم حيث هم قلت لهم إستعدوا فسيحكم عليكم جميعاً بالسجن . وأنا أريد أن أحدثك عن هذين القولين المتناقضين اللذين عصفا بأفئدة شباب الزنازين كما عصفا بثقتي — ومن باب أولى بثقتهم — في سلامة تقديري للامور . والغريب أنني كنت قد وصلت إلى القول الاول الذي كذب ، والقول الثاني الذي صدق ، طبقا لمنهج واحد : أن أضع نفسي موضوع أصحاب الشأن لأرى كيف يفكرون في ظل ظروفهم .

أما عن القول الاول : فقد كنت لاحظت فيما نشرته الصحف مقابلتين متتاليتين بين رئيس الجمهورية ووزير الداخلية . إثر كل مقابلة كان يصدر قرار بحفظ التحقيق في جنايات خطيرة ، أو بالافراج عن متهمين بجنايات أخطر في مناخ يبدو فيه الاحتفاء بمقدم ١٥ مايو . المتهمون في قضية المعهد التعاوني أفرج عنهم وصرف النظر عن محاكمتهم في اليوم التالي لصدور قرار إتهامهم وإحالتهم إلى محكمة أمن الدولة العليا في طنطا . قضية شبرا الخيمة حفظ التحقيق فيها وأفرج عن أكثر من سبعين متهماً ... قضية المهجرين .. قضية الطلبة الثلاثة ... الخ .

ففكرت على الوجه التالي :

ان قضية « أنصار الطليعة العربية » كما أسماها التحقيق أو قضية التنظيم « التنظيم الطليعي » كما أسمتها الصحف ستعرض . ولن يقول أحد عند عرضها إنها واهية . ان هذا لا يقال عادة . وإنما ستعرض من زاوية سياسية لتقدير ما إذا كانت تستحق ذات المعاملة التي أنهت القضايا الاخرى أم لا تستحق . فما

هو التقدير السياسي المعقول بالنسبة لذوي الشأن في ظروفهم ؟

أجبت بما يلي :

إن هؤلاء الشباب ، ودعنا من ذلك الرجل الذي أسمه عصمت سيف الدولة ، إن هؤلاء الشباب المتهمين في الجناية رقم ٣٧ لسنة ١٩٧٢ أمن دولة عليا قد أخطأوا في التعبير عن طموحهم فأتخذوا له صيغة تنظيمية وهي ممنوعه. أليس هذا ما انتهت اليه النيابة يا ......؟ . فليكن . ولكن من هم ، موضوعياً ، هؤلاء الشباب ؟ ... انهم قوميون إشتراكيون . لم يقل أحد انهم غير ذلك. ألاوراق المضبوطة معهم لا تسمح بالشك في أنهم ينتمون إلى الخط القومي الاشتراكي الذي تعلموه في ظـــل ٢٣ يوليو . فكلهم ما عدا واحـــد . أظن أنه ذلك الكهل الآخر – كلهم من جيل ثورة ٢٣ يوليو . انهم تلامذة الثورة وخريجو معاهدها السياسية . فكلهم بدون إستثناء من المتفوقين في منظمة الشباب . متفوقون ثقافة ووعياً ومقدرة على الحركة . هل صحيح ان أغلبهم كانوا مسئولي تثقيف الشباب في المنظمة ؟ ... وان المتهم الرابع عامل ومع ذلك كان مسئولاً عن تثقيف طلاب المعاهد العليا على مستوى الجمهورية ؟ ... نعم ... خسارة . على أي حال إنهم بدأوا خطاهم طبقاً لما جاء في قرار الاتهام ، سنة ١٩٦٨ ، ونحن نعلم ما الذي كان سنة ١٩٦٨ . فهي السنة التالية لسنة ١٩٦٧ . وبدأوا تنظيمهم ، طبقاً لما جاء في قرار الاتهام ، في سنة ١٩٧٠ . ونحن نعلم ما الذي كان سنة ١٩٧٠ . فيه فقدنا القائد عبد الناصر . ثم انهم بدون إستثناء إما عمال وإما طلبة أبناء عمال وفلاحين . إنهم أبناء هذا الشعب . لا يجب أن يخرجوا . ودعنا نحفظ هذه القضية ونفرج عن هؤلاء الشباب . أما عصمت سيف الدولة فيمكن إبقاؤه أو التصرف في شأنه بطريقة أخرى . أما هؤلاء الشباب فلنخرجهم بمناسبة ١٥ مايو .

أولاً : لأنهم الاجابة على سؤال كان مطروحاً على ثورة ٢٣ يوليو ، والرد على إتهام كان موجهاً لثورة ٢٣ يوليو . فنحن نعرف أن أعداء الثورة

لم يكفوا لحظة عن إتهام أروع إنجازاتها ، وأعني به الاتجاه القومي العربي بأنه إتجاه من صنع السلطة أو إصطناعها . وكذلك قالوا عن الاتجاه الاشتراكي . كان الاعداء يقولون ان القوميين الاشتراكيين في مصر قوميون إشتراكيون بالامر أو بالانتهازية . بأمر السلطة أو نفاقاً لها . أما غير الاعداء فكانوا يرددون سؤالاً شاكاً : هل الاتجاه القومي الاشتراكي في مصر الذي ولد على يد جمال عبد الناصر – الله يرحمه – ولد بالامر أم أنه أصيل في الشعب كشف عنه عبد الناصر غطاء الاقليمية ؟ ... ولقد ظل الاتهام والسؤال معلقين بدون رد قاطع أو إجابة حاسمة . ذلك لأن الدولة ومؤسساتها هى التي كانت ترد . وكانت ترد – بحكم الضرورة – بواسطة العاملين بها . وبالتالي كان يبدو دفاعاً وليس رداً . حتى جاءت قضية هؤلاء الشباب . وعندما أعلنت النيابة العامة انهم قد أنشأوا أو انضموا إلى تنظيم ممنوع غايته قومية إشتراكية ، غايته إقامة دولة الوحدة الاشتراكية ، لا بد أن قد كان لهذا الاعلان أثران عميقان لدى جماهير الامة العربية .

الأثر الاول : ان الشباب في مصر ليس معزولاً عن الشباب في الامة العربية . فقرار النيابة يقول انهم كانوا جزءاً من تكوين ممتد الى أكثر من قطر عربي . صح هذا الامتداد أم لم يصح لا يمكن تجاهل أثر ما نشر وأعلن في الصحف . ومع اننا هنا في مصر ننظر إلى هذا الامتداد نظرة أخرى إلا أن هذا لا يعني التقليل من الآثار الايجابية التي يكون قد أحدثها ما نشر فيالامة العربية . انني لا أشك لحظة في أن كل القوى القومية التي تتطلع إلى القاهرة كمركز قيادة لحركة التحرر العربي والتي تساند مصر في معاركها القومية ، قد اغتبطت وهي تكتشف أنها ليست وحدها التي تمد أيديها إلى القاهرة ، وليست الدولة وحدها هي التي تمد يدها من القاهرة بل ان ثمة أيدي شابة من صفوف الشعب تمتد من القاهرة أيضاً لتصافح أخوتهم في الوطن العربي . ما اسم ذلك المتهم العامل في محل متواضع للتجارة ؟ ... لا يهم إسمه . يكفي أنه عامل في أحد أزقة القاهرة يمد يده إلى الشباب العربي خارج الحدود . رائع والله . رائعون

العمال أبناء العمال ، الطلبة أبناء الفلاحين ... رائعون اذ هم قوميون إشتراكيون ...

هكذا لا بد تفكر ، وتقدر ، القوى القومية التقدمية في الوطن العربي التي لم يعد لدينا الآن بديل عنها كرفيق مصير . فلماذا لانتغاضى نحن عن نظرتنا الاخرى ونعامل هؤلاء الشباب كما لابد تتوقع القوى القومية ثم ...

الوجه الثاني الاهم . ان في مصر العربية ومن بين أبناء العمال والفلاحين من يؤمنون بالخط القومي الاشتراكي الذي طرحته ثورة ٢٣ يوليو ويعملون من أجله ، لا بعيداً عن السلطة فقط بل وبأسلوب تعتبره السلطة جريمة أيضاً . انهم اثبات تاريخي بأن البذور القومية التقدمية التي نثرهـا عبد الناصر في تربة مصر الخصيبة قـد أنبتت جيلهـا وهؤلاء أول « قطفة » كما نقول في القرية . لا مصطنعون ولا موظفون ولا إنتهازيون بل يكادون أن يكونوا متمردين . من يجرؤ بعد ذلك على أن يتهم أو يسأل عن إصالة الاتجاه القومي التقدمي في مصر ؟ ... من يستطيع أن يشكك بعد هذا في خصوبة ثورة ٢٣ قيوميا . لا . لا . الخير فيما اختاره الله . لقد كان خيراً كبيراً أن أنشأوا تنظيماً قومياً إشتراكياً . وليس هناك ضرر كبير في أن قد خانهم التوفيق القانوني ما داموا قد أثبتوا أو ثبت بهم وفيهم – لاول مرة في تاريخ مصر الحديث – ان في مصر العربية قوميين إشتراكيين يرفضون الاقليمية ويريدون دولة الوحدة الاشتراكية إقتناعاً وإيماناً بدون أن يكونوا مكلفين أو موجهين من السلطة أو ممثلين لها . إنهم اثبات حي لأروع ما أنجزته ثورة ٢٣ يوليو وأروع من كل شيء أن يثبت كل هذا في الظروف حيث القومية والاتجاه القومي هما طوق النجاة والطريق إلى النصر ...الخ

هكذا كنت أفكر وأتصور حواراً قائماً في مكان ما فأتوقع أنني سأقرأ في اليوم التالي خبر الافراج عن أولئك الشباب الذين لم أعرف في حياتي الا اثنين منهم ... وهكذا وصلت إلى ما قلته أولاً : استعدوا يا شباب للخروج .

فلما أن أنقضت المناسبة ولم يخرجوا عدت إلى موقع ذوي الشأن فقدرت أن استثناء هذه القضية من باقي القضايا لا يعني إلا شيئاً واحداً الرغبة في الادانة . فقلت قولي الثاني . وقد كان .

هل لهذا الحديث علاقة بالقانون ؟

نعم وإلا ما ذكرته . فاني لا أحدثك في هذه الرسالة ، أو الرسائل عن كل شيء ، إنما حديثي اليك عن القانون من خلال التجربة . وعلاقة هذا الحديث ليست وثيقة الصلة بالقانون ، بل هي وثيقة الصلة بسيادة القانون لأنه يتصل بأمرين : أولهما المساواة أمام القانون في إجراءاته وأحكامه . وثانيهما : إنفراد القانون بالحكم فيما بين الناس . ذلك لأنه قد يبدو غريباً من واحد مثلي أنه تطلع يوماً وبمناسبة خاصة إلى تدخل رئيس الجمهورية للافراج عن جماعة من الشباب العربي أحيلوا فعلاً إلى محكمة أمن الدولة العليا . كيف يمكن أن يحدث هذا في دولة قانون ؟ ... كيف تخرج القضية من أيدي قضاتها ، أو تقبر ، قبل نهاية الاجراءات فيها ؟ ... كيف نحلم أحلاماً لا تتفق مع سيادة القانون ؟ ولماذا لم نتصور الحوار دائراً على وجه آخر :

– أرى للاعتبارات السابقة الافراج عن هؤلاء الشباب .

– كيف ترى هذا ؟ هل تريد أن أتدخل في القضاء ؟

لا نستطيع أن نتصور الحوار دائراً على هذا الوجه الحازم لأننا لا نحلم بل نعلم . قبل ١٥ مايو وبعد ١٥ مايو . قبل الحكم وبعد الحكم . وفي أي وقت . يستطيع الناس أن يخرجوا من السجون . واني لأعرف عشرات الحالات . وإنك لتعرف أضعاف ما أعرف . ولكني لا أعرف حالة واحدة توافرت للافراج فيها أسباب أقوى وأشرف من الاسباب التي توافرت للافراج عن الشباب الذين لم أعرفهم إلا في قفص الاتهام . من أجل هذا قلت لهم قولاً ثالثاً : لا تجزعوا انكم خارجون قبل أن توفوا أحكامكم . فلعلي أصدق هذه المرة أيضاً .

الليل طويل طويل في الزنزانة . والحديث ذو شجون . وذكرى المحاكمة حاضرة لا تسمح لي بأن أنام . فلنواصل الحديث عن القانون كما يحتك بالانسان في قاعة المحكمة .

أثناء المحاكمة يتجسد القانون في القضاة وممثلي النيابة والمحامين . ولست أريد أن أحدثك عن الكفاءة المهنية لهؤلاء البشر . انك أدرى بهم مني . ولعلك سمعت تفصيل ما جرى . ثم لا تنسى أن المحاكمة كانت سرية وأنا لا أريد أن أفشي لك اسرارها . فلأحدثك عما لا يتصل بالاسرار ويبقى على صلة حديثنا بالقانون . القضية سياسية . لا خلاف على هذا . وهى قضية رأي . لا خلاف على هذا أيضاً إذ لم ينسب إلى أحد من المتهمين أن قد تجاوز الانضمام إلى أنصار الطليعة العربية إلى فعل خارجه موجه إلى غير زملائه . والتهمة مناهضة المبادىء الاساسية للنظام الاشتراكي . ومادة الاتهام هى المادة ٩٨ أ مكرر التي وضعت في سنة ١٩٧٠ مع أن الاتهام قد حدد بدء نشاط الانصار بأول يناير ١٩٦٨ أي قبل أن تصدر مادة التحريم بسنتين . ما علينا . ماذا لاحظت وأنا أتأمل المحاكمة طوال ١٧ جلسة سرية مغلقة .

لاحظت مأساة . او ان شئت ملهاة . محنة ثقافة .

فباستثناء أربعة محامين منهم ثلاثة ماركسيون والرابع عضو قديم في تنظيم طليعة الاشتراكيين السري الذي كانت قد أنشأته الدولة ، ثم باستثناء القضاة الذين لم يشتركوا في الحديث ، لم يكن أي واحد في قاعة المحاكمة ، غير المتهمين ، يفهم ما هى المبادىء الاساسية للنظام الاشتراكي . لا ممثلو النيابة ولا جمهرة المحامين . تصور أن أحد كبار المحامين يقول ان كل ما نص عليه الدستور هو من المبادىء الاساسية للنظام الاشتراكي . تصور ممثل النيابة يقول ان تحالف قوى الشعب العاملة ، تلك الصيغة الجبهوية الحركية المؤقتة بحكم طبيعتها ، من صميم المبادىء الاساسية للنظام الاشتراكي . شيء مذهل . ويزيد الطينة بلة ان من بين المتهمين متهماً أسمه عصمت سيف الدولة له ستة

كتب عن الاشتراكية ومبادئها الاساسية وغير الاساسية . وهو رجل يبدو معقداً في أفكاره فلا تبدو آراؤه سهلة الفهم . وهو يزعم ان بعض ما قاله عن المبادىء الاساسية للنظام الاشتراكي إبداع غير مسبوق . هذا المتهم يدافع عنه محام صديقه ولكن ليست لديه أدنى فكرة ، أقول أدنى فكرة ، عن أفكار الرجل الذي يدافع عنه ، تلك الافكار التي يقال انها مناهضة للمبادىء — الاساسية للنظام الاشتراكي . كيف يأتي القانون إلى قاعة المحكمة متجسداً في رجال لا يعرفون شيئاً عن موضوع الاتهام . أوصيت المحامي عني بأن يقدم كتبي كأدلة في الدعوى لاثبات أن التهمة كما صاغتها النيابة تعتبر بالنسبة إلي تهمة مستحيلة . قدمها المحامي وأشار اليها طويلاً في دفاعه المطول بدون أن يعرف شيئاً مما فيها . أشاد بها ما شاءت بلاغته ولكنه لم يستطع في أية لحظة أن يقول انه في الصفحة رقم كذا من الكتاب الفلاني يقول المتهم كذا وكذا وهو ما ينقص الاتهام الموجه اليه بأنه في ذات تاريخ إصدار الكتاب كان يقول العكس ... وماذا عن القضاة ؟ لا بد أن ننتظر اسباب الحكم لنعرف مدى علمهم بالمبادىء الاساسية للنظام الاشتراكي . وإلى أن تودع أسباب الحكم أذكر لك ملاحظتين . أولاهما : ان واحداً منهم قد نطق مرة فقال انه لا يوجد ما يمنع أن يكون الشخص الواحد عضواً في تنظيمين سياسيين . ولم يكن سياق المناقشة يوحي بأنه عضو مؤمن ملتزم بأحد التنظيمين ومندس عمداً في صفوف التنظيم الثاني . لا . السيد القاضي يتصور أنه من الممكن أن يكون الشخص الواحد عضواً مؤمناً ملتزماً في تنظيمين متوازيين . أي أن يكون إيمانه السياسي ذا مضمونين في الوقت ذاته . تأمل . الملاحظة الثانية : منا نحن عنهم هم من جيلنا عن أبناء جيلنا الذين أصبحوا قضاة . متى سمعنا نحن وهم أو قرأنا أو عرفنا شيئاً عن الاشتراكية والنظام الاشتراكي . في وقت متأخر من أعمارنا . وعلى سبيل القطع لم تكن الاشتراكية جزءاً من دراساتنا الجامعية ، والآن أصبح منا من يتصدون للحكم على الآراء الاشتراكية وأصبح منا من يدافعون عن الآراء الاشتراكية . وأصبح منا من يحاكمون بتهمة الآراء الاشتراكية . مسكينة

هى الاشتراكية إذ يكون قضاتها والمدافعون عنها والمتهمون بها ، حديثي المعرفة بها ! ويكون أفضلهم علماً بها من يحاول أن يجتهد على شاطىء بحر علمها العميق .

ما الحل :؟

هل نقول ان على المحكمة في قضايا الرأى أن تستعين بالخبرة ؟ ألا تحيل المحاكم التجارية كل نزاع يحتاج إلى جمع أو طرح أو ضرب إلى الخبراء الحسابيين ليجمعوا أو يطرحوا أو يضربوا . ولكني أفضل نظام المحلفين . كل القضايا السياسية يجب أن يشترك في نظرها محلفون تختارهم المحكمة من أصحاب العقائد أو أساتذة العلوم السياسية في الجامعات ، أو حتى من أمانة الدعوة والفكر في الاتحاد الاشتراكي العربي . عندما يكون « جسم الجريمة » رأياً سياسياً فإن المؤهلات القانونية لا تكون كافية لصلاحية القضاة . إنهم مستقلون ومحصنون ضد العزل . وقد تولى كلهم منصبه السامي قبل أن تطرح قضايا الحرية أو الوحدة أو الاشتراكية . فاعطني ضماناً واحداً لكونهم إشتراكيين ، أو حتى ليسوا رجعيين . ثم تصور معي القانون يتجسد فيهم ليحاكموا الاشتراكيين دفاعاً عن الاشتراكية . انني لا أعني أحداً بذاته . انما هي مشكلة عدالة . وهي مشكلة حادة لا بد لها من حل سريع . اننا نعرف جميعاً أن تجربتنا مع الاشتراكية تجربة حديثة . وان فكرنا الاشتراكي ما يزال وليداً . وان ثقافتنا الاشتراكية لم تنضج بعد . بل ان مفاهيمنا الاشتراكية مختلفة ومتفاوته وفي بعض الاوقات متناقضة . ونحن نحمي الاشتراكية بالقانون . ونزيد فنحدد ما نريد أن نحميه فنقول انها المبادىء الاساسية للنظام الاشتراكي . فهل أقل من أن تتوافر في الذين يناط بهم تطبيق القانون الثقافة السياسية الكافية للتفرقة بين ما يعتبر من المبادىء الاساسية وما لا يعتبر من المبادىء الاساسية للنظام الاشتراكي ...

لا بديل عن المحلفين في القضايا السياسية .

ان كنت تعجب من أنني أسميها مأساة أو ملهاة فلأذكرك بالآتي . ماذ كانت تهمتي ؟ تهمتي التي حوكمت عنها وليست تهمتي التي نشرت في الصحف. ما نشر في الصحف هو التنظيم القومي الذي يستهدف الغاء الدولة العربية جميعاً لحساب دولة الوحدة الاشتراكية . وهذا اعترفت به ود افعت عنه وأثبت أنه مشروع لا جريمة فيه . أما ما اتهمت به فعلا وحوكمت من أجله تلك المحاكمة السرية فهو انني أنشأت وأدرت تنظيماً من بعض المصريين لمناهضة نظام الحكم المصري وإسقاطه . أى انني متهم بإنشاء وإدارة تنظيم إقليمي لتحقيق أهداف إقليمية ...

عجباً .

أعرف أنك قرأت كتابي الاخير « نظرية الثورة العربية » أو أرجو أن تكون قد قرأته . سبعمائة صفحة كنت مشغولاً بكتابتها في ذات الفترة التي حددها الاتهام لنشاطي « الاقليمي » (١٩٦٨–١٩٧١) . لو ضبطت أصول الكتاب بخطي قبل أن ترسل إلى دار النشر لكانت دليلاً خطياً يدحض أي دليل قولي . ولكنه لم يضبط ولم أقدمه إلى المحكمة لانه لم ينشر في الوقت المناسب . في هذا الكتاب . صغت كل أفكاري . وسترى رأيي في إنشاء وإدارة المنظمات الاقليمية . ستراه في ا لجزء الاخير من الكتاب (الاسلوب) حيث أدين بقوة المنظمات الاقليمية وأدعوها إلى إعلان فشلها . اليس هذا أقوى دليل على البراءة . هو كذلك لو أن الذين ينظرون الدعوى من العالمين بالتيارات الفكرية السائدة المطلعين على المصادر الفكرية لتلك التيارات . لو أن الذين ينظرون الدعوى كانوا من المثقفين سياسياً . والثقافة السياسية كما تعلم تحتاج إلى جهد ووقت أكثر بكثير من الجهد والوقت اللازمين لدراسة القانون. لهذا يعجز القانوني البحت عن إدراك حقيقة القضية التي ينظرها إذا كانت القضية سياسية فلا يبقى إلا أن نسانده بالقادرين من أساتذة الفكر السياسي في شكل محلفين . لكى تكون فكرتي واضحة أرجو أن يتسع وقتك لتراجع في

كتابي الاخير « نظرية الثورة العربية » التفرقة الدقيقة بين « الموقف القومي » و « الموقف العربي » و « الموقف الاقليمي » وتصور أننا نريد أن نحمي بالقانون الموقف الوحدوي ونعاقب الموقف الانفصالي . ان توحيد الوطن العربي لمصلحة أحد أقطاره موقف وحدوي ولكنه إقليمي فهل نحميه ؟ ان توحيد الوطن العربي لمصلحة جبهة من قوى إقليمية موقف وحدوي عربي ولكنه ليس قومياً فهل نحميه ؟ سيأتي اليوم الذي يضطر فيه القضاة إلى مواجهة مثل هذه المشكلات الفكرية التي سيطرحها واقعنا من خلال نمونا الفكري والاجتماعي وهي مشكلات لم تكن مطروحة يوم أن كنا ندرس القانون ، ولن تطرح في أية كلية حقوق حتى في المستقبل . ومع ذلك فإنه على قدر وعي القضاة بها ، وإدراكهم تعقيداتها الفكرية ، ومنابعها الفلسفية ومشكلاتها التطبيقية ستتوقف حرية بشر كثيرين . فلماذا لا نعد من الآن للمستقبل ؟ لماذا لا يواكب القضاة حركة نمونا ؟ على الاقل إلى أن تتجاوز أفكارنا السياسية والاجتماعية مرحلة النمو الاولى وتستقر عناصرها الاساسية وتصبح محددة بحيث لا يخطىء أحد التعرف عليها ، هذا إذا كانت للافكار السياسية والاجتماعية مرحلة نهائية يتوقف عندها نموها . لماذا لا نجنب الجيل القادم على الاقل مخاطر تجربة عصمت سيف الدولة ، أو حتى الجيل الحالي فلا أحد يعلم من صاحب الدور ...

أسألك سؤالاً عابراً ...

كم واحد من القضاة يعرف أن من ينكر الحتمية لا يؤمن بالاشتراكية ؟..

إذن .. فليدخل المحلفون قاعات المحاكم في الجرائم السياسية .. ومن الآن .

ختاماً لرسالة اليوم أحكي لك « حدوتة » وأترك لك فهم دلالتها .

في سبتمبر ١٩٧١ كان أحد الانتهازيين من المرتزقة قد قدم ضدي تقريراً إلى أحد المكاتب التابعة للسلطة يقول فيه ان لي منظمة من الشباب العربي

ذات فروع في أوروبا ، وانني قد طلبت إلى بعضهم أن يعبروا من أوروبا إلى ليبيا . ليحضروا ويخربوا مؤتمر الطلبة الوحدويين الناصريين الذي سينعقد في طرابلس يوم ٢٨ سبتمبر . أرسل المكتب الذي تلقى التقرير صورة منه إلى مباحث أمن الدولة التي كانت منذ أوائل ١٩٦٨ مهتمة بالتحقق من صحة بلاغ سابق . المهم أنه في نوفمبر ١٩٧١ ردت مباحث أمن الدولة على رئاسة الجمهورية تقول ما معناه ان ما نسب إليّ من صلة تنظيمية بأحد هو محض إفتراء من فلان (الانتهازي المرتزق) وأن المسألة لا تعدو أن كثيراً من الشباب العربي يتأثرون بما أكتب وينسبون أنفسهم إليّ ومنهم من يذهب إلى حد الادعاء بوجود صلة تنظيمية موهومة بيني وبينه . وفي أول جلسة طلب الدفاع عني ضم هذا التقرير . رفض القاضي . لماذا ؟ قال للمحامي بابتسامة لن أنساها : لا داعي ربما يضره !! .. وظن المحامي ، وظننت معه ، أو أوحى الينا القاضي وتقبلنا الايحاء ، بأنه يرى أنه طبقاً لما هو ثابت في الاوراق ليس ثمة ما يضير في .. فلا داعي لطلب أوراق قد تضير .. وبلعنا الطعم منذ البداية .. وتقبلت التهاني من الزملاء منذ البداية ... فمن المسئول عن سجني ؟

كفاية .. تصبح على خير .

(٨)

في ١٩٧٢/٨/١٥

. . . . .

. . . ولم أكتب اليك أمس ، لأن نفسي الفنانة شغلتني طوال النهار والليل . يبدو انها لم تطق صبراً على انصرافي عنها الايام الاخيرة . صباح أمس إنتهزت فرصة أن ثمة عملية طلاء للسجن ولاحظت أنهم لا يسلمون عمال الطلاء من المسجونين جيراً مسحوقاً . لمـــاذا ؟ ... لأنهم لا يأتمنونهم عليه . ولست

أعرف ماذا يخشى السجان أن يفعـل المسجون بالجير . على أى حال انهم يسلمونهم « عجينة » من الجير المخلوط عليهم أن يذيبوها في الماء ثم يستعملوها . فجذبتني الطينة . ويبدو أن ذلك ميراث الفلاحين يسري في دمي قالت نفسي : دعك اليوم من كتابة تلك الرسائل التي لا تعرف ما إذا كان أحد سيقرأها . ودعنا نصنع تمثالاً من هذه الطينة الجميلة . انك لن تتعب في خلقه كما حدث مع تمثال « الحقيقة » الذي نحته ذرة ذرة بسكين بليد .

لم أستطع مقاومة الاغراء وإختلست قطعة من الطين الجيري . لنرى أولاً ماذا سنسمي هذا الخلق الجديد . قالت نفسي ، وليس قطعة الطين ، نسميه « ألامل » .

– أمل من ؟

– أمل الانسان ؟

– في أى مكان ؟

– في كل مكان

– في أي زمان ؟

– في كل زمان

– على أي وجه يكون التعبير عنه إذن ؟

– إن أمل الانسان ، أى إنسان ، في كل مكان وزمان هو السلام والرخاء والحب .

فلنرمز للسلام بحمامتين . ولنرمز للرخاء بامتلاء حويصلاتهما .
ولنرمز للحب بقبلة « حمامية » .

وقد كان . وجاء التمثال قريباً مما يرمز له . ولكن عجينة الجير لن تلبث أن تجف فتتفتت . خسارة . سيجارة أعطيناها للقادرين فكانت لدينا كمية

وافية من الجص . أذ بناه وصببناه على التمثال فأصبح « الامل » فراغاً مجوفاً في قلب الكتلة الصماء . هذا أكثر واقعية ولكنه مجرد من الجمال . ولما كنا مناضلين من أجل السلام والرخاء والحب ، من أجل أمل الانسان ، فقد كان لا بد لنا من ملء الفراغ . سيجارة أخرى وحصلنا على قدر من الاسمنت . ثم اتضح أن صب الاسمنت في التجويف بكل نتوءاته لن يسمح بأخراجه من قالبه . فلننشر القالب الجصي نصفين . يلزمنا منشار . ولا كل ما معنا من سجائر يكفي للحصول على منشار . إذن فلنصنع منشاراً . منشاراً رقيقاً يكفي لقطع الطين . وإستغنينا عن واحدة من علب الفاصوليا وشققناها وفردناها فاستقامت منشاراً لا ينقصه إلا الاسنان . ان مقص الاظافر كان كفيلاً بتحويل شريحة الصفيح إلى منشار . وقطعنا وصببنا وما يزال « ألامل » مختفياً في قالب الجصي ولن يخرج منه إلا بعد أن يصبح في مثل صلابة الحديد . عندئذ يفرج عنه وتبدأ مرحلة التجميل والجمال . وتلك مرحلة متأخرة إلى حين . لا بد من الصلابة أولاً . فكل أمل يخرج إلى الوجود قبل أن يستوفي صلابته يتحطم وتذهب الجهود التي بذلت من أجله سدى . هذا درس تعلمناه من قبل . فلنصبر على تمثال الامل حتى يكسب صلابته ولنعد إلى الحديث الشيق الذي لا أود أن ينتهي وأن كنت أحسب أنني سأنهيه قريباً . لقد وعدت نفسي بهذا مقابل أن تصبر علي يومين آخرين . فإن إستطعت أن أنهي قريباً الأغنية الثالثة من أغاني الزنزانة التي تصر نفسي على إملائها فقد أعود إلى الكتابة مرة أخرى . من أجل هذا لن أحدثك بما كنت أود أن أحدثك عنه اليوم . أعني قانون الوحدة الوطنية الذي قرأت مشروعه أمس . لا لأني في عجلة من أمر نفسي فقط ولكن لسببين آخرين :

الاول : انه ما يزال مشروعاً فلنصبر حتى نرى كيف يكون قانوناً وحينئذ نتحدث عنه .

الثاني : انني أخشى أن أتحدث عنه فيعتبر هذا مناهضة للسياسة العامة « المعلنة » للدولة ، أو يعتبر حديثي اليك ، وأنت عضو في مجلس الشعب ،

محاولة للتأثير على إحدى المؤسسات الدستورية ، أو يكون ما أكتب بياناً ، حتى لو كان غير كاذب ، فهو مغرض ، فاعاقب بالحبس طبقاً للمادة ٤ أو بالسجن طبقاً للمادة ٥ . ولماذا ؟ . بالمناسبة ، وهذا ليس خبراً أو بياناً أو شائعة بل هو سؤال : اليست السياسة العامة « المعلنة » لأية دولة هي رأي الحكومة فيها ؟ .. فهل المقصود من قانون الوحدة الوطنية أن تصبح مخالفة رأي الحكومة في شأن السياسة العامة جريمة ؟ .. ثم ، اليس لكل كلمة ، سواء أكانت خبراً أو بياناً ، « غرض » تستهدفه ، وبالتالي اليس كل قول مغرضاً ؟ .. ثم ان العقوبة مشددة في حالة الحرب فهل معنى هذا ان هذا القانون ليس من أجل الحرب وانما هو قانون عام حتى لأيام السلام ؟ .

لنعد إلى حديثنا الشيق حتى لا نفقد متعة الحديث . أريد أن ، أحدثك عن السجن من حيث هو القانون مجسداً في مبان تضم نفراً من بني الانسان .

لقد أدهشني السجن حقاً . انه ليس سيئاً إلى الدرجة التي كنا نتصورها ونحن خارجه . ان فكرتنا عن السجون كانت ، فيما يبدو ، فكرة تاريخيه وليست واقعية . أعني أننا كنا نفهم السجون من خلال القصص المأساوي الذي صادف بعض الناس في السجون ، أو اختلقه بعضهم دليلاً على بطولتهم في مواجهة ما لا يطيق البشر . ولقد كنا نسمع أن السجون تزيد المناضلين صلابة ولم نكن نعرف كيف يكون السجن ، وليس العقيدة ، مصدراً لصلابة المناضلين ، أو كيف يضيف إلى صلابتهم ما لم تستطع عقائدهم . الآن عرفت أن المناضلين من أصحاب العقائد لم يكونوا يجسدون ، قبل دخولهم السجون ، كل الصلابة التي تتفق مع عقائدهم . كانوا يخافون السجون. وكان ذلك الخوف يقتطع من صلابتهم قدراً. فما أن يدخلوا السجون ويعرفوهامعرفة التجربة الحقيقية حتى يتبدد الخوف فيعودون رجالاً بدون خوف . والواقع إن السجن لا يخيف ، بل استطيع ان أقول ان فيه ميزات كثيرة . لست أقول هذا قياساً على

ما أشعر به شخصياً فإن تجربتي كمسجون لم تبدأ بعد . فأنا « تحت » التحقيق كما يقولون ولهذا أتمتع بما لا يتمتع به غيري من نزلاء ذات السجن . استقبل زواري كل خمسة عشر يوماً وهم يستقبلون كل شهرين . استقبل زواري في حجرة مريحة وهم يستقبلونهم واقفين يفصل بينهم حاجز كئيب من القضبان ثم شبكة من السلك فلا تتلاقى أيديهم ولا يستطيعون الحديث الاصراخاً . أنا البس ملابسي العادية وهم يلبسون ذلك النموذج « الصيني » من الدمور الازرق . انا انام على سرير ادفع له اجرا وهم ينامون على ابراش من الليف وبطاطين من الصوف . ومع ذلك فهم اكثر مني حرية في الحركة داخل السجن . انا رفيق الزنزانة وهم يتجولون. انا لا استطيع ان اكتب الا خلسة وهم يكتبون. انا عاطل اقطع اياما طويلة فارغة مملة لولا ما ابذل من جهد لاقطع طولها واملأ فراغها والفظ مللها ، وهم يعملون في مزارع ومصانع السجن ومدرسته ومسرحه .

أياً ما كانت الفروق وقيمتها النسبية فاني لا أعتقد ان خبرتي الذاتية بالسجن — حتى الآن — كافية لأحكم عليه بما الاقيه في نفسي. لهذا فاني احدثك عن السجن كما أراه في تجربة الآخرين . ولقد تأملتهم أولاً ثم خالطتهم بعد هذا ثم حاورت نماذج كثيرة منهم من أول « الرجل العقب » ، هذا إسم الذي لا يكف عن تسول أعقاب السجائر المسجون من أجل ذات الفعل : التسول ، إلى آخر تجار المخدرات الذين يتجاوز رأس المال المتداول لكل منهم ، داخل السجن ، بضعة آلاف من الجنيهات . وما بين هذا وأولئك كل النماذج : لصوص ، وقوادون ، وهاربون من خدمة القوات المسلحة ، ومختلسون للأموال العامة ، وقتلة ...الخ ولقد كنت حريصاً على أن أعرف من كل منهم ما يضايقه في السجن أو على أي وجه يفهم أنه مسجون ولم يكن إستخلاص الإجابة من أي منهم سهلاً . فالصدق هنا غريب . لكل مسجون قصة فيها قدر أو آخر من البطولة أتت به إلى السجن . فإن استطعت أن تراجع البطاقات

التي تثبت فيها التهمة يدهشك أن تتبين أن أحداً لا يريد أن يقول لماذا هو مسجون . وتكتشف مثلاً أن القاتل في مشاجرة « شَطَّب » خلالها أحد شوارع الجيزة مسجون من أجل جريمة دعارة . وان المسجون من أجل إثارة فتنة في القوات المسلحة مسجون لاختلاس مرتبات الجنود . ويبدو أن للسجن أثراً في هذا لم أتبينه تماماً . فقد قابلت مسجوناً منذ مدة طويلة في جريمة سياسية كنت أعرفه وهو طالب وأعرفه وهو محام وأعرفه وهو مشغول بالقضايا السياسية . وقد كنت أظن أنني سأجد فيه رفيقاً ندير الحديث معاً على موضوعات معقولة ، فإذا به لا يكف عن محاولة إقناعي بأن دخوله السجن كان نتيجة مؤامرة دولية إشتركت فيها الولايات المتحدة والإتحاد السوفيتي وأن مؤتمرات ضمت ممثلي أكثر من دولة قد انعقدت لرسم خطة التخلص منه ، لأنهم يعرفون أو كانوا يعرفون ــ كما قال ــ انه خليفة ماوتسي تونج في قيادة الحركة الأممية ، وتلك الدول تريد أن يموت ماوتسي تونج بدون خليفة فدبروا لخليفته المنتظر تهمة سجنوه بها . وان جميع الاطراف المعنية يعلمون علم اليقين انه لو لم يكن مسجوناً لما إنتصرت إسرائيل سنة ١٩٦٧ .....الخ . ثم يضيف انه آسف لأنه لا يستطيع أن يفشي لي أسرار القوى الدولية التي يقودها . هذا ولا تنسى انني أعرفه جيداً . وهو يعرف جيداً انني أعرفه جيداً .

المهم ان محاولة دراسة مفهوم السجن لدى أغلب المسجونين من القطاع الشعبي قد أسفرت عن الآتي :

من حيث الإقامة ومرافق الحياة يعتبر السجن أفضل بكثير من منازلهم . حجرات مبيضة ونور كهربائي ومياه جارية ودورات مياه نظيفة ، ومذياع عام ، وسينما كل شهر ، ومسرح من حين إلى حين ، و « تليفزيون » لعرض مباريات كرة القدم الهامة ، ومكتبة، ومدرسة ... بدون أجر . وهو ما لا يتوافر لهم خارج السجن . المأكل هنا سيء . بالغ السوء حقاً . ميزته الوحيدة

أنه بدون مقابل . فهو من حيث النوع ردىء ومن حيث الكمية غير كاف بالنسبة للكثيرين . ولا يرجع هذا إلى لوائح السجون بل يرجع إلى أبرز الحقائق في السجن : إنعدام القانون . أي قانون . لائحة السجون ذاتها لا تدخل السجن . تبقى في المبنى الخارجي عند الادارة تحت يد البيروقراطيين . أما في الداخل فلا قانون ولا لائحة . اللهم ألا عندما يدق جرس الإنذار (التليفون) معلناً ان احد مسئولي إدارة السجون سيزور السجن . هنا يوضع كل شيء في شكله اللائحي لمدة نصف ساعة أو أكثر قليلاً إلى أن ينصرف الزائر فيعود السجن إلى خلوته الخاصة بعيداً عن القانون . مثلاً : كمية المأكولات كما تجهز فعلاً كافية بالنسبة إلى عدد النزلاء ونوعه كما يطبخ فعلاً يعتبر ترفاً بالنسبة إلى أي فلاح أو عامل أو متسول . ولكن الثغرة قائمة في أن الطعام لا يقدم إلى المسجونين في قاعات طعام خاصة كما هو الحال في سجون أوروبا ، وإنما يوزع عليهم في الزنازين . وهو لكي يوزع لا بد له من أن يحمل اليهم من المخابز والمطابخ . والحاملون من المسجونين والموزعون من المسجونين . فأولا يختفي قدر كبير منه في مرحلة نقله أو إنتقاله . وثانياً يحصل كل مسجون على النصيب الذي يحدده الموزعون . فكأن القدر الكبير الذي يختفي هو نصيب الفئة المستضعفة من المسجونين ، وهم الأغلبية . إذ ان النظام هنا كنظام الحواري القديم . فكما كان لكل حارة « فتوه » يفرض على أهلها إتاوة ليحميهم من الاعتداء أو يعتدي هو عليهم ، فإن لكل دور من عنبر « نوباتشي » يتحكم في البشر وما يأكلون . أما من حيث النوع فإن القدر المختفي هو القدر الافضل . إن كان لحماً فإن إنتقـــاءه سهل وأن كان فولاً — مثلاً — فإن كل الزيت يختفي مع بعض الفول المختفي . ويأكل المسجونون فولاً « سادة » . أين يذهب هذا القدر الطيب المختفي ؟ يباع للمسجونين أنفسهم . يباع علنا . فهنا زحمة تجار وتجارة . كل البضائع ، أعني كل البضائع — ربما عدا السيارات — تعرض للبيع . وينادي الباعة على بضاعتهم . وتختلط نداءاتهم فتحسب أنك في

« الغورية » وإني لاضرب لك مثلين .

أولهما الخبز :

لكل مسجون ثلاثة ارغفة . وهذا ما لا تمكن المغالطة فيه . فماذا يصنع التجار . توزع فعلاً ثلاثة أرغفة لكل مسجون . ولكنها أرغفة من العجين. أعني غير ناضجة فلا تطاق طعماً . ومن شاء أن يأكل خبزاً فعليه أن يشتري من ذات العجين ، من ذات الفرن ، من ذات الموزعين ، ولكن خبزاً ناضجاً ، أفضل بكثير من الخبز الذي نأكله في الخارج . ولما كان الخبازون من المسجونين أيضاً فإن « الشركة العامة لصناعة الخبز » تضارب الدولة في سوق السجن . تخبز خبزاً رديئاً وتوزعه لحساب الدولة ثم تنزل السوق بخبز جيد . ويحدث هذا في كل المأكولات . فليس غريباً أن تسمع — بعد توزيع وجبة اللحم — منادين منطلقين في ردهات السجن يبيعون كميات من اللحم المختار . والعملة السائدة أو الوحيدة، فيما عدا تجارة المخدرات ، هي السجائر السجائر هي النقد . وتتفاوت المراكز « الاجتماعية » داخل السجن تبعاً لكمية السجائر التي يملكها كل واحد . ومن السجائر تدفع الاجور . نعم و .... الاسود الذي كان بواباً فسرق يعمل عندي خادماً في مقابل سيجارتين يومياً . كل قطعة ملابس تغسل مقابل سيجارة وتكوى مقابل سيجارة ....الخ

والسجائر هنا أغلى قليلاً منها في الخارج وإن كانت موحدة السعر أي ان السيجارة ، سيجارة بصرف النظر عن نوعها . بلمونت أو كليوباترة عادية الحجم أو « كنج سايز » . الجنيه يساوي ثماني علب صغيرة أي ٨٠ سيجارة ثمنها — في الخارج — ثمانون قرشاً . فأنظر هذا اللص ذا الذهنية الإقتصادية . انه نزيل منذ خمس سنوات . في أول شهر أودع خزانة السجن عشرة جنيهات وهو الحد الاقصى المسموح به لكل نزيل على أن يشتري به من المقصف (الكنتين) . والمقصف لا يبيع لاحد سجائر بأكثر من ثمانين في المائة من المبلغ الذي يملكه ويبيع له بالباقي مأكولات معلبة . فماذا يفعل أخونا . منذ البداية ،

وفي كل شهر ، يشتري من المقصف بثمانية جنيهات سجائر وبجنيهين معلبات. ثم يبيع السجائر داخل السجن بعشرة جنيهات مستفيداً من فروق الاسعار . ثم يحتفظ بالمعلبات ويعود فيودع العشرة جنيهات خزانة السجن من جديد . ويكرر هذا كل شهر منذ خمس سنوات . أي أنه يربح ٢٠٪ كل شهر أو ٢٤٠ ٪ في السنة من رأس ماله الذي لم يتغير : عشرة جنيهات .

أما عن الملبس فان مشكلته محلولة . أو قل لا مشكلة على الاطلاق . الزي موحد . ولا أحد يهتم به فلا توجد هنا مشكلة ملابس أو « وجاهة » .

إذن فمن حيث الإقامة والمأكل والملبس والنشاط التجاري والصناعي أستطيع أن أؤكد ان الحياة تبدو لأغلب اصحابها أفضل بكثير من حياتهم في قراهم أو حواريهم أو أرصفتهم . ولكنهم جميعاً ، وبدون إستثناء ، يشكون من « حبس الحرية » . أية حرية يا رفيقي ؟ أعني ماذا تقصد بالحرية ؟ ...بصيغة أخرى ، ما هو الامر الذي تريد أن تفعله وأنت ممنوع عن فعله فتشعر بأن ثمة « حبس حرية » ما عدا — طبعاً — رغبتك في الخروج ؟ .. لست أبالغ إذا قلت أن كثيرين جدا لم يستطيعوا الاجابة . حتى بالنسبة إلى الرغبة في الخروج فكثير يعترفون — بعد فترة الفة تشجعهم على الصدق — بأن الخروج يعني العودة إلى الفقر والجوع والتشرد والتسول والحرمان من مأكل وملبس بدون مقابل . ولكنهم جميعاً عبروا عن المعنى الآتي بطريقة أو بأخرى : ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان . انهم يشعرون بأنهم يفتقدون الحرية من مجرد معرفتهم أنهم في السجن ، وهم يفضلون أن يكونوا أحراراً يعملون ما يشاؤن حتى بدون أن يعرفوا ما الذي سيعملونه أو يريدون عمله . قال لي واحد منهم بعد محاورة طويلة : تعرف يا دكتور... أنا محكوم علي بثلاث سنوات ومستعد أخليهم أربعة لو تركوا الزنزانة مفتوحة أو خلوني أنا اللي أغلقها من جوه أو حتى أخذوا رأيي في ساعة غلقها . وفهمت ما يريد وما يريدون جميعاً قوله . المشاركة في نظام حياتهم حتى وهم داخل السجن . التحرر من الشعور

بأن إراداتهم لا قيمة لها . ولعل هذا الشعور وراء النزوع الجامح لفرض إراداتهم ، أي ممارسة إنسانيتهم بكل الطرق المستقيمة أو الملتوية أو المنحرفة .

إنني لم أقض بعد الوقت الكافي لمعرفة مشكلات السجن والمسجونين معرفة تسمح لي بأن أتصور حلولاً لها . غير أن لدي فكرة تحتاج إلى مزيد من الدراسة .

إن إتجاه الدولة فيما يسمى إصلاح السجون هو توفير أكبر قــدر من الراحة للمسجونين . وقد نجحت في هذا إلى حد كبير . إلى الحد الذي أصبح مستوى المعيشة في السجن أكثر راحة من مستوى ملايين من الفلاحين في القرى . ولقد كنت نفسي أقارن بين زنزانتي وبين بيوت قريتي التي قضيت فيها سنين طويلة من عمري ، وما يزال يعيش فيها أهلي ، فأشعر بالراحة . أعني العزاء .. ولست أقول ان هذا مشجع على دخول السجن أو مخفف لكآبته حتى بالنسبة للفلاحين ، فثمة العنصر الذي لا يعوض : الحرية . ولكني أقول إن إصلاح السجون شيء يختلف تماماً عن إصلاح المسجونين . فإذا كانت الدولة قد جعلت من الاقامة في السجن شيئاً محتملاً ، أو غير مكروه ، مسكناً ومأكلاً وملبساً وتسلية ، فانها لم تواجه المشكلة الحقيقية . والمشكلة الحقيقية كامنة في الانسان نفسه . خذ مثلاً لإيضاح ما أفكر فيه . إن لائحة السجون تفرض العزلة على المسجونين . فطبقاً لكلماتها الميتة لا تفتح الزنزانة إلا لفترتين كل نهار . كل منها نصف ساعة يقضي فيها المسجون حاجته سواء كان محتاجاً أو غير محتاج . يصحبه حارس يقف على رأسه إلى أن يقضي حاجته ليعود به إلى الزنزانة . هذه القيود معدومة ، في الواقع مثلها مثل كل ما تنص عليه اللائحة من قيود وذلك لاسباب قد أتحدث عنها فيما بعد . الذي يحدث أكثر من هذا إنسانية . من الصباح إلى المساء تظل الزنازين مفتوحة ويمرح المسجونون رحاب السجن يختلطون ويتزاورون ويتاجرون ويقرأون ...الخ . لا شك في أن هذا أكثر راحة للمسجونين . غير أن لهذا الإفراج وجهاً آخر .

ففي غمرة الاختلاط تفتح مدارس الجريمة أبوابها . ويتولى الاساتذة العتاة تلقين المحدثين فنون العصف بالقانون ويفسد البعض ويزداد الآخرون فساداً .

هذا هو ما لم تواجهه الدولة . أعني هذا مثل مما لم تواجهه الدولة .

فكيف يمكن أن يتحول السجن إلى مدرسة لتخرج المواطنين الصالحين للحياة خارج اسواره . واضح انه لا يكفي اطعامهم حتى التخمة أو الترفيه عنهم حتى الاسراف . في رأيي — الذي لم ينضج بعد كما قلت — ان علاج مشكلة المسجونين ، مثل علاج أية مشكلة أخرى ، لابد أن يبدأ بالإنسان . فمن هم الناس الذين يعيشون في السجون ؟ أنهم شريحة منتقاة تمثل أصدق تمثيل شعبنا خارج السجون . هنا نموذج كامل الصدق للناس خارج السجن . أقول كامل الصدق لأنه نموذج عار . في خارج السجن يغلف الناس حقيقتهم بستائر كثيفة من المال أو المركز أو الثقافة أو التزام قواعد النفاق الاجتماعي . أو لعل الناس في الخارج يخفون حقيقتهم خوفاً من السجن . أما وقد وقع الفأس في الرأس فلم يعد ثمة مبرر للخوف . وهكذا ترى في الناس هنا مجتمعك عارياً بدون نفاق أو خوف .

هذا مدخل قد يصل بنا إلى حقيقة مشكلة الانسان في السجن فيهدينا إلى حلها . فعندما ننظر إلى النزلاء على أنهم نماذج من الشعب نفسه تجمعوا في مكان واحد ، ندرك بسهولة أنهم لا بد حاملون جراثيم الحياة في المجتمع الذي ينتمون اليه . ثم قد نضيف أنهم أكثر تشبعاً بتلك الجراثيم وإلا ما كانوا وحدهم داخل السجن . إفترض هذه الاضافة وإن كنت أشك في صحتها شكاً قوياً . أشك في أن يكون نزلاء السجون أكثر سوءاً ممن لم ينزلوه . على الاقل، أشك في إطلاق القاعدة . فما هي الجرثومة الاساسية التي أفرزتها الحياة في مجتمعنا المتخلف ثم عادت بعد إفرازها تفتك به . كأولاد العقارب ما أن يولدوا حتى يأكلوا أمهم . أعتقد أنه الجهل المطبق ، أو الرفض المطلق ، للحياة الجماعية . اننا نعرف هذه الجرثومة ونتعرف على آثارها المخربة على المستوى السياسي

ونسميها الفردية أو عدم الوعي الديموقراطي . ولكنها ذات الجرثومة التي تسري في دماء كل المستغلين والمرتشين والمستبدين والبيروقرطيين والخونة . رفض الالتزام الاجتماعي وتحقيق ما يريدون على حساب الآخرين . وفي القانون يسمون جريمة عدم التزام الفرد قواعد القانون التي تنظم الحياة في المجتمع .

إذن فالجريمة هي إمعان في الفردية يتجاوز السلبية ليصل إلى تحدي المجتمع وخرق قواعد السلوك فيه . فإذا إعتبرنا أن كل المسجونين مذنبون — وهو ما أشك في صدقه كما قلت — فيمكن أن نقول أن مشكلة المسجونين هي امعانهم في رفض الحياة الاجتماعية . امعانهم في رفض الحياة مع غيرهم طبقاً للقواعد المنظمة لهذه الحياة المشتركة . امعانهم في الانسلاخ عن المجتمع ومواجهته من خارجه حيث يكون مباحاً لديهم الثأر منه باغتصاب أمنه أو ماله . امعانهم في الثقة بصلاحية مسالكهم الفردية للحياة .

هذا هو في نظري جوهر مشكلة السجن والمسجونين . ولا تؤثر في صحة هذا النظر المبررات الحقيقية أو المدعاة للتمرد . وللتمرد دائماً مبررات إجتماعية حقيقية قد لا يدركها المتمردون . أعني أنه لا يفيدنا كثيراً الوقوف عند القصص التي يرويها كل مسجون عن أسباب تمرده على مجتمعه فقد يعرف من نفسه أسباباً حقيقية أو موهومة للتمرد ، ولكنه قد لا يعرف من مجتمعه كيف دفعه على التمرد . المهم من الامر ان كل المسجونين يعانون في أنفسهم مشكلة حادة هي التناقض بين كونهم أفراداً من مجتمع منظم وبين نزوعهم إلى فرض إراداتهم الفردية .

فكيف تحل هذه المشكلة ؟

بتدريبهم على الحياة الجماعية . ويتيح وجودهم معاً في مكان واحد أفضل الفرص لهذا التدريب . ما هي صيغة هذا التدريب؟ ليست لدي فكرة واضحة غير أني أتصور ان التسيير الذاتي هو أفضل صيغة. نعم، التسيير الذاتي . أن تكون اللائحة ديموقراطية . أن يختار المسجونون ممثلين لهم عن طريق الانتخابات الحرة السرية . أن يتكرر هذا الاختبار في فترات متقاربة . أن يشكل ممثلو

المسجونين مجلساً لإدارة السجن خلال مجلس مشترك منهم ومن ممثلي الدولة باختصار أن يكون المسجونون ذوي إرادة فعالة في حياتهم وأن يعتادوا أعمال هذه الارادة وأن يكتشفوا خلال اعمالها ان الإرادة الجماعية أفضل من التمرد الفردي في صيغة الحياة ... يكتشفوا روعة الديمقراطية .

والحق ان هذا لن يكون إلا إضفاء للشرعية على تقاليد غير مشروعه تخضع لها الحياة في السجن . ألم أقل ان القانون لا يدخل السجن ؟ .. قلت . واني لأعني بهذا القانون الوضعي . والواقع ان السجن تحكمه قواعد إجتماعية خاصة . إن السجن يبدو كقرية بدائية سابقة على وجود الدولة. فالدولة هنا تظهر مرتين. أعني ان القانون يحضر مرتين . عند فتح الزنازين وغلقها . ثم في الاوقات القليلة التي يشكو فيها مسجون من مسجون وهي نادرة . فيما عدا ذلك فإن كل ما يمنعه القانون أو اللائحة متوافر ومتاح ولا عقوبة عليه . كل الجرائم ، في منطق القانون ، من أول الضرب إلى الشروع في القتل إلى السرقة إلى المتاجرة بالمخدرات ، قائمة بدون واعز أو ردع . أعني ان الإدارة تعرف أنها قائمة ، لأنها علنية في الواقع ، ولا تتدخل . وإن تدخلت فحبس إنفرادي بضعة أيام لا تقدم ولا تؤخر . أما الشروع في قتل شرطي طعناً بسكين فعقوبته الجلد . ذلك لأن تنفيذ اللائحة مستحيل . إنها لفرط إفتقارها للانسانية أصبحت مستحيلة التنفيذ . ولو نفذت لتمرد المسجونون أو هربوا جماعياً .

ثم إن هناك منطق البيروقراطية الخالدة . إن الكشف عن المخالفات يعني أن إدارة السجن مقصرة . وأوراق التقصير تزعج الموظفين . وهكذا ينتهي واقع أن المسجونين لا يحتملون أكثر مما يطيقه البشر من ناحية ، والنفاق البيروقراطي من ناحية أخرى ، إلى ترك المسجونين وشأنهم والتستر عليهم أيضاً حتى لا يبدو البيروقراطيون مقصرين .

مثلاً . حيازة الآلات الحادة ممنوعة . والسجن مليء بالسكاكين المصنوعة داخل السجن ذاته . والمقصف يبيع معلبات تحتاج إلى آلات حادة لفتحها. مثلاً

المواقد ممنوعة . ويصنعون في السجن موقداً عبقرياً من علب الصفيح الفارغة يسمونه « تَـوْتَـوْ» وعند كل مسجون توتو . وتستعمل إدارة السجن « التواتو » لطهو الفول . ومع المواقد يتوافر الوقود إختلاساً علنيا من مخازن السجن . علنيا فعلاً . فعندما تقع براميل الوقود على الارض فيسيل يكون حادثاً قضاء وقدراً . وعندما يجفف المسجونون الوقود السائل على الارض تكون نظافة مشكورة . ثم تعصر الخرق التي امتصت الوقود في أواني أخرى لتزويد « التواتو » بما يكفي لطبخ المعلبات التي تحمل تعليمات بأن « تسخن قبل الاكل » . وهذه يبيعها المقصف. ولعمل الشاي السائل من الشاي الناشف. وهذا الاخير يصرفه السجن. يبيعون طعاماً لا بد أن يسخن ، ويبيعون شاياً جافاً ، ثم يحرمون المواقد .

انه النفاق البيروقراطي . والفساد هو الابن الشرعي للنفاق والبيروقراطية .

إذا كان القانون الوضعي لا يطبق أو غير قابل للتطبيق فإن البديل المتاح هي القوانين البدائية . والغريب ان الجميع يطبقونها ويحترمونها ولا يختلفون عليها وبالتالي لا يحتاجون إلى محاكم أو إلى دولة . مثلاً : السرقة مباحة فلا يجوز لأحد أن يشكو من أن أحـــداً سرقه ، ولا ينبغي له أن يغضب . كل ما يستطيع أن يفعله – وهو مباح – هو أن يسرق . لا أحد هنا يعترف لأحد بحق ملكية أي شيء لا يحوزه فعلاً . فإن فقد حيازته ضاع عليه . أما القانونان الرئيسيان فهما : القوة والثورة . أو قل هو قانون واحد لم تعرف البشرية قانوناً قبله : القوة . قوة السجائر وقوة العضلات . وهما يحظيان من القائمين عليهما بقدر من الاحترام لا يحظى به أي دستور . وأعني بالاحترام الاعتراف بهما أولاً ثم قبول احكامهما ثانياً . هل هي عودة إلى الشيوعية الاولى أم أنه المجتمع الفوضوي الذي كان يداعب أحلام (برودون) . تحت نظري في هذه القرية التي أسمها السجن أكثر من ثلاثة آلاف شخص يحتكمون إلى القوة ويقبلون أحكامها تلقائياً بدون حاجة إلى الدولة . فتنمو بينهم وتنتشر وتستقر جرائم الفردية المتمردة فيصبحون أكثر إجراماً من ذي قبل . فهل من حل غير منح إراداتهم أقصى مجال لفعاليتها بأن يسهموا في إدارة حياتهم . يشعرون

بحرية أكثر ، ويتعلمون كيف تكون الحرية ــ دائماً ــ حرية إجتماعية .

سأستمر في مراقبة هذا المجتمع العجيب . وعندي كل ما يلزم من وقت وأ كثر . وأرجو أن يكون حديثي عنه بعدئذ أكثر نضجاً من هذه الملاحظات العابرة .

ماذا بقي لي أقوله :

(٩)
في ١٩٧٢/٨/١٥ مساء

. . . . .

ربما يكون عليّ أن أجيب على سؤال . هل ما قلته عن السجن يعني أنني سعيد بوجودي فيه ؟ ... لا . إنما أردت فقط أن أقول انه ليس مخيفاً . ليس على ذلك القدر من السوء الذي كنت أظنه . بل ان لدي من الاسباب ما يجعلني أضيق به ضيقاً شديداً . وهي أسباب معقدة حقاً . أعني أنني لا أكاد أفهمها بالرغم من أنها تعصف بي عصفاً من وقت لآخر . لقد أدركت الجانب الإيجابي من تجربة السجن بيسر أسعدني كثيراً منذ أن وطئت قدماي أرض الشارع في تلك الليلة التي حدثتك عنها . كما سعدت بمعرفتي نفسي أكثر مما كنت أعرف . وفي المقابل أعاني ما يعاني الانسان يفترق عن اعزائه وأصدقائه. كل هذا مفهوم . ولكن تأمل معي الانفعالات المعقدة التي لا أفهمها .

انني لا أعرف حتى الآن لماذا سجنت . الحكم الذي صدر لم يزد الامر إلا غموضاً . ولكن هذا ليس مهماً . فهو على أي حال سبب سياسي . وما دمنا قد اخترنا السياسة طريقاً فإن السجون محطات على مراحلها . أنا ، إذن ، ما أزال أباشر نشاطي في إحدى مراحله . ولكن ما هي تفريعات هذه الفكرة المريحة نفسياً وكيف تولد من هذه الفكرة البديهية البسيطة أفكار أخرى غير مفهومة ومعقدة ؟

لقد بذلت أخصب سنوات عمري داعية للوحدة العربية . سبعة عشر عاماً أنام وأستيقظ وآكل وأشرب وأعمل وأقرأ وأكتب وأتحدث وأصادق وأخاصم من أجل الوحدة العربية ، بدون أن أتوقع جزاء . بل أعترف بأنني كنت أحصل على جزائي أولاً بأول نشوة الرضى عن النفس وسعادة الذي يسعى على طريق عقيدته . ومع ذلك فقد قضيت سبعة عشر عاماً وحدوياً « صوفياً » يقنع بالخيش ويزهد في الدنيا ويدعو للجنة . ومن الذين كانوا يراسلونني أو يقابلونني ويتبنون أفكاري أستطيع أن أعد آلافاً من الشباب العربي . وكان ذلك جزاء مضافاً . ومع ذلك فانني لست أنكر إدراكي عمق الأثر الذي أحدثته كتبي في عقول الجيل الجديد من أبناء الأمة العربية . واني لأقرأ في السجن ما يدور الآن من حوار حول الوحدة بين مصر العربية وليبيا العربية فلا أستطيع أن أتواضع . والواقع انه لا محل للتواضع في الزنزانة . انهم ينفذون أفكاراً أنا صاحبها . من سمعها مني عرفها بالتفصيل ومن لم يسمعها يكون شريكاً لي فيها وأبقى أنا صاحبها أو واحداً من أصحابها .

إسمع . أو على الأصح اقرأ .

طوال تلك المدة التي كرست فيها كل ما أملك من جهد ووقت لخدمة دعوة الوحدة لم أكف لحظة عن التنبيه إلى أن الوحدة العربية لا يمكن ، بل يستحيل ، أن تتم عن طريق الدول العربية . في كل كتاب الفته ، وفي كل مقال كتبته ، وفي كل محاضرة القيتها ، لم يفتني أن أثبت بكل الادلة الممكنة فكرياً أو واقعياً أن الدول العربية أدوات فاشلة في تحقيق الوحدة العربية. ولقد تعرض ما كتبته وما قلته لمخاطر الفهم السطحي من جانب الذين يخلطون بين الدولة كمؤسسة قانونية تلزم الناس فيها حدوداً لا يتجاوزونها وتمنحهم حقوقاً لا يتعدونها ، وبين آمال ونوايا حكامها . أولئك الذين يعتقدون أن الدولة خاضعة لإرادة قادتها يفعلون فيها أو بها ما يشاءون . ألم تر أننا لو اعتقدنا ، أو بشرنا ، أو دعونا الحكام إلى تجاوز سلطاتهم الدستورية ولو من أجل الوحدة

نكون قد تنازلنا عن الديمقراطية ودربنا الحكام على الاستبداد وفتحنا أبواب الوحدة ذاتها للمستبدين ؟ أنا رأيت هذا وأراه . وكانت فكرتي بسيطة وواضحة : ان الوحدة الغاء لدولتين إقليميتين على الاقل ولا يمكن لأية دولة أن تلغي ذاتها . الوحدة تجاوز في تجسيد السيادة وطن الدولة الأقليمية ولا يمكن لأية دولة أن تخول حكامها سلطة تجاوز حدود أرضها . الوحدة تجاوز في تجسيد الارادة شعب الدولة الاقليمية ولا يمكن لدولة أن تخول حكامها سلطة تجاوز شعبها . ان الوحدة العربية في جوهرها ثورة على دول التجزئة . ومن هنا دعوت دائماً الجماهير العربية المتحررة من القيود الدولية والدستورية إلى أن تتصدى لتحمل مسئوليتها القومية في تحقيق الوحدة .

ثم اني قلت وكررت ان كل دولة عربية هي دولة إقليمية من حيث قيامها على أساس من التجزئة وقبولها هذا الوجود بصرف النظر عن طموح قادتها . وقلت ان الدولة الأقليمية قد تمر بأزمة تاريخية تسمح لقادتها بأن يتحرروا من قيودها فيتجاوزوها إلى الوحدة ثورة عليها ذاتها . وذهبت في كتابي الاخير « نظرية الثورة العربية » الذي لم أره مطبوعاً بعد إلى أن دولة مصر ودولة ليبيا تمران بمثل هذه الأزمة التاريخية بحيث يمكن للقادة فيها تجاوز الدولتين إلى الوحدة . أما الأزمة فهي الفشل الواقعي لأي من الدولتين منفردة في أن تخرج الأمة العربية من مواقع الهزيمة التي تردت فيها سنة ١٩٦٧ مع التصميم — في الوقت ذاته — على الخروج منها . قادة يريدون النصر لدول لا تضع تحت تصرفهم إمكانيات النصر . هنا تتضح الظروف الموضوعية للثورة الوحدوية فيتخطى القادة — أو يمكن أن يتخطوا إذا أرادوا — دولهم ويحققوا الوحدة . وهو هو ما يعبرون عنه في لغة بسيطة بالقول أن الوحدة لازمة للنصر .

كيف يتحقق هذا عملياً ؟

بالالتحام خارج نطاق الدولة .

لقد كانت الفكرة تبدو لبعض الناس خيالية . ولقد اتهمت من أجلها بأني أحلم وأدعو دعوة مثالية . والآن قد حسم الامر ولم يصح في النهاية إلا الصحيح . وأقرأ في زنزانتي خبر إنتصار أفكاري . قيادة موحدة يختارها الرئيسان أنور السادات ومعمر القذافي لتجتمع يوم ٣ سبتمبر لتصوغ الوحدة عن طريق لجان تابعة لها خلال عام . لعلك تكون واحداً منهم . عندما يجتمع هؤلاء الأخوة العرب – اسميهم هكذا في صيغتهم تلك – هل يمكن لأي واحد منهم أن يقول انه عضو في القيادة الموحدة أو لجانها بناء على القانون رقم كذا في دولته . هل يمكن للرئيسين أنور السادات ومعمر القذافي أن يجدا في الدساتير والقوانين واللوائح المطبقة في الدولتين نصاً واحداً يخول أيهما سلطة إختيار أعضاء القيادة الموحدة التي ستلغي الدولتين لتقيم دولة واحدة . لا تخدعك الالفاظ . انهما ان اندمجتا في دولة فقد الغيتالحساب دولة . هل يمكن للسادة الذين اسهموا في صياغة إعلان بني غازي يوم ٧٢/٨/٢أن يجدوا سنداً لما قرروه في السلطات المخولة لهم ، كل في وظيفته في مصر أو في ليبيا . أبداً . ان مشروعية إعلان بني غازي ومشروعية تشكيل قيادة موحدة و مشروعية عضوية كل واحد فيها مستمدة مباشرة من شرعية وحدة الأمة العربية والثورة على تجزئتها . تلك التجزئة التي ليست « الدول العربية » إلا اسماء لها .

ان القوميين يملأون الارض العربية ، والحكومات تحاول أن تحقق إنتصارات قومية بالرغم من قيود الدولة التي تحكمها ليس غريباً على تاريخ الأمة العربية . بل ان بعض تاريخ الزعيم عبد الناصر لم يكن أكثر من صراع بين قائد قومي يريد أن يحرر أمته وبين التجزئة الاقليمية التي تعوق مقدرة القائد على التحرير بما تضعه على حركته من قيود دولية ودستورية . إذن ما الذي سيحدث في طرابلس يوم ٣ سبتمبر ؟ ... انه محاولة التحام خارج نطاق الدولة . انهم إن يكونوا جماعة منظمة تعمل في نطاق الالتزام بوحدة الامة العربية وخارج نطاق الالتزام بالولاء لأية دولة عربية على حدة ، سواء مصر أم ليبيا ، فهو أول تكوين قومي ظهر في تاريخ الدولتين وأول وقفة على الطريق

الصحيح إلى الوحدة . لأنهم حينئذ نواة التنظيم القومي ثم ... انها أفكار عصمت سيف الدولة في التطبيق وقبل أن يموت وحتى وهو مسجون . هذا لأنني لا أريد أن أقول إن المشروع ، والصيغة ، والطريقة ... هو ما قلته لمن سمعه في تاريخ سابق .

إذن — هكذا أفكر — ان الأمة العربية لن تتخلى عن واحد من أخلص أبنائها . إن القوى الوحدوية في الوطن العربي لن تتخلى عن أحد الذين شقوا لها الطريق على المستوى الفكري .

الكلام حتى هذه النقطة يبدو سلسا ومعقولا وبسيطا بحيث أكاد اتصور انني خارج غداً . فهل أفرح بهذا التصور ؟ .. لا . هنا يبدأ التعقيد النفسي وتزيد حدة الآلام وأشعر بالسجن شعوراً قوياً . يا خسارة يا سيف الدولة . لقد أصبحت شيئاً في زنزانة . وإنهزمت حتى أنك تتصور وتفرح بتصورك ، أن يأتي من يلتقطك من مكانك ويلقي بك خارج السجن . لقد تنازلت عن إرادتك وأصبحت تتطلع إلى إرادة الاخرين . أهكذا يفكر مؤلف « نظرية الثورة العربية » ؟ ...

لا يستطيع أحد أن يحس بمرارة هذا الشعور غير الانساني ، شعور الانسان بأنه أصبح شيئاً وأن يقبل أن يكون شيئاً الا الذين يحبون الانسان كما أحبه .

والسلام عليك أولاً وأخيراً .

عصمت سيف الدولة

سجن القناطر — زنزانة رقم ١٢

حاشية :

ان قيض لك أن تكون واحداً من صانعي الوحدة بين مصر وليبيا ، فليكن ربع جهدك من أجل الإجابة على السؤال : كيف تقوم الوحدة . ولتكن ثلاثة أرباع جهدك من أجل الإجابة على السؤال : كيف لا يقع الانفصال . ولا تقيموا بناء الوحدة على نوايا الاشخاص ولو كانوا صادقين وان لكم في تجربة ١٩٥٨— ١٩٦١ لعبرة .

ع .

(٢)

المسرح

مقال في النقد الفني

١ـ النقد الفني علم ذو قواعد ومقاييس محددة وان كان ، مثل كل شيء ، متطور . وليس من شروط النقد الفني أن يكون صاحبه فناناً . لو كان فناناً لكان أكثر إجادة في تطبيق قواعد علم النقد على العمل الفني الذي ينفذه . ولكنه يستطيع بإجادة علم النقد ذاته أن يعوض الموهبة الفنية المفتقدة فيصبح ناقداً جيداً . ولكن ما هي غاية النقد الفني ؟ .. ما هي مهمة الناقد ؟ . . إنها الكشف عن توفر أو عدم توفر كل أو بعض عناصر الخلق الفني طبقاً لقواعد ومقاييس علم النقد . يكتشف أولاً ماذا أراد الفنان أن يقول في عمله الفني . ودوره هنا مقصور على الاكتشاف . فليس من شأن الناقد أن يبتكر أو يفترض شيئاً لم يرد الفنان التعبير عنه . هذا الغاء للفنان وإحلال للناقد محله . ومحك التفوق في هذه الخطوة الاولى من خطوات النقد هي المقدرة على الموضوعية والتحرر من الاسقاط الذاتي . حيث تكون أفكار الفنان « موضوعاً » للاكتشاف وليس موضوعاً للحوار مع الناقد . ذلك لأنه عن طريق إكتشاف الموضوع كما هو يقدم الناقد إلى قرائه أول دليل على أمانته وجدارته بموقع الناقد ، الذي هو قريب من موقع القاضي .

إذا تمت هذه الخطوة بنجاح ، يكون على الناقد أن يرى ، طبقاً لمقاييس وقواعد علم النقد ، ما إذا كان صاحب العمل الفني قد استطاع ، أو لم يستطع

وإلى أي حد ، التعبير عن أفكاره تعبيراً فنياً . نقول تعبيراً فنياً ، وليس مجرد التعبير ، إذ أن ما يفرق الفن عن غيره من وسائل التعبير انه ذو خصائص فنية وجمالية معينة . وتمنح هذه الخطوة الثانية للناقد مجالاً رحباً لمناقشة المضامين منفردة ، والمضامين مجتمعة ، والصيغة ، وتركيب البناء الفني ، وحتى حرية تقييم وملاءمة أو عدم ملاءمة الالفاظ ، أو الالوان ، أو المواد ، المستعملة في العمل الفني. كل هذا لينتهي إلى إجابة محددة ، ليس له الحق — كناقد — أن يتجاوزها : هل استطاع صاحب العمل الفني أن يعبر تعبيراً فنياً عن أفكاره وإلى أي مدى ؟

هنا تتوقف مهمة الناقد ...

٢ — غير ان قلة قليلة من النقاد من يلتزم هذه الحدود . مرجع هذا إلى أسباب ثلاثة :

السبب الأول : ان النقد الفني وان كان علماً ذا قواعد وأصول وأسس ، الا أنه متعدد المدارس ، مثل أغلب العلوم . ومن هنا يختلف نقد العمل الفني من ناقد إلى آخر تبعاً للمدرسة النقدية التي ينتمي اليها . صحيح أن ثمة قواعد مشتركة في كل مدارس النقد الفني ، ولكن ثمة أيضاً قواعد تأخذ بها بعض المدارس ولا تأخذ بها مدارس أخرى . أغلب أسباب الخلاف تتصل بقواعد ومقاييس تقييم المضمون . من المدارس النقدية ما يرى ترك المضمون لاختيار الفنان على مسئوليته وعدم مغادرة المقاييس الفنيـــة إلى مقاييس فكرية أو سياسية أو إجتماعية. ومن المدارس النقدية ما يرى ان تقييم ملاءمة المضمون فكرياً أو سياسياً أو إجتماعياً يدخل في صميم تقييم العمل الفني . ثم تأتي بعض أسباب الخلاف من التطور النامي لعلم النقد ذاته ،بعض المدارس ما تزال تتمسك بمقاييس النقد الكلاسيكية بينما تبتكر بعض المدارس الاخرى مقاييس جديدة ، متطورة ، أو تتبناها . المهم أن مقاييس النقد الفني ، وإن كانت كلها علمية ، غير متفق على بعضها ، ومن هنا يختلف النقاد في نقد وتقييم

العمل الفني الواحد .

السبب الثاني : ان الناقد إنسان ذو هموم . إنه لا ينقد من فراغ . وليس مقطوع الصلة بظروفه الاجتماعية وبالتالي فإن لكل ناقد موقف مسبقاً من مضمون العمل الفني أياً كان مضمونه . وإذا كان محك الاجادة في النقد — كما قلنا — هو إكتشاف أفكار الفنان كموضوع وليس الحوار معها حواراً ثنائياً من خلال النقد ، فإن هذا يتجاوز مقدرة كثير من النقاد . فترى الناقد « الجيد » يخلط رؤيته الخاصة برؤية المؤلف ، ويأخذ من النقد وسيلة إلى تأويل العمل الفني على الوجه الذي يقترب فيه من رؤيته الخاصة . ولأنه ناقد جيد فإن فرز ما عبر به عن نفسه مما قاله نقداً للعمل الفني لا يكون مثار صعوبة كبيرة . انه إختلاط وليس إندماجاً . لا وليس الغاء وإستبدالا . انه ضعف في التعبير وليس ضعفاً في المقدرة النقدية . ويسهل عادة معرفة ما يخص المؤلف وما يخص الناقد في عملية النقد المختلطة . ولكنه عندما يكون ناقداً غير جيد يكون همه الاول الا تغيب ذاته عن النقد الذي يطرحه . فيسقط أفكاره على أفكار من يتصدى لنقد أعمالهم ، ويخلط نواياه بنواياهم . انه يبدأ عادة بأن يسر إلى نفسه : لو كنت أنا صاحب العمل الفني لكنت عنيت به كذا . فيلغي صاحب العمل الذي ينقده ويحل نفسه محله . وعلى ضوء ما يعنيه هو يقيس مقدرة المؤلف الغائب عن التعبير عن نواياه نوايا الناقد . ويكون من المتوقع حينئذ أن تختلف آراء النقاد « غير الجيدين » إختلافاً بينا في تقييمهم العمل الفني الواحد .

السبب الثالث : ان كثيراً من المتصدين للنقد من الهواة . أولئك لا يملكون المعرفة العلمية بالنقد وقواعده ولا بالفن وأصوله . ومع ذلك يتصدون للنقد منطلقين من الانطباع الاول السطحي لقراءتهم العابرة . مقياسهم في التقييم أن الشكل الظاهر للعمل الفني قد أرضاهم أو لم يرضهم . انهم يترجمون العمل الفني ترجمة فورية مباشرة إلى فعل أو رد فعل . ولما كان من خصائص العمل الفني انه ليس وسيلة تعبير مباشر ، فإن مواقف الهواة تكون — عادة — أبعد

المواقف عن النقد العلمي ، لأن فهمهم للعمل الفني يكون أبعد المفاهيم عما خطر ببال صاحبه .. لهذا تراهم يختلفون من فرد إلى فرد ومن وقت إلى وقت ثم ينسون الامر كله إلى أن يتذكروه في مناسبة إتفاق أو في مناسبة إختلاف .

ومع أن حصيلة هذه الاسباب الثلاثة سيكون على حساب مبدع العمل الفني الا أن المبدعين لا يصححون عادة آراء الناقدين ا لجيدين وغير ا لجيدين والهواة .. وهو خبث غير مقصود . إن إختلاف الناقدين في العمل الفني الواحد وكثرة « لغط » الهواة حوله ، يضفي عليه أهمية كل شيء غامض يحار الناس في تحديد ماهيته فيختلفون فيه . انه يثير الفضول ويجذب انتباه اعداد نامية من الناس إلى العمل الفني . فيسترد الفنان بذلك حضورا في أذهان الناس يعوض غيبته في أذهان النقاد .

٣ــ ولقد أعرف من قواعد النقد الفني ومقاييسه ان العمل الفني « معادل موضوعي » لفكرة (أو مجموعة من الافكار) يريد الفنان أن يثيرها في أذهان القراء أو المشاهدين هو « معادل » للفكرة بمعنى أنه ليس تعبيراً مباشراً ، عن ذات الفكرة . ولكن من شأنه ــ عندما يكون متقناً ــ أن يثير في أذهان القارىء أو المشاهدين تلك الفكرة التي قصد الفنان أن يثيرها في ذهنه. يثيرها في ذهنه بمعنى أن يجذب إنتباهه اليها لا أن يعرضها عليه كما هي . لهذا فإن أول سلب لقيمة العمل الفني هو الطرح المباشر للفكرة أو الافكار المحركة للعمل الفني . وأول سلب لقيمة النقد الفني هو التقاط الفكرة من أداة التعبير الفني التقاطاً مباشراً ، كما لوكان العمل الفني المجرد خطاباً ولو كان رؤيا . أما انه معادل « موضوعي» فلأنه لا يثير فكرته بواحد أو أكثر من عناصر العمل الفني ، تكون باقي العناصر على هامشه لمجرد إعطاء شكل فني زائف لتعبير خطابي . الفنان يطرح موضوعاً . قصة ــ مسرحية ــ قطعة شعر ــ لوحة ــ تمثال ...الخ وفي كل هذه عناصر عدة من الالفاظ والاشخاص والالحان والالوان والمواد . تتكامل كلها في العمـــل الفني ليصبح موضوعاً قائماً

بذاته . بمعنى أنه لا يكون في حاجة – ليكون موضوعاً متكاملاً – إلى شيء من خارجه حتى يؤدي وظيفته . لا يكون محتاجاً أولاً إلى صاحب العمل الفني نفسه ليكمل للقارىء أو للمشاهد ما وراء أو ما حول أو ما أمام العمل الفني حتى يصبح تعبيره مفهوماً أو قابلاً للفهم. ولا يكون محتاجاً ثانياً إلى تكملة منتظرة أو عنصر إضافي من خارجه . لهذا فإن ثاني سلب لقيمة العمل الفني هو إحتياجه إلى إضافة . وثاني سلب للنقد الفني هو الالتجاء إلى الاضافة .

وعندما يكون العمل الفني معادلاً موضوعياً متكاملاً تبدأ المهمة الصعبة للناقد . فها هو أمام أحداث مصاغة وأشخاص مخلوقين أو ألوان موزعة وممتزجة أو الحان متتابعة ومواد مشكلة تشكيلاً جميلاً .. انه أمام موضوع . وهذا الموضوع يعبر عن مضامين معينة بالالفاظ أو بالالوان أو بالالحان . وهي مضامين لا يخطىء الناقد – وحتى الانسان العادي – في تلقيها من العمل الفني بحيث يستطيع بسهولة أن يعرف ما يقال « في العمل » الفني . ولكن لأن العمل الفني معادل وليس تسجيلاً لوقائع فإن ما يعرفه الناقد ، أو أي إنسان ، مما يقال « في العمل » الفني ليس هو – على سبيل القطع – ما يريد المؤلف أن يقول « بالعمل الفني » . بينهما صلة . نعم . صلة وثيقة . ولكنهما غير متطابقين . وقد تكون الصلة الوثيقة بينهما خافية بحيث تحتاج إلى جهد جهيد لاكتشاف ما يريد المؤلف أن يقوله « بالعمل الفني » من خلال ما يقوله « في العمل الفني». لهذا يحتاج كل ناقد إلى قدر غير قليل من الحساسية الفنية والتدريب ليكون ناقداً جيداً ..

٤ – ليس هذا كل شيء بالاضافة اليه لا بد من الاتقان. إتقان البناء الفني. وللبناء الفني قواعد بناء أكثر تعقيداً – بمراحل – من بناء العقارات . معرفة هذه القواعد في نشأتها وتطورها معرفة لازمة لكل من الفنان والناقد . الفنان يشيد بناءه الفني طبقاً لها . والناقد يعود فيقيس البناء بمقاييسها . ان هذا يعني ان الفن

ليس عملية فرز تلقائي أو تعبير صوفي في مرحلة غيبوبة كاملة أو ناقصة . بل هو صنعة . وصنعة دقيقة . تبدأ المهارة فيها من إختيار المادة الخام كماً ونوعاً . سواء كانت المادة الخام قطعة من القماش أو مجموعة من الالوان أو كانت مجرد فكرة فجة أو دارجة أو كانت لحناً سوقياً يتداول في الازقة والشوارع أو كان قطعة من الخشب أو الطين . التشكيل النهائي للعمل الفني سيتأثر حتماً بمادته الخام. وفي عالم الرسم يكاد يكون لكل فنان تركيبة خاصة — سرية — من الالوان والزيوت والاقمشة . وقلما يبوح فنان بفكرته التي يريد أن يحولها إلى قصة أو مسرحية . ذلك لأن في إختيار المادة الخام منذ البداية تتجسد مهارة الفنان التي تميزه عن غيره فيما يخلق من فن . ثم يأتي التشكيل أو الصيغة ، وهذه هي الميدان الاصيل لمقدرة البناء الفني . وقد يتصور بعض القراء أو المشاهدين أن العمل الفني المعروض عليهم قد تم خلقه بروح ملهمة مرة واحدة . بالعكس عشرات المشروعات التي يمر بها العمل الفني قبل أن تعرض على الناس . مرات ومرات ، وفي كثير من الاوقات سنوات وسنوات ، والفنان عاكف على عمله الفني يخلقه ويعيد خلقه ويضيف اليه ويأخذ منه ، وفي كل مرة يختبره على محك أصول البناء الفني من ناحية وعلى حاسته الفنية من ناحية أخرى ، إلى أن يستقر أخيراً على الوجه الذي يرضيه ، فيخرجه للناس . عندما نرى مثلاً في إحدى المسرحيات أن حواراً قد طال فليس مرد هذا إلى عجز المؤلف عن الاختصار أو أن حواراً قد قصر فليس مرده إلى عجزه عن الاطالة وعندما نرى إيقاع الاحداث بطيئاً فلا ينبغي أن نظن أن أنفاس المؤلف قد تقطعت . وعندما نراه سريعاً لا ينبغي أن نحسب أنه يجري ويلهث .. كل هذا متعمد . ولأنه متعمد فإن صاحب العمل الفني مسئول عنه . وليس للناقد أن يلوم المؤلف على أنه أطال أو اختصر أو تلكأ أو أسرع . عليه — أي الناقد — أن يكتشف علاقة هذا التنوع في تضاريس البناء الفني بما يريد المؤلف أن يقول . قد تكون الاطالة مقصودة مثلاً لتركيز الانتباه على نقطة معينة وقد تكون لإثارة الضجر من ذات النقطة . وقد يكون البطء لإثارة الملل تمهيداً لوثبة قادمة وقد يكون

لافساح الموقف للتأمل في عرض بطيء لوثبة هي في أصلها قادرة على الإسراع .

المهم أن كون العمل الفني معادلاً موضوعياً لفكرة أو مجموعة من الافكار يريد المؤلف إثارتها في أذهان القراء أو المشاهدين . لا يعني أنه معادل أنه غير محكم بقواعد موضوعية لا بد للفنان من أن يكون متمكناً منها أولاً ،ولا بد له — ثانياً — من التزامها في بناء العمل الفني .

٥— ثم يبقى من عناصر العمل الفني الفنان نفسه . يمكن القول بشكل عام ان العمل الفني هو ما ينتجه الفنان . نعني الانسان ، وأي إنسان ، من حيث هو فنان . ذلك لأن كل ما سبق من عناصر العمل الفني يمكن إكتسابه بالمعرفة العلمية والمران . حتى اتقان البناء الفني يمكن إكتسابه كما يفعل كثيرون من اساتذة الأدب والفن القادرين دائماً على ان « ينششوا » — ولا اقول يخلقوا — عملاً فنياً مطابقاً لأصول الصنعة الفنية كما تعلموها في دراستهم وتدريسهم للادب والفن وقواعده . ولكن مثل هذا العمل لا يكون فنا . قد نعجز عن اكتشاف العيب في بنائه ، وقد لا يكون في بنائه عيب ، ولكنه يبقى دائماً فاقد الروح . انه تمثال يكاد ينطق إجتمعت له كل الخصائص والتفاصيل التي يعرفها علم التشريح ، ولكنه بارد . ميت . نراه مرة فيثير إعجابنا بمهارة المثّال ولكنا لا نفتقده إذا فقدناه ، لانه لم يثر فينا أية فكرة . انه قصص (أجاتا كريستي) المثيرة . انه المطولات القصصية التي يسودها وينشرهـــا كثير من «الادباء» في الوطن العربي . الاحداث ساخنة ومثيرة . ومع ذلك لا يقرأها إلا المراهقون والذين يعانون من مرض الملل .. ذلك لأنها قصص ميتة فنياً . تعرف بعد قراءتها تفاصيل حوادثها أو تستطيع أن تعيد سردها على من لديه وقت يستمع ، وتنجح في أن تتحول إلى فيلم سينمائي مسطح ، ولكنك في كل هذه المراحل لا تشعر لا بالجمال ولا بالقلق الذهني الذي أثاره فيك إلى أن تكتشفه فتستقر وتسعد . لماذا تسعد لأن تجاوز القلق راحة نفسية وذهنية دائماً .

ما هو مصدر هذه المقدرة على الخلق الفني ؟ .. انها في الأصل موهبة . أعني لا بد من أن تكون في الأصل موهبة . أقول في الأصل لأن المواهب

إستعداد يكتمل بالعلم . فإذا لم تصادف المواهب الفنية الظروف الاجتماعية التي تمكن صاحبها من أن ينميها ويغذيها بالمعرفة تضمر وقد تموت . ولكن ما كنه هذه الموهبة ؟ .. بماذا يتميز الفنان عن غيره حتى نقول انه موهوب ؟ إن بعض الفنانين أغبياء وبعضهم مجانين وبعضهم محدود الثقافة ، وبعضهم منحلون خلقياً ، وبعضهم بخلاء أو كذابون أو حتى قذرون . فعلى أي وجه يكون أحدهم موهوباً فيصبح بالعلم والممارسة فناناً ؟ .. ثم ان كل فنان تقريباً لا يتقن إلا لوناً واحداً من ألوان الفنون . فهل هي موهبة نوعية أو هي موهبة إنسانية ؟

الاثنان .

هي أولا موهبة إنسانية لا بد من أن تتوفر في كل فنان . وهي تتوفر فيه جنينية قبل أن يدركها هو أو يدركها غيره . غير ان هذا لا يعني أنها ما يقال له « غريزية » كل ما في الامر أنها كموهبة الذكاء . نعرف أنها نتاج عديد من العوامل البيئية والوراثية والفسيولوجية اجتمعت في إنسان بعينه . وإن كنا لا نعرف إلى أي عامل على وجه التحديد نستطيع أن نردها . الموهبة الفنية مثل هذا تماماً . انها لا تأتي من العدم ولكنا لا نعلم حتى الآن كيف يختص بها إنسان دون غيره . ولعل مرد هذا إلى قصور معرفتنا الحالية بكل العوامل التي تصوغ الانسان كما نعرفه . ولكن غداً أو بعد غد سيقدم لنا العلم كل الإجابات الصحيحة عن كل الاسئلة التي ما تزال بدون إجابة .

إذا كنا لا نستطيع حتى الآن أن نعرف لماذا يختص إنسان معين دون غيره بالموهبة الفنية ، فإننا نستطيع أن نجتهد في بيان خصائص هذه الموهبة .

إن الفنان ، ككل إنسان ، لا يستطيع أن يفلت من القوانين الموضوعية . التي تحكم الوجود معه . فهو يؤثر ويتأثر .. وهو يتغير .. وهو يتحرك .. مثله كمثل كل شيء . ثم أنه يختص ، دون جميع الموجودات ، بقانونه الذي يضبط حركته . إنه كائن جدلي . وهو الجدلي الوحيد وحتى لا نغادر حدود هذا

المقال إلى معمعات الفلسفة نقول ان كل إنسان لا يستطيع إلا أن يدرك الماضي والواقع ويتصور المستقبل . ولما كان الواقع مادياً غير قابل للالغاء والتصور فكرياً غير محدود بقيود ، فإنهما معاً يتناقضان في الانسان نفسه وتصبح مشكلته، مشكلة أي إنسان ، أن يحل هذا التناقض لينهي الصراع بين الضدين في ذاته . وهو يحله بالعمل الذهني أو اليدوي الذي يأخذ من الماضي ومن المستقبل ما هو قابل للتحقيق فينجزه . غير أن ما ينجزه حلاً لمشكلة ما يلبث عند تحققه أن يكون جزءاً من الماضي الواقع فينشأ تناقض جديد ومشكلة جديدة في الانسان نفسه يحلها بعمل جديد .. وهكذا .. لا يستطيع إنسان أن يفلت من هذا القانون الذي يضبط حركته تماماً فأين الفنان وموهبته الفنية ؟ ..

انها المقدرة الفائقة على تقبل أحداث الماضي الواقع . تفوق الحساسية . يسمونها الحاسة الفنية فرط الحساسية بالمشكلات التي تطرحها الحياة الواقعية . فبينما يكون الانسان « العادي » مستغرقاً في ذلك الجزء الذي يعنيه من مشكلات الحياة ، تكون الموهبة الفنية قادرة على استقبال والتقاط ملايين من المشكلات الاجتماعية . وبينما تطغى المشكلات الكبيرة — بأي معنى — على المشكلات الصغيرة عند الانسان العادي فتمر تحت أنفه ملايين المشكلات الانسانية وهو مستغرق فيما يعتقد أنه جديد وحده بالانتباه تكون الموهبة الفنية قادرة على إستقبال والتقاط تلك المشكلات التي لا تثير إنتباه أحد لفرط تفاهتها . باختصار ، الموهبة الفنية هي لوح حساس تنعكس عليه الحياة جملة وتفصيلاً ويأخذ كل حدث فيها مكانه من الصورة الكاملة للواقع المعاش .

ثم تأتي المقدرة الفائقة على التصور أو يسمونه « الخيال » . كل فنان لا يكون فناناً إلا بقدر تفوقه في المقدرة على إعادة تشكيل عناصر الواقع في صور ذهنية قد تبدو للانسان العادي مفرطة الغرابة . لا مفرطة الغرابة في مضمونها فقط بل في مداها الذي قد يشغل الانسانية كلها مكاناً ، ويتجاوزها زماناً ..من ذات العناصر التي يعرفها ، أو يمكن أن يعرفها كل إنسان ، يستطيع الفنان

وحده أن يركب ويعيد تركيب عوالم لانهائية في محاولة دائمة لتصور الكمال الانساني .

الحساسية الفائقة في إدراك الواقع ، والمقدرة الفائقة على تصور المستقبل ، يؤديان إلى شعور الفنان شعوراً فائقاً بالمتناقض بينهما ، بالتالي إحساساً فائقاً بالمشكلات التي يولدها هذا التناقض . ان هذا هو سر العذاب اللذيذ والقلق المضني الذي يسبق عادة الخلق الفني . حيث يعيش الفنان مشكلة قد يراها البعض صغيرة أو تافهة أو لا تستحق كل هذا القلق أو لا تستأهل الحل ، ولكن الفنان الأرهف حساً والارحب تصوراً يعيشها مشكلة حادة ولا بد لها من أن تحل .

كيف تحل ؟ .. بالعمل مثل كل المشكلات . ولكنه هنا ليس الحل المباشر النمطي . انه الحل الفني . ان يقدم الفنان معادلاً موضوعياً للمشكلة وحلها ، غايته أن يثير في أذهان القراء والمشاهدين ويشد إنتباههم إلى المشكلة الاصل والحل الأصل . وهو يؤدي هذا على أفضل ما يكون إذا إستطاع أن ينقل إحساسه بالمشكلة وتصوره لحلها إلى القراء أو المشاهدين ، بدون أن يقول لهم ما هي المشكلة وما هو الحل، وبالتالي ينقل اليهم عذابه اللذيذ وقلقه اللذين سبقا العمل الفني . أما الباقي ، أي مدى إستعداد القارىء أو المشاهد لتقبل كل هذا فيختلف من شخص إلى شخص ولا يسأل عنه الفنان. ولكنه يسأل تماماً عن أداة نقل إحساسه وقلقه . ذلك لأن كل ما تحدثنا عنه من قواعد ومقاييس البناء الفني وأصول الصنعة الفنية ، ليس إلا تلك العناصر اللازمة علمياً ليكون العمل الفني موصلاً جيداً بين الفنان وبين قارئيه أو مشاهديه . ونعني بأنها لازمة علمياً . انها خلاصات الدراسات المقارنة في التراث الفني الانساني . إنها قابلة للتطوير ولكنها الى ان تتطور غير قابلة للاهدار بحجة ان للفنان وسائله الخاصة في نقل احساسه بالمشكلات الى الآخرين .

وأما العنصر الثاني الذي يكاد يجعل من الفن تخصصاً نوعياً فليس مرده إلى الموهبة الفنية ، فهي موجودة لدى كل فنان ، ولكن مرده إلى «إتقان »

الصنعة . ولا يكاد أي إنسان يتقن إلا صنعة واحدة كذلك كل فنان لا يكاد يتقن التعبير عن موهبته إلا بصناعة معينة واحدة ولهذا التخصص أسباب إجتماعية وبيئية غالبة .

٦ ـ من أين يأتي المؤلف الفنان بأفكاره ؟ ..

الإجابة تختلف تبعاً لما إذا كنا نعني الافكار التي يريد أن يثيرها « بالعمل الفني » أو الافكار التي يصوغها « في العمل الفني » .

أما الافكار التي يريد أن يثيرها ، والتي يقال لها « محرك » العمل الفني فلا يمكن أن يكون لها مصدر غير الواقع الاجتماعي في حركته الجدلية التي لا تتوقف أبداً . إذ لما كان الفنان (الانسان) هو أداة الجدل ، يلتقط الافكار من الواقع في خلق جديد ، فإن الواقع بالنسبة اليه ينطوي دائماً على عناصر ثلاثة هي ذات عناصر الحركة الجدلية . مشكلة . حل . عمل . فهو إما أنه يريد أن يثير فكرة مشكلة ، أو أن يثير فكرة حلاً ، أو أن يثير فكرة عملاً أو أن يثير كل هذا معاً في عمل فني يقال له حينئذ عمل فني كامل . ولا يمكن لأي فنان أن يستهدف ، وينجح في إثارة فكرة تخرج عن هذا الاطار المثلث إلا في حالة واحدة هي إثارة فكرة تتصل بالعلاقة الحركية الجدلية من هذه العناصر . أي أن يثير « فكرة ـ منهج » . وبذلك تتكامل الابعاد الاربعة للواقع الاجتماعي الذي لا يستطيع أي فنان أن يتجاهله ولا أن يثير أفكاراً الا فيه كما هو سواء أعجبه أم لم يعجبه .

إن هذا يعني ان الفكرة المحركة للعمل الفني لا بد أن تكون فكرة إجتماعية وواقعية . فالواقع الاجتماعي حاضر أبداً مع المؤلف الفنان . لا نقول حاضراً فيه أي في ذهنه ، بل نقول حاضراً معه لأنه مصدر أفكاره التي يريد أن يثيرها « بالعمل الفني » ، بصرف النظر عن الافكار التي يستخدمها « في العمل »الفني ـ كما سنرى ـ هي الظروف الاجتماعية التي يعيش الفنان فيها.

إن إغتراب الفنان عن مجتمعه المعاش مستحيل مثل إستحالة إغتراب أي

إنسان آخر عن مجتمعه . إغترابه عن وعيه ممكن ولكن إغترابه هو نفسه مستحيل. ذلك لأنه سواء كان الانسان فناناً أو غير فنان فان علاقته بمجتمعه ليست متوقفة على إرادته المنفردة . وعى أو لم يع ، أراد أم لم يرد ، هو جزء من مجتمعه مؤثر فيه متأثر به متغير متحرك معه ، دائماً ، طبقاً لقوانين موضوعية تضبط حركته وحركة مجتمعه حتماً . لافكاك له من هذا . حتى النزوع إلى الاغتراب أو تعمده ليس في الواقع إلا رد فعل لواقع إجتماعي معين . مرفوض عادة . ولكنه من حيث هو رد فعل لا يفعل شيئاً أقل من تأكيد الفعل الذي كان رداً عليه . أي تأكيد العلاقة العضوية بين الفنان (الانسان) وبين مجتمعه . ومن قمة « الابراج العاجية » التي يحاول بعض الفنانين أن يوهموا أنفسهم بالعزلة فيها ، والاستعلاء أيضاً ، يستطيع كل فنان – لو أطل برأسه – أن يرى أرضه كما هي سواء أعجبته أو لم تعجبه . ولن يرى إلا أرضه كما هي . وحتى لو تقوقع داخل برجه ورفض أن يطل على أرضه ، فانه لا يفعل بهذا أقل من التعبير عن أكثر المشكلات حدة في أرضه : ان الحياة عليها أو حتى رؤيتها لم تعد تطاق . ثم تبقى مسألة الحل في الهروب ومدى جدواه وهذه مسألة أخرى . ولو ذهب الفنان إلى حد إنكار أرضه ذاتها فان تتبع قوائم برجه العاجي نزولاً من مكمنه لا بد أن ينتهي إلى قوائمه المغروسة في الارض ذاتها ، حيث تشكل صلابة الارض ، واتجاه الريح الامكانيات المعينة موضوعياً لبقاء البرج قائماً ولبقاء الفنان مختفياً . هذا بدون حاجة إلى ترجمة تلك الصورة إلى واقعها الحي ، حيث الفنان يأكل ويشرب ويلبس وينام ويستيقظ ويقرأ ويكتب وينشر .. باختصار يعيش بأدوات ليست من صنعه انها من صنع المجهولين الذين يسمونهم المجتمع . وعلى قدر اتقانهم صناعاتهم يستطيع هو أن يتقن صناعته .. فلا مفر .

لا مهرب إذن من الوحدة بين الفن والحياة . ويترتب على هذا ثلاثة مواقف مهمة لسلامة النقد الفني .

الاول : انه لا عبرة ولا اعتداد بما قد يعلنه الفنان من أنه كفنان فوق المجتمع ومشكلاته وان الفن يجب أن يكون للفن وحده ولا شأن له بما يجري

في الحياة . هذه ألفاظ « دعائية » غير ذات مضمون . وكثير من الادباء المرضى « بالنرجسية » خاصة ، أو بالشيخوخة يحتالون على شد إنتباه الناس إلى ذواتهم بحيل صبيانية ، بما يشيعونه عن أنفسهم – بأجر في أغلب الاوقات – من مواقف تجريدية أو « سريالية » أو بما يقولونه عن أنفسهم ولكن في شكل دفاع عن « سمو » الفنان وإستعلائه وإنفلاته من المجتمع الذي هو جزء منه . وليس أقل من هذا فراغاً من المضمون، وصبيانية دعائية،ما يزعمه بعض الفنانين من الحيدة – بأسم الفن – من مشكلات المجتمع وحركته الجارفة التي تحملهم معها شاءوا أم أبوا . فهم أما على رأس موجة أو على قاع انحسر عنه الموج . كل هذا وهم يرددون به انهم على الحياد ولا شأن لهم بما يجري من حولهم . ومن ألوان الحيدة الزائفة « التعادلية » وهي ضرب من التلفيق المثالي بين المتناقضات الموضوعية يزعم بها الفنان ، أن هناك فوق فوق فوق المجتمع قد أقام من نفسه حكماً محايداً ينصح الناس بأن يهتدوا إلى حل وسط بينما الحلول الوسطية مستحيلة .

نقول انه لا عبرة ولا إعتداد بكل هذا عندما يصدر عن فنان . لانه عندما يصدر عنه لا يكون في حالة صدوره فناناً . وما ينتجه من أفكار للاحتيال الدعائي أو الاوهام الحيادية الجبانة ليس فناً . إنها آراء يطرحها كما يطرح كل الناس آراءهم . وهي آراء فارغة ترضي صاحبها ولكنها غير جديرة لا بالانتساب إلى الفن ولا بانتباه النقاد .

وعندما يحاول الناقد أن يفتش في العمل الفني عن موقف «غير إجتماعي» أو حتى حيادي تحت تأثير ما يعلنه عن نفسه صاحب العمل الفني يكون قد وقع في شباك خداع المؤلف . على الناقد أن يحاول دائماً إكتشاف الافكار أو الفكرة التي يريد الفنان أن يثيرها « بالعمل » الفني في أذهان القراء أو المشاهدين وسيجدها حتماً . وسيعرف منها – بالرغم من كل إعداءات المؤلفين – ان لكل منهم مواقف لا تجريدية ولا حيادية ولا تعادلية،وانهم غارقون حتى آذانهم

في أمواج الحياة التي تحملهم إلى حيث تريد إذا أبوا أن يسبحوا فيها إلى حيث يريدون .

الثاني : أنه ما دام وراء كل عمل فني فكرة أو أفكار أو مواقف إجتماعية فإنه من العسف غير اللازم الزام الفنان التعبير « بالعمل » الفني عن فكرة أو أفكار أو مواقف إجتماعية معينة . انه العصف غير اللازم الذي ساد في مرحلة الستالينية تحت شعار « الواقعية الاشتراكية » ويعنون بها ان احد مقاييس الفن أن تكون الافكار المحركة لنشاطه الفني أفكاراً واقعية ، بمعنى أن تكون مستمدة من واقع المجتمع الذي يعيش فيه . وهى مقولة فارغة . ذلك لأننا إذا كنا نقصد بالافكار تلك التي يريد الفنان أن يثيرها « بالعمل الفني » ، تلك التي أقلقته وأوحت اليه بالخلق الفني ، فانها أفكار واقعية إجتماعية دائماً . أما إذا كنا نقصد بالافكار تلك التي يصوغها الفنان « في العمل » الفني كمعادل للافكار الاولى ومثير لها ، فسنرى انه لا يشترط فيها أن تكون واقعية لا في الزمان ولا في المكان ، بل قد تكون تشكيلاً خيالياً غير قابل للوجود أصلاً .. وعندما نلزم الفنان أو نشترط عليه – ليكون فناناً – أن تكون أدوات تعبيره مستمدة من الواقع أو مطابقة لها ، فأننا لا نفعل شيئاً أكثر من تحويله إلى رجل شرطة يكتب محاضر دقيقة ووافية بالاحداث المكلف برصدها . يكفينا أن الواقع الموضوعي يلزم بقوانينه الحديدية كل فنان أن يستمد أفكاره المحركة لنشاطه الفني من مجتمعه . أما كيف يحاول أداء وبناء العمل الفني المعادل لتلك الافكار فهذا شأن الملكة الفنية فيه . وأيا كانت الصيغ التي يضع فيها خلقه الفني فإن الناقد الجيد يستطيع أن يكتشف أن مأساة ماكبث لم تكن مجرد إستجابة لتنبؤات الساحرات الثلاث .

ثم انه ليس عسفاً غير لازم فقط ، بل هو خطير ومدمر . مدمر للفنان وللفن . ذلك ان الذين يلزمون الفنان أدوات بنائه الفني من أفكار وأحداث ليسوا من الفنانين . انهم عادة من الساسة أو النقاد والساسة . ويكون دور الفنان في

هذه الحالة التعبير عما يريدون بالطريقة التي يريدونها . ولما كانوا غير فنانين ، وكان موقف الفنان مجرد صانع ، فإن الناتج الفني سيكون نصيبه من الفن بقدر نصيب الذين فرضوه مضافاً اليه قدر من صنعة الفنان لا تمس الشكل إلا قليلاً ولا تمس المضمون بأي حال . وهو الغاء كامل لدور الفنان في الفن . وقد قلنا ان الفن يمكن أن يسمى إنتاج الفنان .

بقيت الصفة « الاشتراكية » المضافة إلى الواقعية . وما دامت الواقعية هنا كلمة فارغة فإن الاشتراكية تكون مضافاً إلى الفراغ وما يضاف إلى الفراغ يسقط . لقد كان المقصود بالواقعية الاشتراكية الزام الفنان موقفاً تقدمياً يسهم فيه العمل الفني بالدفاع عن قضية الاشتراكية وأصحاب المصلحة فيها أو يروج لها ويفتح أمامها أفاق الوعي الجماهيري .

ولا شك في أن الفنانين لا يتفقون في مواقفهم من الاشتراكية والتقدم الاجتماعي . ويتخذ كل واحد منهم الموقف الذي يتفق مع وعيه ومصالحه الخاصة وصلتها بالمصالح الاجتماعية وتطورها المستمر . وعلى هذا الاساس يكون بعض الفنانين رجعيين كما يكون بعضهم تقدميين . غير ان هذا الاساس أساس عقلاني ذو مضمون إجتماعي . انه ليس أساساً فنياً . فهو من ناحية أساس يشترك في تحديد مواقف كل البشر سواء كانوا فنانين أم غير فنانين وبالتالي فهو ليس مقصوراً على الفنانين وحدهم حتى نقول ان على الفنانين . أن يكونوا تقدميين دائماً . ومن ناحية أخرى هو أساس لا علاقة مباشرة له بالفن . أن الملكة الفنية ، والمقدرة على الابداع الفني ، ليست بناء « فوقياً » تدور وجود وعدماً مع أساسه المادي . انها موهبة تتوفر في قلة من البشر لأسباب غير معروفة تماماً حتى الآن . مثلها — كما قلنا — مثل الذكاء . صحيح أن النظام الاشتراكي بما يتضمنه من تأمين ضد القلق على لقمة العيش والتأمين ضد مخاطر البطالة والشعور بالمساواة العادلة ، يتيح أفضل الفرص لتنمية المواهب الفنية ، بشرط أن يتطهر من فكرة « الواقعية الاشتراكية » التي ورثها عن عهد ستالين ولكن النظام الاشتراكي ، أو غير الاشتراكي ، لا يستطيع أن يخلق الموهبة

الفنية – أن يمنحها لمن لا يملكها – أو أن يسلبها ممن يملكها – وفي كل العصور منذ المشاعية الاولى إلى العبودية إلى الاقطاعية إلى الرأسمالية إلى الاشتراكية بالاضافة إلى النظم الاجتماعية الاسيوية التي لا تخضع لهذا التقسيم « الاوروبي » وجدت المواهب الفنية . وما تزال أجمل آيات الفن الاوروبي في النحت ميراثاً من العهد العبودي في اليونان . وأجمل آيات الفن الاوروبي في الرسم ميراثاً من العهد الاقطاعي ، وأجمل آيات الفن في الادب ميراثاً من العهد الرأسمالي ويكاد يكون فنانو الاتحاد السوفيتي حالياً متخصصين في اداء فن شكسبير .

من هنا يكون من السخف الزام الفنان موقفاً تقدمياً ليكون فناناً . أو سلبه صنعة الفنان لأنه ليس تقدمياً . وليس للنظام الاشتراكي علاقة بالفن إلا من حيث ان فيه تتألق إلى أقصى حد ممكن مواهب كل إنسان ، خاصة إذا كان فناناً ، بما يضعه النظام تحت تصرفه من إمكانيات الابداع والتفرغ له . وهذا يعني إتساع فرص تنمية المواهب الفنية وامتدادها لتغطي كل صاحب موهبة في ظل نظام يساوي في الفرص بين الجميع . وفي هذا يختلف النظام الاشتراكي عما سبقه من نظم ، حيث لم يتألق فنياً إلا أولئك الذين كانوا من حظهم أن احتضنهم ورعاهم السادة والامراء والملوك وحيث توفرت لهم الظروف التي يطمح النظام الاشتراكي إلى توفيرها للجميع في أحضان المجتمع .

إن صح هذا ، فاننا نريد أن نثبت هنا قضية نعتقد انها على جانب كبير من الاهمية . نقول : انه بينما يتنوع الفنانون في مواقعهم السياسية فهم تقدميون أو رجعيون تبعاً لوعيهم مصالحهم الخاصة وعلاقتها بمصالح المجتمع وتطوره، في زمان معين في مكان معين ، يكون الفن تقدمياً دائماً . إن العمل الفني تقدمي دائماً حتى لو كان من خلق فنان ذي موقف رجعي – لماذا ؟..

لنستبعد أولاً الاعمال التي يقال لها فناً وهي ليست من الفن في شيء . ونحن نعرف منها – على الاقل – العمل « الفني » الذي يمثل مخاطبة مباشرة . يطرح مشكلة طرحاً مباشراً أو يطرح حلاً طرحاً مباشراً . أو يدعو إلى موقف دعوة

مباشرة أو يعرض منهجاً عرضاً مباشراً . هذه اعمال « دعائية » وليست اعمالاً فنية . انها منابر خطابية لا بد أن تكون رجعية إذا كان الخطيب رجعياً وأن تكون تقدمية إذا كان الخطيب تقدمياً . وهذا النوع من العمل الذي يقال له فني هو الذي يزعج التقدميين . إذ يرون الرجعيين يستغلون جاذبية «السرقة» الفنية للعمل وتأثيرها القوي على المشاهدين أو السامعين ليتخذوا من الشكل الفني منبراً للترويج لافكارهم الرجعية . لهذا ، فإن الموقف المضاد له الذي قد يذهب إلى حد تحريم ادائه علناً ، موقف مشروع . لا لأنه فن بل لأنه إحتيال فني . فالموقف ضده ليس وقوفاً ضد الفن بل وقوفاً ضد الدعاية الرجعية « الجبانة » التي تحاول أن تتستر وراء الاشكال الفنية في الإداء . ولكن التقدميين يخطئون خطأ فادحاً عندما يعتبرونه فناً فيأخذون من الفن كله مواقف المراقب الآذن أو المانع . أنهم يدمرون بموقفهم هذا الامكانات الاجتماعية للخلق الفني بما فيها إمكانات التقدميين . فعندما تكون الرقابة ، المانعة المانحة ، واحدة بالنسبة لكل عمل سواء كان فناً أو إحتيالاً فنياً ، يدفع الفن وتقدمه ثمن الموقف الخاطىء ..

أما عندما يكون فناً حقاً بالمعنى الذي تحدثنا عنه من قبل، فهو تقدمي دائماً بصرف النظر على الموقف السياسي لصاحبه . ذلك لأن الفن الحق يتجسد في معادل موضوعي غايته إثارة فكرة أو مجموعة من الافكار في اذهان القراء أو المشاهدين . وكلها – كما قلنا – أفكار تتصل بالحياة الاجتماعية المستمدة منها والتي حركت العمل الفني . والفنان ، الفنان الحق ، كما قلنا ممتاز بموهبة الحساسية المتفوقة لما يدور في المجتمع . وقد تلتقط موهبته مشكلات لا تستطيع ان تصل اليها احكم وسائل الاحصاء والتخطيط . إذن ، فالمحصلة النهائية لأي عمل فني ، بصرف النظر عن موقف صاحبه ، هو التنبيه إلى بعض المشكلات الاجتماعية أو إلى بعض الحلول المتاحة لتلك المشكلات أو إلى المواقف الملائمة لتلك الحلول . وقد يخطىء الفنان في الحل أو الموقف من المشكلة ولكنه لا يخطىء ولا يمكن أن يخطىء في شد الانتباه إلى وجود مشكلة ما . ان حساسية

الفنان هنا أكثر دقة من حساسية الساسة والعلماء والمفكرين . من هنا يؤدي العمل الفني دائماً وظيفة تقدمية : التنبيه إلى مشكلات واقعية . وبمجرد التنبيه عمل تقدمي لأنه اسهام في اكمال المعرفة بالواقع ، والمعرفة بالواقع هي الشرط الأول لتطويره .. لهذا قلنا ان كل عمل فني هو عمل تقدمي مهما يكن موقف صاحبه حتى لو كان رجعياً . ما يجب أن ينتبه اليه التقدميون هو استغلال الاداء الفني لترويج الدعاية الرجعية ، ثم الانتباه الى ما يثيره العمل الفني من مشكلات إجتماعية لمعالجتها ، بصرف النظر عن الموقف الذي خلق العمل الفني . إنه إذ يخلقه ينفصل عنه ويصبح للعمل الفني ذاتيته المستقلة . وبينما قد يبقى الانسان في الفنان يردد أفكاره الرجعية يكون العمل الفني قائماً بدوره التقدمي بالرغم موقف صاحبه .

٧– كل هذا ، ونحن في نطاق الافكار التي يريد الفنان أن يثيرها « بالعمل الفني » أما الافكار التي يصوغها الفنان « في العمل » الفني فلها شأن آخر . انه المجال الرحب غير المحدود للابداع الفني . انه في الاصل غير واقعي . لا يوجد عمل فني ولا يمكن أن يوجد عمل فني مطابق تماماً للواقع . حتى التماثيل الرائعة التي تكاد تكون مطابقة تشريحياً لنموذجها الحي ، ليست مطابقة للواقع على الاقل في « وضعها » الثابت ، المنتقى ، الذي هو أهم خصائص أداة التعبير في النحت والحفر . أما الرسم فلا يمكن أن تكون الصورة التي تكاد تكون « فوتوغرافية » مطابقة لنموذجها . الاختلاف يأتي في إختيار الالوان وتوزيعها ودمجها وتلقيها للضوء أو رده .. وكل هذا هو الآداة الاساسية للتعبير في الرسم ، أما المطابقة الخارجية للنموذج أو نقل ملامحه بحيث نقول ان هذه شجرة أو بقرة أو رجل أو امرأة .. فهو على هامش العمل الفني . هو مادته الخام . والامر أكثر وضوحاً في الموسيقى . إن درجات السلم الموسيقي محدودة . وهم تحت تصرف كل فنان . ولكن لكل فنان فنه الخاص في كيفية تركيب وترتيب الجمل الموسيقية التي يعبر بها فنياً . أما في الادب فان النقل عن الواقع ، في الاحداث ، في الاشخاص ، ليس أكثر من « محضر إثبات حالة » يستطيع أي

شرطي أن يكتبه بكفاءة تتجاوز كفاءة أي كاتب . الذي لا يستطيع أي شرطي ولا يستطيعه إلا الفنان وحده هي خلق الاحداث والشخصيات وخلق زمانها ومكانها أيضاً .. انه بهذا يخلق العمل الفني خلقاً ابداعياً غير مسبوق . غير مسبوق في الواقع .

وكما يستطيع الفنان أن يخلق عملاً فنياً مستعملاً عناصر مشابهة لعناصر معاصرة من الاحداث أو الاشخاص حتى يظن البعض أنه «يحكي» قصة وقعت فعلاً ، وهو تفوق في الصنعة على حساب الروح الفنية ، يستطيع أن يستعمل اسماء وأحداثاً تاريخية . نقول يستعملها ولا نقول يعيد كتابة تاريخها . كما يستطيع أن يبتكر من خياله أحداثاً واشخاصاً وعلاقات لا يسمح بتصورها أي واقع تاريخي أو واقع معاش . لا حدود ولا قيود على المضمون الذي يستعمله الفنان « في العمل » الفني . وهو – لمجرد ألا ننسى – غير المضمون الذي يريد الفنان أن يثيره « بالعمل الفني » . الاول خاضع تماماً لمقدرة الفنان على الاختيار . والثاني مضمون إجتماعي واقعي دائماً .

لهذا يخطىء كثير من النقاد عندما يخلطون بين المضمونين . وأغلبهم لا يخلط ولكن ينظر إلى العمل الفني نظرة احادية . أي لا يعتد ، إذ لا يرى ، الا بالمضمون الذي عبر به الفنان متجاهلاً أو جاهلاً المضمون الذي عبر عنه . ويتعرض كثير من الفنانين ، خاصة بعد نمو وانتشار أساليب الاداء التجريدية أو السيريالية أو ما أسموه « اللامعقولية » .. لحملة نقد تشهيرية لأنهم يحبسون أنفسهم في رؤية مضمون الاداء وحده فيرونه غير واقعي أو غير منطقي أو حتى غير معقول . فيتوهمون أن ليس وراء هذا الاسلوب في الاداء مضمون محرك هو دائماً واقعي ومنطقي ومعقول ، وأن عليهم بدلاً من التشهير الناقد أن يكتشفوه .

إن هؤلاء النقاد يجردون العمل الفني من ثيابه ، ليبحثوا في الثياب كيف قصت وكيف حيكت وأبعاد اكمامها ونوع نسيجها وربما سعره . وكل هذا

مفيد لأي « خياط » أو صبي خياط ولكنه غير ذي فائدة في معرفة الجسم الحي الذي صنع الثوب على قده .

هذا الخلط بين المضمونين لا يؤدي – فقط – إلى تسطيح العمل الفني عن طريق النقد بل يؤدي إلى أخطاء أخرى . عرفنا منها شيئاً عن الشروط المتعسفة التي يفرضها النقاد على المضمون المستخدم في الاداء الفني لأنه مطلوب في المضمون الذي يحرك العمل الفني : الاجتماعية ، والواقعية ، والمعقولية ..الخ ونعرف منها الان أكثرها جسامة . أعني أكثر الاخطاء جسامة ، وهو التلقي المباشر من العمل الفني ، المقابل الذاتي – النقدي – لكون العمل الفني خطاباً مباشراً . ليس بين يدي أي ناقد إلا عمل فني ذو شكل ومضمون . وهو شكلاً ومضموناً يتكون من عناصر عديدة تجتمع فيه ليكون موضوعاً واحداً . هذه هي الصورة النهائية للعمل الفني المطروح على الناقد . ويكون على الناقد أن يتحقق أولاً من سلامة تركيب عناصره . من بنائه ومن إتقان الصنعة الفنية فيه . ثم أن يحلله إلى عناصره . يفككه . هذا لون أزرق وذلك أصفر والثالث خليط باهت بين اللونين بنسبة كذا إلى كذا مضاف اليها نسبة كذا من الزنك ، وضعت في اللوحة الفنية في موضع كذا بعيداً أو قريباً من محور العمل الفني ، تحيط بها ألوان كذا وكذا ، فيها لون متداخل بدرجة كذا ومنها لون مقطوع : وهكذا . وهو يحلل عناصر العمل الفني ليكتشف دلالة تلك التركيبة الخاصة التي اختارها الفنان أي العلاقة المتبادلة بين الالوان ذاتها والتقائها معاً في لوحة فنية واحدة والطريقة التي التقت فيها . فنحن نعرف ان بعض لوحات الرسم تتراكم فيها الالوان بكثافة غير مصقولة عن طريق المكشط المعدني (السكين) ولا تستعمل فيها الفرشاة . وإن الفنان قد يستعمل أنواعاً متباينة من فرشاة الرسم تختلف فقط في سمك شعيراتها . وكل هذا يكون مقصوداً به أن يمنح الرسم تعبيراً خاصاً . ولا بد للناقد من عملية التحليل هذه ليعرف ما وراء عملية التركيب الفني حتى يستطيع أن يكتشف المضمون الذي يريد الفنان أن يعبر عنه « بالعمل » الفني . أما إذا إكتفى بحصر الالوان وإنتقائها والعودة إلى دلالتها

الفجة ، فاللون الاحمر يرمز للدم أو العنف ، والازرق إلى الصفاء والهدوء واللون الاصفر يرمز إلى الغيرة والغيظ واللون الاسود إلى الكآبة واللون الابيض إلى التفاؤل ، وترجمة كل هذا إلى رؤية نقدية فأنه ببساطة لم ير شيئاً ولم ينقد شيئاً ..

وينطبق ذات الموقف الخاطيء على التلقي المباشر من الفن غير التشكيلي (القصص المسرحيات والموسيقى والشعر ..) ويكون الخطأ هنا افدح . ذلك لأن العمل الفني هنا ناطق . إن اشخاصه يقولون أشياء كثيرة ، ويواجهون أحداثاً كثيرة ويحاولون ويحاورون ويتخاصمون وينهزم بعضهم أو ينتصر . أنه عالم كامل من الاشخاص والافكار مجتمعة في عمل فني . الإنزلاق إلى التجزئة هنا سهل . فكل شخص له ملامحه وله مواقفه وله أفكاره التي يعبر عنها في الحوار . بحيث يبدو الاشخاص في العمل الروائي المسرحي كما لو كانوا منفردين كما ينفرد الناس في الحياة . فينزلق الناقد إلى محاكمتهم واحداً واحداً ، بالدور . وفي العادة يلتقط أولئك الذين يبدو أنهم يلعبون أدواراً رئيسية في العمل الفني فيركز عليهم باعتبارهم « ابطالاً » ... وينسى في خضم هذه التجزئة أن عليه بعد أن يتبين خصائص كل شخص في تركيبه الجسماني كما خلقه المؤلف ، في أفكاره في مواقفه ، أن يعيد جمعهم في العمل الفني مرة أخرى ليكتشف سر إجتماع كل هذه الاشخاص والشخوص فقد يكتشف عندئذ أن مجرد إجتماع كل هذه الاشخاص في عمل فني واحد هو المفتاح إلى غرفة المضمون الذي يريد أن يعبر عنه الفنان بالعمل الفني . وقد يكتشف إن إحدى الشخصيات التي تبدو باهتة أو مهزوزة ، هي مجرد الاساس في البناء الفني كله أو هي القشة التي تقصم ظهر البعير كما يقال .

إذا لم يفعل الناقد هذا ، أو إذا حاول أن يفعله فعجز عن فعله ، فسيقف في نقده عند التلقي المباشر لأن الاكتشاف لا يتم إلا عن طريق العمل الفني بمجموعه . وفي التلقي المباشر يذهب الفنان ضحية الدلالة المباشرة لعنصر في العمل الفني . وهو هنا الحوار (بعد أن كانت الالوان في الرسم) ويتصور ،

أو يتوهم ، ان المؤلف يخاطبه بما يريد أن يقول على لسان اشخاص الرواية أو المسرحية . فلأن أحد اشخاص الرواية قال في حواره مع علان كذا .. ها . إن هذا رأي المؤلف « بالضبط » . إن أحد أشخاص الرواية كان غير مقنع . إن المؤلف إذن غير مقتنع . إن أحد اشخاص الرواية ، كان مقنعاً . إن المؤلف إذن مقتنع وهكذا .. كأن العمل الفني مجرد صياغة جديدة وطريفة لمقالة يمكن أن يكتبها أي مؤلف .. إن الناقد هنا يطفو على سطح البحر الفني ، ربما لأنه لا يريد ، أو غير قادر على أن يغوص إلى أعماقه ليكتشف اصدافه وجواهره ألمهم أن يغوص .. أما أن يلتقي باصداف أو بجواهر فهذا يتوقف على الفنان نفسه وهو مسؤول عنه .

ولا نستطيع هنا أن نغفل الاشارة إلى استشراء هذا النوع من النقد في الادب العربي . ولعل من أهم اسبابه أن قلة قليلة من النقاد في العالم العربي لا تأخذ من النقد حرفة ومصدراً وحيداً للرزق . الناقد هنا معذور . إنه مطالب بأن يقدم كل يوم ، أو كل أسبوع أو كل شهر ، نقداً لواحد من الاعمال الفنية المطروحة . انه نقد صحفي من حيث ضرورة ملاحقته للاحداث ، وبدون مساس بالصحافة . في مثل هذه الظروف لا يستطيع أي ناقد أن يعكف على دراسة عمل فني دراسة جدية لينتقده نقداً جدياً . إن هذا يتطلب وقتاً غير مسموح له به، وقد يتطلب مراجعة ومقارنة بأعمال فنية أخرى غير متوفرة لديه، وقد يتطلب « مسؤولية » لا يطيق تحملها . لهذا فاننا لا نصادف في المكتبة العربية نقداً إلا في المراجع الاكاديمية المتخصصة أو في الدراسات النقدية التي تظهر في شكل كتب تحمل قدراً من المسؤولية والجدية .. أما نقد المقالات الصحفية فهو — في أغلبه — ضرورة لمغالبة مصاعب الحياة في مجتمعات لا توفر للمواهب الفنية أو النقدية فرص الاجادة .

وأننا لنضرب هنا مثلاً — مضحكاً — من النقد الفني « الذاتي » ، لنعرف إلى أي مدى تتداخل ظروف غير فنية في عملية النقد الفني فتنحدر به أو تغترب به عن أصوله العلمية .

كلنا يعرف أن الاستاذ توفيق الحكيم كاتب مسرحي فنان . هذا لا يماري فيه كثيرون ، وان كان غيرهم ، وأنا منهم ، أقصر مقدرته الابداعية على فترة حياته السابقة على دخوله مرحلة الشيخوخة . المهم ان توفيق الحكيم رجعي بكل معنى من معاني الرجعية .. وأوصاف أخرى نعف عن ذكرها . ولقد كشف من موقفه الرجعي في السنوات الاخيرة عندما ظن أن التراجع أصبح مأموناً فحاصره التقدميون وما زالوا به حتى شككوه في أمان التراجع . فانطلق يدافع عن نفسه بفقرات مختارة من مسرحياته القديمة والجديدة . وقد كان هنا ينقد فنه نفسه نقداً ذاتياً وهو ما يهمنا .. فماذا فعل .. انتقى عديداً من الجمل فجاءت على السنة عديد من أشخاص مسرحياته العديدة يبشر صراحة ومباشرة بالثورة وتدعو إلى التغيير وتهاجم الوضع الاجتماعي الذي كان سائداً عند تأليفها . لا نريد هنا أن نقيم هذا الموقف اخلاقياً . ولكنا نريد أن نضربه مثلاً للنقد السطحي الذي يطفو فوق لجة العمل الفني . توفيق الحكيم جزّأ كل عمل فني وأختار منه قولاً بعينه . ثم قدم هذا القول على أنه يعني دلالته المباشرة . كأن توفيق الحكيم الفنان المتمكن من صنعته كان يصوغ المقالات في شكل مسرحيات . وهو غير صحيح . اننا لو أخذنا كل مسرحية من مسرحياته على حدة كعمل فني متكامل .. لاكتشفنا ماذا كان يريد أن يقول هو لا ما قاله محسن بطل « عودة الروح » . وكل هذا يحتاج إلى نقاد جادين وعلماء كما يحتاج إلى عمل فني جيد ليكون قابلاً للنقد الجاد .

وليس توفيق الحكيم الا مثلاً لكثيرين يفتشون في ثنايا أعمالهم الفنية في ربع القرن الاخير ، ليلتقطوا كلمات من حوار ، أو وصف من رواية ، ثم يهللون ، كالاطفال ، ليقولوا انظروا لقد كنا نقول كذا ...

الخلاصة أنه كما ان المخاطرة المباشرة من خلال العمل الفني تجرده من قيمته ، كذلك التلقي المباشر من العمل الفني يجرد النقد من قيمته .

ولا بأس في أن نضيف أن للنقاد نصيبهم من ميراث العبودية الذي خلفته

مراحل الاستعمار الطويلة . وهو ميراث يكاد يحمل كل مثقف في الوطن العربي نصيبه منه . انه ميراث عهد كنا فيه في المرحلة الدنيا المسحوقة سياسياً وإجتماعياً وفكرياً وثقافياً . وكما يشعر المقهورون بقيود العبودية ويقاومونها ما إستطاعوا ، يشعرون – في الوقت ذاته – بالاعجاب بقاهريهم . إعتراف صامت بتفوق القاهرين والسادة . ونزوع ضمني أو صريح للحلول محلهم ولو بتقليدهم . ولو بالتبعية الواضحة لهم ، ولو بمقاومتهم وتصفيتهم ، أي بالتحرر من العبودية ذاتها . نعم ان التحرر يتضمن رفض علاقة العبودية القائمة . ولكنها علاقة ذات طرفين . سيد وعبد . وعندما يثور العبد فإن في أعماقه يريد أن يكون سيداً . وليس هناك نموذج للسيد القادر الا الذي إستطاع إستعباده – أي سيده – الذي ثار عليه . انها حالة يعرفها تماماً علماء النفس ويعرفون أيضاً ان التحرر تتبعه دفعة « سيادية » يحاول فيها المتحررون أن يلعبوا ذات الادوار التي كان يلعبها سادتهم وثاروا عليها ولو أدى هذا إلى فرض العبودية على غيرهم لتكمل لهم عناصر الحلول . انها دفعة الطاقة المكبوتة في أول إنطلاقها من محبسها وحتى عندما تنتهي . تبقى الضمائر عالقة بنماذج السادة ، كمثل لامكانية التفوق الذي يستحق الاحتذاء أو التقليد أو الاعجاب ..

ان هذا يفسر لنا بسهولة الموقف العام من الانتاج الثقافي والابداع الفني في المجتمعات المتحررة حديثاً ومثالها الذي يهمنا الوطن العربي . ان ميراث العبودية الذي خلفته مراحل الاستعمار الطويلة تفرق بين مواقف النقاد من العمل الفني تبعاً لما إذا كان فناً اوروبياً أو غير اوروبي . انهم يلتقون بالانتاج الثقافي الاوروبي وبالأعمال الفنية الاوروبية ، لقاء المعجبين مقدماً . وعلى ضوء إعجابهم الموروث يفتشون فيه عما يرضي مواقفهم المحددة سلفاً بميراثهم الكامن في اعماق نفوسهم . أما الانتاج غير الاوروبي عامة ، والعربي خاصة ، فاللقاء به لقاء متحفزاً ومعاداً ومستقلاً ، أو – وهذا أفضلها – حيادياً . ولقد إهتم النقاد العرب اهتمامات متتالية ، بموجات متتالية ، من التجارب الفنية الواردة من القارة الاوروبية ، وقيموها ايجابياً وأشادوا بها ، وحاول بعض الفنانين أن يقلدوها

بدون أن ينتظروا حتى إلى أن تستقر في ترتبها . إذ لو أنهم إنتظروا لاكتشفوا أن أصحابها انفسهم قد اسقطوها وتجاوزوها باعتبار أنها تجارب فاشلة ..

يؤدي كل هذا إلى استهانة الناقد – مقدماً – بالعمل الفني « العربي » ، فلا يجهد نفسه في اكتشاف اعماقه لأنه منذ البداية لا يعتقد أن له أعماقاً تستحق الاكتشاف .

وأحسب أنه سيمضي وقت ليس قصيراً حتى نتخلص من ميراثنا التاريخي ولعلنا – حينئذ – أن نعود إلى إنتاج مرحلة الميراث ، لنكتشف فيها « ضحايا » التاريخ وميراثه .

٨– إذا إستطاع الناقد أن يتخطى كل تلك الحواجز بدون أن يتعثر ، وهو أمر لا يستطيعه إلا الراسخون في علم النقد ، فانه سيكتشف وراء المضمون الذي إستخدمه الفنان « في العمل » الفني مضموناً أراد أن يثيره « بالعمل الفني » . ولن يجد هذا المضمون بسيطاً . إنه ليس فكرة مفرزة يتيمة تقف في وحدتها منتظرة لقاء الناقد ولكنها مجموعة متداخلة متكاملة ومتراكمة من الافكار . ويكون عليه – على الناقد – أن يفتش بينهما عن الفكرة الاساسية . الفكرة المحورية . الفكرة التي حركت أصلاً النشاط الفني وأدت اليه . إن أي خطأ في التعرف على الفكرة الاساسية المحورية المحركة للعمل الفني من بين كل الافكار الفرعية والثانوية والمساعدة سيجهض جهد الناقد ويهدر ثمرة كل ما عاناه من أجل نقد العمل الفني وتقييمه .

أضفنا هنا التقييم إلى النقد ، لأن موضوع كل عمل فني من التراث الفني الانساني لا يتوقف على جودته ، بل يتوقف أيضاً على شمول وعمق وإصالة الفكرة الاساسية المحركة له . وعندما يتحدث النقاد – مثلاً – عن فن محلي أو فن إنساني أو فن مرحلي أو فن خالد فإن مقياسهم لا يكون مدى الجودة في صنعته بل مدى الافكار التي حركته والتي كان أداة جيدة لاثارتها . انها أفكار محلية محدودة في المكان أو انسانية غير محدودة في المكان انها فكرة مرحلية

محدودة في الزمان أو خالدة فهي حية في كل زمان ..

ولقد ذكرنا من قبل أن الواقع الاجتماعي الذي هو مصدر الافكار المحركة للنشاط الفني خاضع في حركته لقوانين موضوعية ومنها قوانين تحكم الانسان نفسه . وقلنا ان الافكار المحركة للنشاط الفني لا يمكن أن تخرج عن أن تكون فكرة مشكلة أو فكرة حلاً ، أو فكرة عملاً (موقفاً) أو هذا كله في عمل متكامل . وأخيراً أن تكون فكرة منهجاً تتصل بالعلاقة الحركية بين المشكلات الاجتماعية وحلولها وممارستها .

ان هذا التصنيف على أساس من حركة الجدل الاجتماعي ذاتها يسهل عملية إكتشاف الفكرة المحورية التي يعبر عنها أي عمل فني لأن إمكانيات الاختيار محددة . وعندما يكتشف الفكرة المحورية المحركة للنشاط الفني نستطيع بسهولة أن نقيم العمل الفني بقيمتها ذاتها . إن كثيراً من المشكلات الاجتماعية وحلولها والموقف منها مشكلات إنسانية ، أي أنها مشكلة تصادف الانسان من حيث هو إنسان بصرف النظر عن المجتمع الذي يعيش فيه كالجوع والحب مثلاً . وقد الهم الجوع والحب كثيراً من الفنانين في كل العصور وفي كل المجتمعات ألواناً من الاعمال الفنية الخالدة . ولكن – بالمقابل – ليست كل المشكلات الاجتماعية وحلولها والموقف منها مشكلات إنسانية بمعنى أنها تصادف كل إنسان . إن مشكلة البطالة مثلاً لا وجود لها في مجتمع اشتراكي . مشكلة المساواة لا وجود لها في أي مجتمع رأسمالي . مشكلة الافراط في الاشباع المادي الذي قد يؤدي إلى الانتحار لا وجود لها في المجتمعات المتخلفة . مشكلة الصبر على الرزق الذي قد يصل إلى حد الخمول لاوجود لها في المجتمعات الصناعية . مشكلة الثأر مقصورة على عدد من المجتمعات . مشكلة العفة لاوجود لها في كثير من المجتمعات .. وهكذا الاعمال الفنية التي تحاول أن تثير تلك الافكار هي بالضرورة أعمال فنية محلية . كذلك لا وجود لمشكلات التحرير وبطولاته في المجتمعات التي تحررت . لا وجود لمشكلات الصراع الاجتماعي وأحداثه الملهمة في المجتمعات التي تجاوزت مراحل التحول إلى الاشتراكية . كل المشكلات الملهمة

التي صاحبت عهد الاقطاع وامرائه واميراته وفلاحيه قد انقضت بانقضاء مراحلها .. وهكذا الاعمال الفنية التي تحاول أن تثير المشكلات الاجتماعية حتى الانسانية منها ، لن تكون ، بحكم التطور الاجتماعي الذي لا يتوقف إلا مرحلية ..

أفكار واحدة هي التي تحمل في ذاتها سنتي الانسانية والخلود . إنها الافكار المنهجية . لأنها تتصل بمنهج (قوانين) حل المشكلات الاجتماعية في أي مكان ومن أي زمان . ويتغير موضوعها مرحلياً ، ويتغير مضمونها من مكان إلى مكان ، ولكنها هي كضابط حركة تبقى ابدا القوانين التي لا تتغير المضامين في الزمان ولا في المكان إلا طبقاً لها . ولها يخضع كل مضمون وكل إنسان ..

لهذا ليس غريباً ان كل القمم الخالدات من الابداع الفني تعبيرات عن أفكار منهجية ، حيث تكون الفكرة المحركة للعمل الفني هي « كيف » يستطيع الانسان أن يحل مشكلاته . والميدان الذي تصول وتجول فيه هذه الاعمال الفنية من بين ميادين الدراما ، هو ميدان التراجيدياً أو المأساة حيث يوضع الانسان في العمل الفني في خضم مشكلات إجتماعية يكون عليه أن يحلها مستخدماً كل ملكاته الجدلية . الادراك . العلم . العمل . وبينما تلعب المضامين الاجتماعية للمشكلات الاجتماعية التي يواجهها دوراً مساعداً فقط ، تكون ثورة العمل الفني هي الصراع بين الانسان الذي يدرك مشكلته ويعرف كيف تحل ويعمل على حلها ، ومع ذلك لا تحل . فيكون منهج ، أو منطق ، أو كيفية ، حل المشكلات الاجتماعية هي الفكرة المحركة للعمل الفني ، أما كل الاحداث والاشخاص والحوار تستخدم من أجل إثارة هذه الفكرة أو شد الانتباه اليها .

وقد يحسب البعض ان مثل هذا العمل الفني قليل في التراث الانساني . بالعكس . ان واقع الادب العالمي ملىء بنماذج متفوقة من الخلق الفني المقصور على إثارة فكرة محورية منهجية . إن كل الادب أو الفن المسمى « تراجيدياً » أو مأساة أدب وفن منهجي بالدرجة الاولى الوحيدة . ونموذجه المتوفق ، كان وما يزال ، الادب الاغريقي .

إن المأساة في أدب الاغريق تكاد تدور كلها أو جلها على وضع الانسان أمام قدرة قاهر ممثلة في ارادة الآلهة وهم آلهة لا يتورعون عن الغيرة والحسد والبغض والحب والبطش والكيد بعضهم لبعض وللانسان أيضاً . ويكون على الانسان أن يصارع تلك القوى « الميتافيزيقية » صراعاً ينتهي عادة بانتصار الآلهة وهزيمة الانسان بالرغم من كل ذكائه ومقدرته على العمل وجهده المبذول . ذلك هو القاسم المشترك في روائع الادب الاغريقي . تختلف الاحداث والابطال والصيغ ولكن العمل الفني كله لا يثير إلا قضية واحدة : مأساة الانسان وهو يحاول أن يحل مشكلات حياته بالرغم من تدخل وتداخل قوى ميتافيزقية أكثر منه قدر على الفعل وأقل إنضباطاً منه فيما تفعل . انه يبدو بالرغم من إرادته وقدرته ونبل بواعثه في بعض الاوقات ، وكفاحه البطولي لانقاذ إرادته ، في كل الاوقات ، محكوماً عليه مقدماً بالعجز عن كل مشكلاته .

فإذا انتقلنا إلى الادب الاوروبي الكلاسيكي ، وحتى شكسبير نجد أن روائعهم قد استبدلت بآلهة الاغريقي مجموعة من المثل والمبادىء الفكرية والاخلاقية المجردة . إنها قدر الإنسان الجديد . ما إن تبدأ الاحداث في أية قصة أو مسرحية الا ويكون الانسان فيها هو المبادر قتالاً أو صراعاً أو إستكشافاً أو حباً ... ولكنه لا يلبث — في سياق العمل الفني — أن يجد إرادته مطوقة بسدود غير منظورة تأخذ من اشخاص العمل الفني أدوات لإحباط جهوده وافشال إرادته فيفشل . إن نموذج الانسان الذي يحب إنساناً آخر حباً جارفاً صادقاً بدون أن يتاح لهما فرصة اللقاء أو الزواج فيعوضه العمل الفني عن غايته السوية الصحية « مجداً » و « تمجيداً » لعذابه العذري ، نموذج سائد في الادب الاوروبي الكلاسيكي . وهو نموذج منهجي . لأن العمل الفني هنا يسند المجد والتمجيد إلى الاستجابة السلبية لافكار ومثل وتقاليد يراها « المنهج » السوي في حل مشكلة الحب بدلا من حله عن طريق الاستجابة الطبيعية الصحية بالزواج . أمـا الرجال — الشباب — الذين يقاتلون حتى الموت في مبارزات ذات

طقوس شبه دينية لأن واحداً منهم قد سبق الآخر إلى التقاط « منديل » إحدى الآنسات فاهانه فهو نموذج آخر يستبدل بمنهج الحياة منهج الفروسية الميتافزيقية وعندما أراد دي سرفانتس أن يسخر من هذا المنهج قدم رائعته « دون كيشوت» فكانت منهجية أيضاً . كل الاحداث فيها تافهة ، انما الجوهر العميق الخالد فيها أنها تثير مشكلة المنهج الذي تنتهجه الفروسية في حل مشكلة القهر الاجتماعي تثيرها باداة فنية ساخرة وفي كل قمم أعمال شكسبير لا يستطيع أحد أن يعرف أسرار مأساة ابطاله إلا إذا فطن أولاً إلى فكرة العقوبة القدرية ذات المسحة الدينية على الاخطاء حتى في النوايا .. وهي فكرة منهجية .. وهكذا ...

٩ـ وقد يحاول بعض المؤلفين أن يعارض المسرح المثالي عامة ، والمسرح الاغريقي خاصة ، الذي يطرح مأساة الانسان من خلال صراعه ضد أفكار ومبادىء خالدة أو قوى ميتافيزيقية قادرة ، ليثير في أذهان القراء والمشاهدين ويشد إنتباههم إلى أن المصدر الاساسي لمأساة الانسان ، أي إنسان ومجال صراعه هي الظروف الاجتماعية التاريخية التي يولد فيها فيجد نفسه فيها بغير إرادته فهو غير مسؤول عنها . ومع ذلك لا يملك من حيث هو إنسان إلا محاولة تغييرها بارادته لأنه وحده ، دون الموجودات جميعاً ، أداة التغيير الارادي ، مع أن إرادته ذاتها هي نتاج الظروف التاريخية التي يحاول تغييرها ، والتي تحدد هي ذاتها لتلك الارادة المضمونة الوسائل والادوات التي يمكن موضوعياً إستعمالها في تغيير الظروف التاريخية . حتم على الانسان أن يتعامل من واقع تاريخي لا إرادة له فيه . وحتم على الانسان أن يغير هذا الواقع التاريخي . وحتم الانسان أن التنزم في تغييره حدود معطياته التاريخية العينيه . في هذه الحتمية تكمن مأساة الانسان الذي لم يكف منذ أن وجد على الارض عن الصراع مع ظروفه التاريخية .

ليست المأساة إذن هي أن الانسان يواجهه مجموعة ثابتة من المبادىء المثالية أو مجموعة قادرة من الآلهة كما تحاول أن تقول الاعمال الفنية المورثة من القرون

السابقة وما قبلها منذ عهد الاغريق وما يزال بعض المعاصرين فنانين ونقاداً ، يرددونها أو يروجون لها . هذا خطأ . وهو خطأ « علمي » لا يمس القيمة المتفوقة للأعمال الفنية الا ائعة التي كان ذلك الخطأ فكرتها الاساسية المحورية المحركة . والانسانية نفسها لم تكتشف أنه خطأ إلا حديثاً . ولكنه لا يقل خطأ عن المذهب الميتافيزيقي الذي يطرح منهج الالهام مطلق الصحة للانسان ، أي إنسان . انه ينكر عنصر المأساة في حركة الحياة . ذلك العنصر الذي يختلط بحياة كل إنسان .

وليس من شك في أنه عندما يحاول المؤلف أن يأخذ من العمل الفني أداة لإثارة مثل هذه الفكرة المنهجية ، يكون قد حرك نشاطه حدث إجتماعي منهجي أيضاً . فقد قلنا إن المضامين التي تحرك النشاط الفني هي دائماً مضامين إجتماعية . ولكن ما دامت الفكرة الاساسية المحورية في العمل الفني فكرة منهجية تحيط بها وتساندها مجموعة من الافكار ، فلا بد للناقد ، بعد أن يدرك الفكرة المحورية « في العمل الفني » ويكتشف أنها منهجية ، أن يبحث في الاحداث والمضامين الاجتماعية عن الحدث الاساسي الذي أراد المؤلف أن يشد الانتباه اليه ، فسيجد أنه أيضاً حدث يتصل بمنهج الاحداث أو منهج معالجتها (تحدي قدرة الآلهة ومخالفة ارادتها ان كان العمل الفني إغريقياً . الثورة على المبادىء والمثل والتقاليد السائدة ان كان العمل الفني أوروبياً كلاسيكياً .. محاولة ضبط النزوع الفردي إلى الحرية إذا كان المؤلف وجودياً) أو أخيراً تقييم ومحاكمة الاحداث والاشخاص خارج نطاق ظروفها التاريخية . تقييمها سلبياً خارج نطاق ظروفها التاريخية . أو تقييمها إيجابياً خارج نطاق ظروفها التاريخية ، لا يهم فليس من شأن العمل الفني الذي يسعى إلى إثارة قضية منهجية ، لأن قضيته منهجية قد أثارته ، أن يهاجم أو يدافع ، طبقاً للمنهج الذي يريد أن يثير في أذهان الناس فكرة ادانته ..

١٠ــ وأخيراً ، فتلك بعض قواعد وأسس علم النقد الفني . وهي متاحة للمعرفة بدون حاجة إلى التخصص . ومتاحة لمعرفة كل الراغبين جدياً في

معرفتها بدون حاجة إلى أن يكونوا فنانين . وعندما يحاول كل مؤلف أن يقيم بناء فنياً على أساسها الذي يعرفه ويلتزمه تتوقف مدى إجادته البناء على مدى خبرته بصنعة الفن ، هذا إذا كانت قد توافرت له – من قبل – الموهبة الفنية . والمؤلفون المبتدئون أو غير الواثقين بخبرتهم في البناء الفني يكونون – عادة – حريصين على احترام ومراعاة قواعد وأسس علم النقد الفني خوفاً من النقاد . إذ لا سمعة فنية لهم يحتمون بها ويكتفون إعتماداً على ان كل عمل ينتجه فنان « كبير » هو عمل فني كبير .

ولكنهم مثل غيرهم ، قد يوفقون وقد لا يوفقون بل ان بعض المجيدين من كبار الفنانين قد لا يستوي إنتاجهم الفني قيمة . لأنهم بشر . ولكل إنسان هفوة كما يقولون . وهل يمكن لأي عالم بالفن وأصوله ، متابع للانتاج المتفوق للكاتب الفنان نجيب محفوظ أن ينسب اليه روايته « الهابطة » فنياً التي تحمل عنوان « الكرنك » إذا أخفي عنه أسم المؤلف ؟ .. مستحيل . وعلى النقاد في كل حالة أن يأخذوا العمل مأخذاً موضوعياً ، بدون خلفية ذاتية ، بدون ذواتهم وبدون ذوات المؤلف ، وأن يبذلوا الجهد الكافي لمعرفة نصيبه من الجودة الفنية طبقاً لمقاييس علم ذي قواعد وأسس موضوعية .

اليس كذلك ؟

هو كذلك

ثم ماذا ؟ ..

ثم إننا كنا نعرف ذلك من قبل أن نقتحم في الزنزانة حصيلة لقراءات فترة النهم إلى المعرفة .. معرفة أي شيء غير معروف ..ولكننا لم نحاول قط أن نبني فناً أو أن نندس بين الخالقين .. في مرحلة مبكرة من العمر حاولنا أن ننشيء قصصاً . فلما أن افتقدنا الموهبة « إختلسنا » فكرة من قصة فرنسية وأنشأنا حولها أحداثاً لنبدو خالقين .. وحين قرأناها منشورة في مجلة روز اليوسف إكتشفنا سخافتها وسخافة « الاختلاس » الذي يسمونه « إقتباساً » .. من الشعور

القوي بمخادعة النفس والقراء معاً .. فكففنا .. ولم نعد وحمدنا الله على التوبة ..

وفي السجون ، لمن يريد أن يعرف بدون تجربة ، لامكان للتوبة . السجن هو مكان الردّة عن التوبة . ما ان يقع الفأس في الرأس ، كما يقولون ، ويستعرض كل مسجون « فيلم » حياته في ظلام الزنزانة حتّى يكتشف أنه قد كان يكف نفسه عن عشرات مما يستهويها من افعال .. خشية السجن . وأنه قد اختار الحرمان حتّى لا يدفع ثمن الاشباع من حريته . الان .. فقد حريته على أي حال ... فليته لم يكف ولم يمتنع ..

مثال ،

علينا أن نقضي عشر سنوات في السجن عقاباً على انّا قد أنشأنا تنظيماً غايته الغاء التجزئة الاقليمية وإقامة دولة الوحدة .. نحن ندفع الثمن بدون أن نكسب الوحدة أو التنظيم القومي .. ليتنا إذن قد فعلنا ، إذن لكانت الصفقة رابحة .. ولو فقدنا الحياة .. توبة من التوبة . وهكذا شأن كل مسجون .. كما عرفنا .. وان اختلفت قضاياهم .

المهم . كنا قد تبنا عن تجربة الانشاء الادبي .. فردتنا الزنزانة إلى تجربة جديدة . كتابة مسرحية ..

فهل استفدنا بما كنا نعرفه من أصول النقد الفني ؟

لا . ونعم .

في التجربة الاولى لا . وفي المحاولة الثانية نعم .

كانت التجربة الاولى واحدة من تجارب التعبير غير المتعمد التي كنت أكتب فيها كما لو كان ثمة من يملي وأنا أكتب . إن لطريقة كتابتها قصة تضمنتها إحدى الرسائل السابقة . وهي طريقة لا تسمح بالمحو والتصحيح . فكيف يمكن تفسير كتابة مسرحية كاملة لاول مرة دفعة واحدة بدون محو أو تصحيح ؟ ... هذا سؤال عجيب لا أعرف الاجابة عليه . ويزيد عجبي انني املك الان المقدرة

على المحو والتصحيح والاضافة . ولكنني لم أفعل . ليس مرجع هذا إلى رغبتي في أن أبقي عليها كما كتبت أول مرة لاحتفظ بها وفيها بذكريات أيام كتابتها . أبدا . إن مرجعه إلى أنني لا أرى فيها ما ينبغي محوه أو تصحيحه أو اضافته . أو ربما لأن مقدرتي المفاجئة على كتابة مسرحية قد انقضت فلم أعد قادراً حتى على معرفة ما ينبغي محوه أو تصحيحه أو إضافته .

وبعد ، فهي الجزء الوحيد من هذا الكتاب الذي عرضته على « أهل الذكر» من العالمين بفنون المسرح فقالوا فيه قولاً حسناً . وتفضل أحدهم وقال لي ما لا أعرفه عن نفسي كما لو كان أعلم بها مني . انني متأثر بالفنان المبدع برخت . الصمت هنا أجدى . فلأصمت صمتاً طويلاً وأنا أستمع إلى واحد من أهل الذكر يحدثني عن تلك النقاط المحددة التي أكدت له ، مدى تأثري بالسيد برخت ، ثم حديثه الاطول الذي يحذرني من أن أفقد ذاتيتي الفنية (هكذا) تحت تأثير كتاب آخرين . أظن أنني قلت شيئاً من قبل عن النقد والناقدين فلا مبرر للتكرار .

أما المحاولة الثانية فقد بدأت في السجن وإنتهت بعد شهور خارجه ، وهي محاولة متعمدة . فقد ظننت ، بعد التجربة الاولى ، ان ثمة مقدرة موهوبة كامنة . فاردت ان أشيد عليها بناء أرهقني دراسة وتخطيطاً وإنشاء ..

كان الحديث عن مستقبل الحياة في مصر العربية قد انتهى إلى نتؤ القاهرة. القاهرة ناتئة في جسد مصر كالورم الخبيث .. انها دولة أخرى تنتمي سياسياً واقتصادياً وإجتماعياً وحضارياً إلى دول القرن العشرين، قائمة لتكون عاصمة لشعب ما يزال يعيش في مستوى القرن السابع عشر. انها دولة اوروبية في شعب عربي : تستنزف ارزاقه لتشيد مبانيها وطرقها ووسائل الرفاهية فيها . تبعث بعملائها من الشرطة والصيارف إلى ريفنا ليجمعوا لها الضرائب والمحاصيل لتشبع هي ويجوع الفلاحون .. انها دولة انشأها المستعمرون على ما يتفق مع ضرورات الحياة الاوروبية ، فلما تولاها « الوطنيون » دخلوا بها مباراة التقدم مع باريس

ولندن وبرلين .. فبرزت وتورمت بقدر ما إمتصت من دماء الشعب .. وفي كل عام تتسع الفجوة الحضارية التي تفصل العاصمة عن المعصومين .. إنها كما كنت أسميها « مملكة القاهرة المتحدة » .. التي حلت محل « المملكة المتحدة (انجلترا) في استغلالها لجموع شعبنا العربي في الريف .. ولم تزل .. فما العمل ؟

قال صديق مرح في حالة يأس : تحرق كما حرق نيرون روما .. وضحكنا .
ولكن هل حرق نيرون روما حقاً ؟
هكذا قال المؤرخون .
ويل للمؤرخين ..

إذا كان التاريخ المعاصر ، تاريخنا ، يزيف علناً وبدون حياء فما بال المؤرخين الاقدمين .

وانتقلنا إلى المكتبة نبحث عن تاريخ نيرون .. أو تاريخ الرومان . وانقضى اليوم فانقضى الموضوع المرح . ولكنه علق برأسي لا يفارقها . وكان ذلك يعني — كما يحدث عادة — ان الامر قد تحول من الهزل .. إلى الجد . وان عليّ أن أكابد لأعرف الاجابة الصحيحة عن السؤال : هل حرق نيرون روما فعلاً ؟

ثم اشتعلت نيران الموقد بالمعركة الاعلامية التي استعرت حول اسم عبد الناصر. عبرت الحدود إلى مصر قوى الثورة المضادة التي كان قد هزمها وطاردها إلى خارج الحدود . وبرزت من جحورها فلول الطابور الذي كان قد اختفى . وغيّر المنافقون جلودهم كما يفعلون دائماً . وردت إلى كل هؤلاء الاموال التي كان الشعب قد استردها منهم . فأصبحوا كأن لم تحدث في مصر ثورة . وقدمت لهم الصحف من اعمدتها معاول ليقوضوا أعمدة ما بناه عبد الناصر ..وانبرى للدفاع عن عبد الناصر نفر من الشباب لم يكونوا يوماً من رفاق عبد الناصر أو وزرائه أو حاملي دعوته أو رؤساء مؤسساته أو المنتفعين من نظامه . أغلب هؤلاء إختفوا أو انحازوا ضد عبد الناصر .. ولم يبق للدفاع عنه إلا أولئك الشباب الذين آمنوا به من خلال ما لمسوه من تغيير في حياتهم وحياة أسرهم . ثم قلة

كانت تعرف أن عبد الناصر ليس هدف الثورة المضادة ، فهو غائب . ولكن هدفها تصفية إنجازاته وأنها إذ تفتح معركتها المضادة ضد تقدم الشعب متسترة بفتح ملفات التاريخ الذي مضى .. تخفي غايتها الثابتة وهي الاستيلاء على المستقبل القادم ...

كنا نتابع كل هذا ونشارك فيه حواراً « داخلياً » .

ولاحظنا من خلال المتابعة والحوار .. ان الذين يهاجمون عبد الناصر والذين يدافعون عنه ، قد عزلوه — جميعاً — عن الظروف التاريخية التي ثار وحكم ومات فيها .. وهو خطأ منهجي جسيم في الهجوم وفي الدفاع كليهما .

ترى هل حدث هذا مع نيرون ؟ ..

وهكذا اتجهت دراسة نيرون إتجاهاً جديداً . فاذا بالمفاجأة تأتي من مراجع التاريخ من مكتبة السجن . ان إتهام نيرون بالاستبداد لم يكن إلا شائعة أطلقتها الثورة المضادة لاتجاهه التقدمي .. في روما حينئذ . فولدت بذرة مسرحية محاكمة نيرون . وبعد السجن نبتت وترعرعت عندما امدتها المراجع المتاحة بما يؤكد الخطأ الجسيم الذي تعبر عنه شائعة الاستبداد التي أطلقها أعداؤه .. ان نيرون ، في ظروفه التاريخية ، كان أكثر أباطرة روما إنسانية وعدالة وتقدماً .. بالرغم من كل ما قاله وروجه مجلس الشيوخ الروماني قائد الثورة المضادة .

مجرد تصحيح المنهج يقدم إجابة صحيحة على الاسئلة التاريخية .

ولم تكن مسرحية « محاكمة نيرون » إلا محاولة لانشاء معادل موضوعي ، من أحداث التاريخ القديم ، لاثارة الانتباه إلى عبث الهجوم على عبد الناصر أو الدفاع عنه خارج نطاق الظروف التاريخية التي عاش فيها .. فحتى نيرون الذي يضرب به المثل في الاستبداد كان في ظروفه التاريخية مثالاً فذاً للعدالة ..

ولم يكن في مسرحية « محاكمة نيرون » .. اداء مباشراً لا في الاشخاص ولا الاحداث ولا في المعاني .. أعني أنها لم تكن مسرحية رمزية .. ولقد نشرت

المسرحية وفهمها كل من أراد كما يشاء ...

وإني لاتأمل الان المسرحية المطبوعة « هو » والمسرحية المصنوعة « محاكمة نيرون » فلا أعرف أيهما أفضل ، وإن كنت أعرف معرفة اليقين أن كلا منهما تحمل أسباباً للعودة إلى التوبة التي كان السجن قد ردنا عنها فاغرانا بأن نجرب ونحاول ما لا نملك له موهبة الخلق . حتى لو كنا نعرف عنه قواعد النقد .

وسلاماً على أيام الزنزانة .

مسرحية :

« هو »

تأليف : دكتور علي التغلبي [1]

(١) كان هذا الاسم المستعار لازماً للاحتفاظ باصول المسرحية وتداولها في السجن ثم خروجها منه .. اذ هي من تأليف مؤلف مجهول ليس اسمه من بين اسماء المسجونين .

الفصل الأول

الزمان : ١٩٤٩

المكـــان : مكتب رئيس تحرير إحدى الصحف اليومية . طراز حديث جداً . الحائط الايمن من خشب الورد المصقول . في منتصفه لوحة أفقية من الزجاج الغائم تدّل على وجود مصعد كهربائي غير منظور . باب المصعد ذاته عبارة عن لوحة زيتية كبيرة لملك بدون ملامح . أمامها مقعد دّوار مرتفع الظهر إرتفاعاً واضحاً . أمامه مكتب من خشب الورد يتكون من قرص مستطيل سمكه حوالي عشرين سنتيمتراً ، قائم على أربعة أرجل نحاسية دقيقة : في حده المواجه للمقعد قطع على شكل نصف دائرة ، بحيث يبدو المقعد والجالس عليه كما لو كانا في وسط المكتب . على المكتب مجموعة من الأزرار الكهربائية تقع على شمال الجالس . على الطرف الأيمن جهاز للمخاطبة الداخلية وجهازا تليفون أحدهما لونه أحمر . الجانب الخلفي لقرص المكتب مقسم إلى فتحات ظاهرة . الحائط الأيسر تكسو أغلبه لوحة زجاجية غائمة مقسّمة الى مربعات صغيرة وقائمة على صندوق معدني ذي فتحات ، تكوّن كلها معاً ، جهاز عقل اليكتروني (كمبيوتر) . الحائط المواجه ، على يمين المكتب إطار سميك يحتوي صورة كبيرة لحاكم كوبا فيديل كاسترو تكسو باقي الحائط خريطة هائلة للعالم ترتفع إلى

ما دون السقف بقليل . خطوط العرض والطول فيها مستقيمة وسوداء شديدة الوضوح . في أعلى الخريطة فوق رسم إفريقيا ، مصباحان كهربائيان أحدهما أحمر والثاني أخضر . ومثلهما في أعلى الخريطة فوق رسم أمريكا . تحت كل مصباحين باب خفي تحده الخطوط الجغرافية . يفتح ويعلق كهربائياً بواسطة الأزرار التي على المكتب في وسط الغرفة ، أمـــام المكتب ، مقعدان مناسبان بينهما منضدة صغيرة عليها منفضة سجائر . فيما يليها منضدة للاجتماع تحيط بها أربعة مقاعد . في ركن الحجرة الايسر الخارجي مقعدان أحدهما أكثر إرتفاعاً من الاخر بينهما منضدة عليها صندوق . إضاءة الغرفة من مصادر غير منظورة .

الاشخاص : ١ — مرزوق حسني : صاحب الدار ورئيس تحرير الصحيفة .
حوالي ٤٥ سنة . أنيق جداً على الطريقة الامريكية .
يتحرك كثيراً وهو يتكلم ويستعمل يديه لتأكيد ما يعبر عنه . يشعر بأهمية ذاته ويحاول إشعار الآخرين بها .

٢ — محمد عباس : زميل مرزوق أيام الدراسة .
مقارب له في السن . عادي في شكله . وحجمه ، وملبسه .

٣ — مدحت خيري : شاب . نحو ٢٥ سنة . ابن أخ مرزوق حسني . نحيل . عصبي الحركة . حاد النبرة . يعمل رئيساً لاحد أقسام التحرير .

٤ — سميحه : سكرتيرة مرزوق حسني .
متوسطة العمر . متوسطة الاناقة . متوسطة الجمال .

٥ — الدمية : رجل ضخم الجثة كأن محشو . صغير الرأس جهم . يلبس سترة سوداء ومنظاراً أسود . يتحرك ببطء ولكن بخطى صلبة كأنه إنسان آلي .

الوقت : الساعة الثامنة مساء .

« المقدمة »

عندما تطفأ الانوار إلاّ عن الستار ، وقبل أن يرفع ، يخرج « الملقن » من مكمنه وفي يده أصول المسرحية . ينفض سترته ويخلع منظاره ويعدّل هيأته ثم يواجه الجمهور ويتحدث اليهم متمهلاً أولاً ، ثم أسرع فأسرع . إلى أن تدركه الدقة الثالثة ويبدأ الستار في الارتفاع فيهرول مرتبكاً إلى مكمنه .

ألملقن :

سيداتي ، آنساتي ، سادتي . أمرني ، أقصد طلب مني الاستاذ المؤلف والاستاذ المخرج أن أخرج اليكم لاقول لكم (يعد على أصابعه) ..خمس كلمات . خمس كلمات لا غير . ولكني سأنتهز الفرصة لأضيف كلمتين من عندي . فهذه ، سيداتي آنساتي ، سادتي ، هي الفرصة الأولى ، وربما الاخيرة ، التي يتاح لي فيها الحديث اليكم . وذلك لأنني ، كما لا شك رأيتم ، الملقن ، نعم أنا الملقن . أنا الذي أنقل اليكم الكلمات على لسان الممثلين . الممثلين الذين تعرفونهم ، وتحبونهم ، وتصفقون إعجاباً بهم ، ويأخذون أعلى الاجور . أنا الذي أحرك السنتهم فتتحرك أجسامهم تلك الحركات المعبرة التي تبهركم . وأنا الذي أنقل

اليكم ، على السنة الممثلين المعاني التي أبدعها المؤلف . المؤلف الذي يتحدث عنه النقاد كثيراً ويحظى بجوائز الدولة . ولو شئت ، أيها السادة ، لدسست كلمة هنا أو كلمة هناك في النص .. الذي لا يحفظونه إتكالاً عليّ اني أحفظه .. فأضحكتكم أو أبكيتكم ، من جهل الممثلين ورعونتهم ، ولفتكت بالمؤلف ومعانيه . أما المخرج ، ذلك الذي يظن أنه خالق المسرحية ، فأؤكد لكم أنه تحت رحمتي تماماً .. إنني أستطيع ، بما أضعه على السنة الممثلين ، أن أحيل رجاله نساء والعكس ... أن أقلب مهزلته مأساة والعكس .. وهكذا ترون أنني مهم . مهم جداً .

انا المصدر الاساسي للخلق الفني كما يصل اليكم . قد يفصلني المنتج . ولكنه سيأتي بملقن آخر .. فأكون أنا المتحدث اليكم هو الملقن الآخر ... ومع ذلك .. أو بالرغم من ذلك فان تقاليد الذين ينتفعون من المسرح شهرة ومالا وخلوداً .. قضت بأن أظل أنا نكرة .. نكرة وفقيرا .. نكرة وفقيرا في قاع المسرح .. قضت بأن يرتفعوا هم فترونهم فوق الخشبة القائمة على كتفي ولا تروني .. قضت بأن تذكروهم وأبقى أنا الانسان ذلك المجهول .. إلى أن جاء مؤلف هذه المسرحية فخرق التقاليد . كيف ؟ هنا الكلمتان اللتان أريد أن أضيفهما إلى الخمس التي أمرت بأن أقولها .. ولهما قصة طريفة . أو عنيفة .. فقد يكون الطريف عنيفاً كما لا شك تعلمون .. وقد يكون العنف طريفاً ان كنتم لا تعلمون . المهم . دخل الاستاذ المخرج إلى حيث الاستاذ المؤلف وهو ينضج بشراً وسعادة . السعيد هو المخرج وليس المؤلف . فقد كان المؤلف متجهماً قلقاً . ربت المخرج على كتف صاحبه وقال : أبشر يا عم .. طلعت تحفة . قطعة من الواقع . لا يمكن أن يفطن أي متفرج إلى أنه يرى مسرحية .

سينسون أنفسهم لأن الاندماج سيكون كاملاً . حتى الرموز تكاد تنطق بالحقيقة . حتى .... ولم يكمل . لماذا ؟ لأن الاستاذ المؤلف قاطعه أو على الأصح قطعه . أعني قطع الحديث وليس المخرج ثار وغار ، وزمجر فقال : واقعية ايه يا أستاذ ورموز ايه ؟.. يا أستاذ دي مسرحية . مسرحية عايز أقول فيها حاجة . حاجة غير الواقع إللي الناس كلها عرفاه . أنا مش باكتب محضر شرطة أذكر فيه تفاصيل الجريمة كما وقعت. أنا مش طبيب باكتب تقرير عن حالة وفاة . انا باخلق . باخلق شيء لـم يكـن موجوداً قبل أن أخلقه .. مش عشان أقول للناس حدوتة هم عارفينها . لكن علشان يعرفوا إللي مش واخدين بالهم منه . ثم صرخ المؤلف ، أنا مش أستاذ والناس تلاميذ . أنا مش واعظ أبداً أبداً . فأرتجف المخرج وقال : أمال إيه بس . حيرتني . جربت كل الاساليب المعروفة ولا أسلوب عجبك ... والحقيقة أني شاعر بأنك تستغل صداقتنا . لأن المفروض أن المؤلف ما يتدخلش في الاخراج . التأليف شيء والاخراج شيء تاني . فثار المؤلف أكثر وأكثر وقال : أيوه يا أستاذ التأليف شيء أول والاخراج شيء تاني .. بس أنت نسيت أن المسرحية شيء تالت ، أكمل وأشمل وأرقى .. ثم تعالى هنا . أنت بتخرج إيه ؟ مش قصة ؟ .. القصة دي مش لها مؤلف ؟ .. المؤلف دا مش له فكرة ؟. إذا كنت تعرف فكرته ليه ما الفتهاش أنت ؟ وإذا كنت مش عارفها إزاي تخرجها ؟ .. إذا ما وصلتش فكرته للناس زي مـا هو عايزها ، وعارفها وكاتبها ، تبقى بتخرج قصته ولا بتألف من عندك قصة تحط عليها اسمه ؟ ... ثم شخط المؤلف في صديقه المخرج : إسمع .. أنا لا أقبل أن تمنعني عن طريق الاخراج من أن أقول إللي أنا عايزه .. قال المخرج بمسكنة:

حاضر .. عايز تقول إيه ؟ .. قال المؤلف بحزم : عايز أقول للناس أن دي مسرحية .. وأخليهم طول الوقت ما ينسوش انها مسرحية .. قصة مخلوقة مش واقع . قال المخرج بضجر : ليه بس ؟ .. قال المؤلف : علشان عايز أقولهم ان الواقع خارج المسرح . أنهم همّة الواقع . مش عايزهم يندمجوا في المسرحية وينسوا نفسهم .. مش عايز أسليهم .. عايز .. أقلقهم ..أزعجهم مش عايز أديلهم جواب على أسئلة .. عايزهم هم إللي يسألوا وهم إللي يجاوبوا .. مش عايز أطرح مشكلة واحلها ..عايز أقول لهم دوروا على المشاكل وحلوها.. بره بره .. مش في المسرح. علشان كده مش عايز حكاية الواقعية دي .. قال المخرج : بس دا خلاص . دي الستارة حتترفع . مش ممكن أغير حاجة .... فأتفقوا على أن يخرج اليكم واحد ليقول لكم خمس كلمات . أقترح المخرج أحد الممثلين . أعترض المؤلف وقال لا . الناس حتفتكر أن دا جزء من دوره . يعني تمثيل . لازم إللي يقول لهم يكون شخص حقيقي. قال المخرج : حنجيب مين .. دلوقتي ؟.. قال المؤلف مبتسماً لاول مرة .. شوف يا سيدي .. أنا عندي فكرة . الملقن . ما فيش في المسرحية كلها حد حقيقي إلا الملقن.. فجيت أقول لكم (يهرول إلى مكمنه) .. وترفع الستار .

« الحجرة مظلمة إلا من النور الأحمر يشعه مصباح أعلى إفريقيا، وهو كاف لبيان معالمها . تبدأ لوحة المصعد في العد المضيء المصحوب بجرس خافت حتى رقم ٢٠ ، ثم يفتح المصعد «اللوحة» ويخرج منه مرزوق فتضيء الحجرة دفعة واحدة . قبل أن يغلق المصعد يلتفت اليه مرزوق ويقول « مرسي مدموازيل » .. يغلق المصعد ويبدأ في النزول بينما يكون مرزوق قد جلس إلى مكتبه .»

مرزوق : (في جهاز المخاطبة الداخلي) ..سميحة .

سميحة : أفندم

مرزوق : تعالي شوية وحياتك . (يصلح من هندامه ويخرج محفظة أوراق ، يضعها أمامه . يضيء المصباح الاخضر مصحوباً بأزيز . فيضغط على زر أمامه . فيفتح الباب السري المحدد بخطوط الطول والعرض التي تقسم إفريقيا . تدخل سميحة . يضغط ثانية فيغلق الباب) .

سميحة : مساء الخير يا بيه .

مرزوق : مساء الخير يا سميحة .. فيه إيه عندي الليلة ؟

سميحة : (تقرأ من مفكرة في يدها) . فيه عند حضرتك إجتماع رؤساء الاقسام الساعة تسعة ، وميعاد مع سفير البرتغال الساعة تسعة ونص ، وحفلة رابطة تحرير إفريقيا الساعة عشرة ، وفيه ...

مرزوق : (مقاطعاً) طيب إسمعي .. فيه واحد صاحبي أسمه محمد .. محمد عباس .. حاييجي دلوقتي . هوه كلمني في البيت قلت له ييجي ... انكسفت اعتذر . قصدي مارضيتش أعتذر .. علشان دا زميل الدراسة . وما بيجيش كتير .. وكمان أنا باحبه .. آه والله يا سميحة .. أنا باحب الولد ده .. باحبه من زمان ..

سميحة : ما أنا كنت حاقول لسعادتك ...

مرزوق : (مستمراً) .. تعرفي يا سميحة ، الحب الاول مش ممكن يتنسي (مستظ فاً) مش كده والا إيه ؟ .. تصوري محمد ده كان ساكن معاي أنا وأخويا خيري .. أبو مدحت.. في أوده واحدة.. قصدي أنا وأخويا خيري الله يرحمه كنا مسكنينه معانا في أودتنا.. خمس سنين .. طول مدة الثانوي واحنا مع بعض ليل نهار ، نأكل ونشرب مع بعض كأنه أخونا .. لكن اخ ايه ؟ .. عبقري

رياضة (مستظرفاً) .. ودا بيني وبينك اللي مخلينا مسكنينه معانا.. حتة مخ .. أعوذ بالله ... ما كان لوش مثيل في الهندسة والجبر .. وبيني وبينك كان هوه اللي بيشرح لنا الرياضة .. ولولاه يمكن كنا سقطنا ..علشان في الحقيقة لا أنا ولا أخويا خيري ، الله يرحمه ، كان لينا تقل على الرياضة .. نهايته كانت أيام .. مش ممكن الواحد ينساها .. فاتت هوا .. بعد التوجيهي أنا رحت الجامعة الامريكية أدرس صحافة .. وهو راح ...

سميحة : (مقاطعة) الهندسة ؟ .

مرزوق : (ضاحكاً بأسف) .. هندسة ؟ .. هندسة ايه يا سميحة ؟ .. دخل الحقوق يا ستي . كان عايز يبقى محامي .. كان لازم يبقى محامي ... محامي طين (يضحك) ..

سميحة : غريبة .؟

مرزوق : (جاداً) .. لا غريبة ولا حاجة . الدنيا فيها العجب .. تعرفي يا سميحة المخ الرياضي ده كان لازم يبقى محامي طين ليه ؟.. لان أهله يا ستي ناس فلاحين .. فلاحين من غير أرض .. كان جنب بلدهم قطعة أرض . أرض رمل وبور .. قعدوا يصلحوا فيها ويزرعوا على قد ما قسم بيجي عشرين سنة . عايشين عليها يعني .. في يوم جاءت الحكومة عايزه تاخذها منهم وتحاسبهم كمان على إيجارها القديم . صحى الموظفين بعد عشرين سنة واكتشفوا أن أرض الناس الغلابة دول أصلها أرض حكومة . بإختصار ابتدت المنازعات والاشكالات والقضايا والمحاكم والمحامين ... المهم المحامين .. الناس تعبوا من المصاريف .. فالاستاذ محمد له عم . عم شهم وكريم .. أعرفه .. كان بييجي يزوره في أودتنا ويجيب له حمام بالفريك .. حمام ايه يا سميحة

مش ممكن الواحد ينساه .. قصدي عم الاستاذ محمد .. هذا العم يا ستي .. برم شنباته .. ولم ناسه .. وقال لهم إحنا لازم يكون لنا محامي مخصوص (ضاحكاً) .. ملاكي يعني .. إزاي يا عم الشيخ ؟ قال نبعت واحد من الولد يتعلم لغاية ما يبقى محامي ويدافع عن أرضنا من غير أتعاب .. ومهما صرفنا عليه يكون أوفر وأضمن .. وقد كان . وقعت القرعة على سي محمد .. بقت عيلته كلها تجمع من بعضها وتصرف عليه ١٥ سنة علشان يبقى محامي .. محامي طين .. وراحت مواهبه .. نهايته ..جهل يا سميحة .. ماحدش مخسر الدنيا الا الجهل (ينظر إلى ساعته) الله .. دا زمانه جه ..

سميحة : لا يا بيه .. دا موجود من ساعة سعادتك ما ندهتلي .. وقال حاستنا لغاية الميعاد ..

مرزوق : (مقاطعاً بإنزعاج ضاحك) .. الله .. الله .. إلحقي .. إلحقي لحسن يمشي حاكم طول عمره حنبلي في حكاية المواعيد .. (يفتح لها الباب ويغلقه أوتوماتيكياً) .. « ثم يقول لنفسه » : محامي قال . محامي طين .. أعوذ بالله .. يا خسارتك يا محمد .. زمانك كنت مهندس الكتروني .. مش محامي طين .. (يضيء النور الاخضر فيفتح مرزوق الباب بطريقته ثم يهرول مستقبلاً محمد عباس بالاحضان) .

مرزوق : أهلاً .. أهلاً .. إزيك يا محمد . إزيك يا راجل .. وحشتني خالص . والله ما تعرف قد إيه فرحت لما سمعت صوتك .. اقعد .. أتفضل اقعد ... (يجلس محمد أمام المكتب ومرزوق إلى مكتبه ويغلق الباب) .. أنت ليه يا راجل ما بتجيش .. دي عشرة عمر يا راجل .. طب والله يا محمد أنا جاي نص ساعة

قبل ميعادي علشان خاطرك .. ودي طول عمرها ما حصلت...

محمـــد : (يتكلم أخيراً بعد أن كان يحاول حتى رد التحية فلا يستطيع لتلاحق كلمات مرزوق) .. آه .. ما أنا سألت السكرتيرة قالت أنك حتيجي الساعة تمانية ونص .. الحقيقة قلت لازم نسيت.. وبعدين قلت أستناه لغاية الميعاد.. وإذا ما جتش أمشي...

مرزوق : تمشي ؟ !.. تمشي إزاي يا راجل .. هوه إحنا بنشوفك كل يوم .. طيب دي فرصة علشان تشوف وتتفرج على المبنى الجديد بتاع الجرنال (مشيراً بفخر) .. شايف ؟ .. شايف يا محمد يا أخويا ؟ .. (ضاحكاً) . فاكر ألاوده بتاعتنا ..

محمد : (متأملاً الحجرة) .. طبعاً فاكر .. هوه دا المكتب إللي بيقولوا عليه ؟ .

مرزوق : أيوه يا سيدي .. ما هو الناس ما بتبطلش قر.. حد عمل لي أكبر دار صحافة في الشرق ؟ .. مش شطارتي ؟ .. لكن ما علينا .. سيبك من الناس ... كلام الناس لا يودي ولا يجيب .. دا الدرس إللي تعلمته بدري . علشان كده نجحت . تعالى . تعالى قوم لما أفرجك (محمد يهم بالوقوف بدون حماس ويستمر مرزوق) .. والا أقعد .. أقعد يا راجل .. دانا ما قد متلكش حاجة .. تشرب حاجة وبعدين نتفرج .. تشرب إيه ؟ ..

محمد : قهوة .. مضبوط .

مرزوق : (ضاحكاً) .. طيب ما تشرب (يضغط على زرار على المكتب) إشرب .. إتفضل .

محمد : (متلفتاً مستغرباً) .. فين .. أشرب إيه ؟ ..

مرزوق : (مشيراً إلى طرف المكتب أمام محمد) .. قدامك قهوه مضبوط وسخنه .

محمد : (مرتبكاً) .. فين ؟

مرزوق : قدامك في المكتب .. في قرص المكتب .. فتحة .. بص فيها تلاقي فنجان القهوة وكباية ميه كمان ..

محمد : (يمد يده ويخرج صينية صغيرة عليها قهوه وماء) .. ألله .. (ضاحكاً) .. دا صحيح .. ألله .. أنت حاوي ؟.

مرزوق : (يقوم ويواجه محمداً مشيراً إلى طرف المكتب).. أمال يا بيه.. شايف الفتحات دي .. كل واحدة صنف .. قهوة .. شاي .. وسكي .. كونياك .. فودكا .. مربسه ..

محمد : (ضاحكاً) .. حتى مربسه ؟

مرزوق : أمـــال .. علشان زوار إفريقيا .. مربسه خمسة أصناف .. (يعود إلى مكتبه) تدوس هنا يطلع لك الصنف إللي أنت عايزه .

محمد : (ببرود) .. شيء لطيف .

مرزوق : شوف يا سيدي .. منا ما تشرب القهوة أوريك مدحت إبن أخويا خيري .. طبعاً تحب تشوفه .. إبن حبيبك خيري ..

محمد : قوي .. ألله يرحم والده .

مرزوق : (في جهاز المخاطبة) .. سميحة .

سميحة : أفندم .

مرزوق : خلي الاستاذ مدحت ييجي شوية وحياتك .

سميحة : حاضر .

مرزوق : (لمحمد) تاعبني الولد ده يا محمد يا خويا .. ربنا مارزقنيش أولاد يورثوني .. يورثوا كل إللي عملته وتعبت فيه ، قلت

أعمله إبني خاصة بعد أبوه ما مات .. ألله يرحمه ..ولد نبيه ، ومثقف ، وأخذ أحسن نمرة في مادة الاقتصاد السياسي ... جبته يا محمد يا خويا .. ورقيته ، خليته في سنتين مدير قسم في الجريدة .. ولا فيه فايده .

محمد : ليه ؟ .. ماله ؟ ..

مرزوق : غلطتي يا سيدي .. غلطت .. بعته أوروبا بعد التخرج .. أسبوعين مكافأة علشان أخذ إمتياز .. رجع من هناك شخص تاني .. تصور مثلاً – جاب معاه إيه من أوروبا .. أوروبا إللي أول مرة يشوفها .. تفتكر جاب إيه ؟ .. قول كده ؟ ..

محمد : (مبتسماً) .. إيه ؟ .. عروسه ؟ .

مرزوق : يا ريت .. جاب يا سيدي صندوق كتب .. كتب ممنوعة .. وأحرجني . مش بس أحرجني .. وضحك عليّ . تلغراف منه إني لازم أنتظره في المطار شخصياً .. رحت .. يا ترى إيه إللي حصل .. يا ترى إيه إللي جرى .. نهايته .. أتاري الولد العفريت عايز يدخل الكتب.. وعارف إني لما أكون أنا موجود.. طبعاً .. مفيش تفتيش .. (ضاحكاً) وفعلاً .. دخل معاه بيجي ميت كتاب أحمر .. ومن يومها وأنا اتحايل .. هنيئاً ...

محمد : هنأك ألله .. متشكر .

مرزوق : حطها مطرحها .. (مستمراً) .. اتحايل .. يا مدحت يا إبني.. بطّل مناقشة بلاش كلام .. ما فيش فايده .. دا أنا خايف يقوم عليّ عمال المطبعة .. وبيني وبينك هوه دا إللي خلاني أرقيه وأعمله رئيس قسم ... قلت أحسن طريقة علشان أحتفظ به وأكتفي شره أخليه قريب مني وأبعده عن الناس إللي تحت

(يتوقف ثم يستأنف) .. ما تقوم افرجك على ما مدحت ييجي (يقومان ويبدأن في الطواف بالحجرة) .

مرزوق : أول شيء طبعاً .. العمارة . بذمتك شفت أعلى أو أفخم منها ... عشرين دور . كل دور ينطح دور . كل شيء فيها حتى الطوب مستورد . أول ناطحة سحاب في الشرق .. ما فيها إلا عيب واحد عيب جسيم .

محمد : عيب ؟ .. إيه هوه ؟ ..

مرزوق : العشش إللي تحت . تصور عشرين دور لوكس وسط عشش ..

محمد : ومين المسؤول ؟

مرزوق : المسؤول يا سيدي التغيير الوزاري .. كنت متفق مع وزير الاشغال يشيل العشش ويعمل شارع صحافة للمنفعة العامة .. شارع مخصص لدور الصحف .. قبل ما ينزع ملكيتها نزعوه (يضحك) ولسه ما أتفقتش مع الوزير الجديد . حاولت أتصل بالناس أصحاب العشش .. أشتريها منهم .. تعرف قالوا إيه ؟ .. قالوا إحنا مش عايزين نبيع .. إعمل لنا مساكن في أي حته وإحنا نسيبها لك .. إبني لهم قال .. أنا مسؤول إبني لهم ؟ .

محمد : أمال مين المسؤول ؟

مرزوق : (يتجه إلى المكتب) .. سميحة .

سميحة : نعم .

مرزوق : مدحت جه ؟

سميحة : أيوه .. هنا ..

مرزوق : خليه ييجي .. (لمحمد) .. كنا بنقول إيه ؟ .. آه (يفتح لمدحت) دا عمك محمد عباس يا مدحت .. أكبر صديق لابوك الله

يرحمه .. لح عليّ قوي في أنه لازم يشوفك ويتعرف بيك .. مش كده .. يا محمد .

محمد : أمال (مصافحاً) .. أهلاً يا أستاذ مدحت .. دا إبن الحبيب .. إنشاء الله تطلع زي المرحوم والدك .. كان راجل عظيم . كان صادق وامين مع نفسه . كنا كلنا بنتكلم عن الوطن زيه ..وكنا بندعي الناس علشان – يضحوا . كنا عارفين الخطر الصهيوني .. النهار ده فلسطين بكره مصر . لما جه وقت الجد .. هو إللي تطوع .. وأستشهد .. ألله يرحمه .. ويطرح البركه فيك .

مدحت : (ببرود جاد) .. مرسي .

مرزوق : (لمدحت) كنت باتكلم أنا وعمك محمد عن التناقض بين دار الجريدة ، والعشش إللي تحت .. وكان بيسألني مين المسؤول ؟..

مدحت : (مقاطعاً بحده) .. المسؤول التناقض الطبقي ..

محمد : (بهدوء وابتسامه) .. ومين المسؤول عن التناقض الطبقي ..

مدحت : أسلوب الانتاج ..

محمد : ومين المسؤول عن أسلوب الانتاج ؟ ..

مدحت : أدوات الانتاج .. تطورها يعني .. درجة تطورها ..

محمد : ومين المسؤول عن أدوات الانتاج أو درجة تطورها ؟

مدحت : (متردداً) .. يعني إيه ؟ ..

محمد : يعني مين مسؤول عن صنع أدوات الانتاج وتطورها ؟

مدحت : التاريخ .. التطور التاريخي ..

محمد : ومين المسؤول عن التاريخ وتطوره .. مين إللي بيعمله ؟ ..

مرزوق : (مقاطعاً) .. يوه .. أنتم حتقلبوها مناظرة .. يا لله يا لله .. يا مدحت .. بعدين إبقى قابل عمك محمد ودور أنت وهوه عن

المسؤول . (ضاحكاً) .. إللي أعرفه أنا ، إني أنا المسؤول هنا (يفتح الباب لمدحت فيخرج متضايقاً وقبل أن يغيب) .. وعلشان أنا المسؤول يا مدحت .. أو علشان خاطري .. ما تحرجنيش في إجتماع النهار ده .. روح استعد باقي حوالي نص ساعه (يغلق الباب) ..

محمد : ما شاء ألله .. ولد عظيم .. تعرف ؟ .. أنا باسأله مش علشان أحرجه أبداً .. علشان أعرفه أكثر .. عجبني فعلاً ..

مرزوق : (متصنعاً الخوف) .. عجبك ؟ .. أوعى تكون أنت كمان (يضحكان)

محمد : ما تخافش .. مش عايز ابقى رئيس قسم .. وما تخافش على مدحت .. دي البداية النظرية .. لما يكبر ويتفاعل مع الواقع .. أفكاره تنضج .. لكن عنده إستعداد عظيم .. يا ريتك بعد ما وديته أوروبا تبعته يعيش وسط الفلاحين .

مرزوق : (مقاطعاً) .. طيب تعالى أما أفرجك .. شفت طبعاً حكاية القهوه .. (متوقفاً) .. لكن إسمع .. قبل ما تلف وأوريك .. لازم تعرف سبب دا كله .. آه .. لاحسن تغلط زي بقية الناس الحكاية دي كلها وراها سر ..

محمد : (مستغرباً) .. سر ؟ ..

مرزوق : آه .. سر .. سر علمي .. سر النجاح .. تعرف أيه هوه ؟..

محمد : قول لي ..

مرزوق : التأثير يا محمد .. التأثير هوه سر النجاح ..

محمد : التأثير في إيه ؟..

مرزوق : التأثير في الناس .. في الغير .. بدل ما الناس تأثر فيك .. أنت إللي تأثر فيهم ..

محمد : آه .. بس ما أنت بتأثر في الناس وهم بيأثروا فيك ..

مرزوق : أنا ؟ .. فشر .. أنا ما حدش يأثر فيّ .. أنا إللي أأثر بس .. وكل إللي عملته دي علشان أأثر فيهم وأنا ما أتاثرش .

محمد : (كما لو كان يريد إنهاء المناقشة) .. طيب يا أستاذ مرزوق .. أنت بتأثر في الناس والناس بتأثر فيك لدرجة أنك بتعمل .. (ضاحكاً) .. في الحقيقة خلوك تعمل دا كله علشان تأثر فيهم.. كويس ؟ .

مرزوق : أللّه .. دي فلسفة .. أهي دي الحاجات إللي ما ليش فيها ..أنا راجل عملي .. بص .. قوم .. مثلاً شايف الكرسيين دول .. تلاحظ واحد منهم أعلى من الثاني .. ليه ؟ .. علشان لما تقعّد واحد في مكان واطي وأنت فوق كلامك يبقى مؤثر حتى لو كان كلام فارغ .. الناس كده .. علماء العلاقات العامة بيقولوا كده .. شوف كمان هنا .. دا كمبيوتر .. عقل الكتروني .. ليه ؟ أنا صحيح باستفيد منه في مقالي الاسبوعي .. لكم مش هوه دا ألمهم .. ألمهم أنه لما واحد زاير يشوفه يأخد فكره كبيرة عن الجرنال .. حتى لو كان عطلان . (محمد يتأمل العقل الالكتروني بدقة ويختبر مفاتيحه) . اشغل هو لك .. أستنى (مرزوق يذهب إلى المكتب) .. سميحة .. سميحة ..

سميحة : نعم .

مرزوق : إبعتي الجرايد للتحليل (يعود إلى حيث محمد بجوار الكمبيوتر): شوف يا سيدي حانحط هنا في الفتحة إللي على اليمين الجرايد العالمية في أسبوع . وهنا في إللي على الشمال الجرايد المحلية برضه في أسبوع .. ونشغله . بعد شويه تطلع لك ورقتين .. واحدة

فيها – أهم الاحداث العالمية .. وواحدة فيها أهم الاحداث المحلية .. يقرأ ، ويراجع ويديك الخلاصة .. عجيبة مش كده ؟

محمد : فعلاً عجيب .

مرزوق : (يسمع الازيز ويرى الضؤ الاخضر فيهرول ويفتح الباب) . أهي الجرايد (تدخل فتاة خليعة تمشي مشية مغرية وتدفع أمامها حاملاً عليه مجموعتان من الصحف وتتجه نحو الجهاز بينما يتأملها محمد مبتسماً . تضع الصحف كل مجموعة في مكانها من الجهاز ثم تنسحب ..) .

محمد : (ملمحاً) .. ودا برضه للتأثير ..

مرزوق : يووه .. أمال دا المؤثر الاول .. ياما شفنا يا محمد يا خويا (يذهب إلى الخريطة) .. شايف إيه دي ..

محمد : دي أمريكا الجنوبية ..

مرزوق : (ضاحكاً) .. أنت تقول كده .. لكن لا .. دي حجرة النهاية .. نهاية التأثير .. يا ما ناس دخلوها ومعاهم (يشير إلى حيث خرجت الفتاة) .. المؤشرات .. ويطلع الواحد يا إبني يلاقي هدية من الجرنال .. فيلم كامل .. بالالوان .. ناطق وعليه الترجمة.. يفهم .. يبقى في أيدي .. وهات يا أسرار .. والاسرار على فكرة أغلى بضاعة .

محمد : أعوذ بالله

مرزوق : أمال يا إبني .. ربنا ما يوريلك .. يا محمد يا خويا دا عالم تاني عالم عجيب .. نهايته (يتجه إلى المكتب فيلمح صورة كاسترو) الله .. الله .. أنت لسه قاعد معلق هنا (في جهاز المخاطبة) .. سميحة .

سميحة : أفندم .

مرزوق : تعالي (تدخل) إيه يا سميحة ده .. مش فيه ميعاد مع سفير البرتغال ..

سميحة : أيوه يا بيه .. بس لسه معاده شويه ..

مرزوق : (مشيراً إلى صورة كاسترو) .. طيب مستنيه إيه ما تغيري .. (سميحة تتجه إلى الصورة وتسحب من ورائها صورة لسلازار وتضعها فوقها) ... مرسي يا سميحة .. (لمحمد) وآدي يا سيدي طريقة تانية .. بعد شويه حابقى من أنصار البرتغال . متحمس لها لدرجة إني معلق في مكتبي صورة سالازار . (يغلق الباب وراء سميحة) .

محمد : وأنت صحيح ؟

مرزوق : (مقاطعاً) .. صحيح إيه يا راجل .. دا شغل . حسب الظروف (يتجه نحو الباب) .. ودا يا سيدي الباب .. الباب المشهور . دا تأثيره خطير .. لأنه يتعلق بحياتي .

محمد : (مندهشاً) .. بحياتك أنت .. ليه ؟ ..

مرزوق : دا ما كانش أصلاً في التصميم . كان باب عادي . ولكن بعد الطلبه ما هاجموني هنا .. عملت الباب ده . لا يمكن حد يفتحه إلا أنا .. ومن الداخل .. تقدر تقتحمه .. شوف .. هوه والحيط واحد ..

محمد : فعلاً .

مرزوق : تعالى نقعد بأه . ونسمع حاجة هيك . أنا آسف تكلمت كثير .. لكن في الحقيقة إحنا إخوات من زمان .. فنفسي تعرف كل حاجة عني .. وخاصة الأوده دي (ضاحكاً) .. تمام زي ما كنا

عارفين خبايا أودتنا القديمة . تفضل .. تفضل (يجلس محمد) ..
شوف بأه يا سيدي .. الباب ده تصميم شركة H·A·I·F·
أكبر شركة الكترونية في أمريكا .

محمد : (يضحك بشده فينبه مرزوق ويستغرب) ..

مرزوق : إيه .. ؟ ما لك ؟ .. بتضحك كده ليه ؟ .. فيه حاجه ؟ .

محمد : (وهو يغالب الضحك) .. اتش .. إيه .. آى .. أف ..
· H·A·I·F·

مرزوق : ما لها .

محمد : بتقري بالعربي « هايف » .

مرزوق : (متضاحكاً) .. يا شيخ ودي تضحك .. أنت تقراها كده علشان بتفكر بالعربي .. وهوه دا ، لا مؤاخذه إللي يضحك .

محمد : ليه ؟

مرزوق : علشان لما تفكر بالعربي تشوف كل حاجة وتفهمها على ضؤ إللي ورثته من العرب .. ما يبقاش في مخ حضرتك إلا التركة إياها ...

محمد : طب وماله مش تركتي ..

مرزوق : تركتك ؟ .. ما تاخذ تركة تاني .. أكبر وأكثر وأغنى .. وتسيبك من الفقر .

محمد : (محاولاً أن ينهي أخر أثار الضحك) ـــ إزاي .. ؟

مرزوق : فكر إنجليزي .. فكر إنجليزي مش أتكلم إنجليزي .. فكر إنجليزي حتى لو إتكلمت عربي .. تلاقي نفسك بقيت شريكهم .. على أي حال سيبنا من السيرة دي كفاية إللي شفناه . أما نشغل الكمبيوتر (يضغط على زرار فتبدأ الانوار المتتابعة في الظهور على الشاشه) ..

محمد : (ما يزال ناظراً إلى الجهاز) ..

مرزوق : لا لا .. سيبك منه دلوقتي .. طول بالك عليه .. حياخد ييجي عشر دقايق .. لما يطل النور يبقى خلص .. أهلاً .. أهلاً ..أنت كنت قلت لي أنه معاك موضوع .

محمد : (منتبهاً) .. آه .. باختصار كده علشان ما أخدش من وقتك كمان .

مرزوق : (مقاطعاً) .. تاخد من وقتي إيه يا راجل (ببرود) خليك على راحتك لسه معانا ربع ساعة ..

محمد : المسألة أنه عندي قصة .. مسرحية .. وعايز انشرها ..

مرزوق : (متصنعا الاهتمام) .. مسرحية . ؟ . برافو .. أنت كمان بتكتب قصص ؟

محمد : أهي أول محاولة ..

مرزوق : عن إيه بأه ؟ .. الموضوع يعني .. باختصار طبعاً لغاية ما نقرأها .

محمد : عن الارض ..

مرزوق : (ضاحكاً) .. تاني .. كنت محامي طين بقيت قصصي طين (يضحك عالياً فيشاركه محمد في الضحك) .. لازم قصة قضيتكم إللي عملوك محامي علشانها (جاداً) .. ألا هي عملت إيه .. كسبتوها ؟ ..

محمد : لا كسبناها ولا خسرناها ؟

مرزوق : إزاي ؟

محمد : لما قربنا نكسبها باعتبارنا واضعين اليد أكثر من ١٥ سنة الحكومة عملت قانون بأن الارض إللي تعتبرها الحكومة أرضها تبقي أرضها وما حدش يملكها بوضع اليد .

مرزوق : كده .. قانون ؟ .

محمد : (مبتسماً) .. آه .. فانتهت بحكم القانون ..

مرزوق : ما علهش .. أديك طلعت منها بقصة .. إيه بأه فكرتك إللي في القصة ..؟

محمد : والله الحقيقة مش فكرتي .. فكرة المرحوم عمي ..

مرزوق : عمك ؟ .. (مشيراً إلى شواربه) ..

محمد : أيوه .. لما طلع القانون وعرف .. شرحتوله . قام دخل الدار وقال يبقى ما فيش فايده ناخد الارض إلا إذا بقينا إحنا الحكومة (مرزوق يضحك ومحمد مستمر في حزن) .. قالها ودخل ما طلعش .. مات كمداً .

مرزوق : (متصنعاً الأسى) ... لا حول وقوة إلا بالله ... مات ؟

محمد : أيوه مات . كانت الارض حياته . لما راحت الارض مات . عليه رحمة الله .. كان أميّ ولكن يقدر المسؤولية . كافح كافح.. ولما خسر إنسحب .. على أي حال .. كلمته رسخت في مخي . وكل ما أفكر فيها ألاقيها معقولة .

مرزوق : (مقاطعاً) .. معقولة ؟ ..

محمد : آه .. يعني بعد معالجتها بمنطق علمي ..

مرزوق : تعالج إيه يا راجل .. تعالجها إزاي .. تبقو .. أنتم .. لامؤاخذه .. الحكومة ...؟

محمد : لا .. يعني الارض تملكها الحكومة .. بشرط أن الشعب يملك الحكومة .

مرزوق : (بشبه إستنكار) .. يعني إيه ؟

محمد : يعني تبقى الحكومة ديموقراطية .. فتحل مشكلة الارض .

مرزوق : كده ؟ .. بالبساطة دي . تبقى الحكومة ديموقراطية .. فتنحل مشكلة الارض .. إزاي .

محمد : لما تقرأ القصة حتعرف الجواب . لأن القصة كلها معمولة علشان تدخل الفكرة دي في دماغ القارئ . وأنا حتى مرضيتش أعمله بحث قانوني أو إقتصادي من بساطتها يمكن الاقتناع بيها من غير أبحاث .

مرزوق : (ضجرا) .. وبعدين ؟ ..

محمد : وبعدين عايز أنشرها .

مرزوق : وإيه إللي مانعك .. ما تنشرها .. والله فعلاً فكرة ظريفة .

محمد : ما أعرفش المسؤول عن الرقابة .. الا هو مين المسؤول ؟ ..

مرزوق : (ضاحكاً) .. الحرب يا سيدي ؟

محمد : الحرب ؟ .. الحرب إنتهت من أربع سنين ..

مرزوق : على أي حال يا محمد .. أنت تاعب نفسك وحتتعب نفسك طول ما كل حاجة عايز تعرف المسؤول عنها .

محمد : (ضاحكاً) .. طيب بلاش .. مش أنت المسؤول هنا ؟

مرزوق : أيوه .

محمد : انشرها هنا .. في الجريدة .. على أجزاء .. أنا جاي فعلاً علشان كده .

مرزوق : (ضاحكاً) .. هنا ؟ .. ليه ؟ .. أشمعنى يعني ؟ ..

محمد : علشان الرقابة ما بتوصلش هنا .

مرزوق : آه .. صحيح .. لكن ما دام قصة .. أحسن تطلع على بعضها في كتاب . خد (يعطيه بطاقة كان قد أخرجها وكتب عليها شيئاً) .. خد الكرت ده ووديه للاستاذ أمين حافظ في الرقابة .. وربنا يسهل .

محمد : يسهل إزاي ؟ .. ما هو الرقيب المسؤول ..

مرزوق : (مقاطعاً) .. يا أخي إفهم بأه .. قصتك حتتنشر بدون رقابه ... كويس ؟

محمد : متشكر على أي حال .. أستأذن أنا بأه ..

مرزوق : (ببرود) شرفت يا محمد .. متنساش .. في أي وقت . إتصل بسميحة وهي تحدد لك ميعاد . (يقف فيقف محمد ويهم بالانصراف) .. لكن أستنى . الكمبيوتر وقف .. تعالى نشوف النتيجة (يستخرج من الجهاز ورقتين يعود بعدهما وهو يقرأ) خلاصة الصحف المحلية وأهم أحداث الاسبوع . (يضحك) . ألله .. لا شيء . تصور التخريف الالكتروني . لا شيء . يعني كل إللي إنكتب كلام فارغ .. صحيح تخريف . ولا شوف الادهى . خلاصة الصحف العالمية (يقرأ متمهلاً وجاداً) « تيتو يقول في رده على ستالين أن لكل أمة أن تقيم النظام الاشتراكي الذي يتفق مع تكوينها الاجتماعي وخصائصها القومية وتراثها الحضاري .. ب . م . ت . ج . »

محمد : إيه ؟

مرزوق : ب .. م .. ت .. ج ..

محمد : يعني إيه ؟

مرزوق : يعني يا سيدي .. بدء ، مرحلة ، تاريخيه ، جديدة .. غريبة .. دي ماتقاليتش إلا سنة ١٩٤٥ لما ظهرت القنبلة الذرية (كما لو كان يخاطب نفسه) .. يعني الاربع كلمات بتوع تيتو في مستوى القنبلة الذرية .. غريبة .. نهايته . (يضع الورقتين على المكتب ثم لمحمد) .. شرفت يا محمد ..

محمد : (مسلماً) .. متشكر قوي .. (ينصرف مستعجلاً) ..

مرزوق : أستنى .. أستنى لما أفتح لك الباب (يفتح ويخرج محمد ويغلق) . صحيح . محامي طين .. نهايته .. نرجع لشغلنا .. سميحة ..

سميحة : نعم ..

مرزوق : خلي الاساتذه يتفضلوا (يطلب رقماً في التليفون الاحمر .. وبعد برهة يقف فجأة وباحترام كبير يتحدث هامساً وينحني محيياً عندما تنتهي المكالمة يفتح الباب ويدخل أربعة أشخاص حاملين ملفات متشابهة منهم مدحت ويجلسون إلى منضدة الاجتماعات .. ناظرين إلى المكتب حيث يخاطبهم مرزوق) .

مرزوق : أنا قريت طبعاً التقارير بتاعتكم عن سياسة الجريدة للسنة الجاية .. وما أقدرش أنكر أن عندكم أفكار جيدة خاصة (ناظراً إلى مدحت) عن دور الجريدة في خدمة التطور الاجتماعي .. وأنا كنت ناوي أناقشكم فيها بالتفصيل .. لكن أخينا إللي كان عندي خد وقت كثير .. عطلنا .. فأنا حاختصر في الاجتماع ده .. ونبقى نتناقش تاني .. بس أحب أقول لكم .. أن كلكم (ناظرا إلى مدحت) .. كلكم بدون إستثناء نسيتم نقطة هامة تعرفوا إيه ؟ .. نسيتم أن دي مؤسسة .. مؤسسة لازم تقوم وتنجح أولاً .. قبل ما تقدر تعمل حاجة علشان التطور الاجتماعي . فيه منافسة من الجرايد الثانية .. لازم نهزمها أولاً . نصفيها .. نقتلها .. علشان نتفرغ للتطور الاجتماعي .. علشان كده ولا واحد منكم قدّم إقتراحات جديدة بالنسبة لاهم شيء لاي مؤسسة صحفية .. أقصد طبعاً الاعلانات .. والعلاقات .. العلاقات العامة .. إزاي نأخذها كلها لينا .. علشان ننتصر . (بقرف) .. إتفضلوا وحنبقى نتكلم تاني (يقفون ويهمون بالانصراف) .. خليك شويه أنت يا مدحت .. عايزك (ينصرفون ما عدا مدحت ويغلق الباب) ..

مرزوق : (لمدحت جانبا) ... إيه ده يا مدحت .. أنت مش حتعقل بأه .

مدحت : ليه .. فيه إيه ؟ ..

مرزوق : فيه إيه إزاي ؟ .. أنا أجلت المناقشة علشان الكلام إللي أنت كاتبه في تقريرك (ثم بحنان أقرب إلى التوسل) .. يا مدحت يا ابني يا حبيبي .. حرام عليك .. أنت عارف يا مدحت أنت أيه بالنسبة لي وبالنسبة لوالدتك . يا ابني الدنيا مش زي ما أنت متصورها . وأنا أكبر منك وعارف حاجات كتير أنت متعرفهاش .. أرجوك يا مدحت .. ما نقدرش يا إبني نتحمل مصيبتين واحدة في والدك ألله يرحمه وواحده فيك .. هات .. هات . نسخة التقرير إللي معاك أخبيها (يقطع حديثه فجأة وتبدو عليه الدهشة والفزع عندما يرى الرجل الدميه قد دخل من الباب بدون أن يضيء .. المصباح وبدون أن يفتحه هو ويتجه رأساً إلى مدحت حيث يقبض عليه ويجره إلى الخارج ثم يغلق الباب تلقائياً) .

مرزوق : ألله .. ألله .. أيوه .. أيوه .. لكن (ينظر إلى الباب والمصباح ثم يهرول إلى مكتبه فيكتب كلمات قليلة سريعا على ورقة ويندفع فيلقي بها في العقل الالكتروني ويجري إلى المكتب فيشغله ويجري عائداً ينتظر الاجابة التي تأتيه بعد برهة قليلة فيأخذها وينظر اليها مفزوعاً ويتجه إلى مكتبه فيجلس ثم يقرأ بمرارة) .. « ممثل شركة H.A.I.F. . » لا حول ولا قوة إلا بالله (منهاراً علىمكتبه) لكن .. لكن .. لكن .. دا مدحت .. إبني .. (يبكي) .. يا حبيبي يا مدحت .

...ستار ...

ـ الفصل الثاني ـ

المكان : حجرة قديمة من المباني الحكومية يشغلها قسم الرقابة على المطبوعات . على اليمين مكتبان متجاوران . وعلى اليسار مكتبان متجاوران . وفي الناحية المقابلة باب مفتوح على ممر . بجوار الباب داخل الحجرة مكتب كبير مكدسة عليه الاوراق والملفات ، بجواره ، على يمينه ، خزانة كتب مليئة . في وسط الحجرة منضدة كبيرة عليها أكوام من الكتب المطبوعة وغير المطبوعة . مقاعد متناثرة .

الاشخاص :

١ ــ متولي جمعه : رئيس القسم .
بدين . كسول . مشغول دائماً بحل الغاز الكلمات المتقاطعة. يتهرب من المسؤولية . وينافق في الوقت ذاته .

٢ ــ أمين حافظ : المراجع .
شاب أنيق في مبالغة . يبدو عليه الثراء . معجب بنفسه .

٣ ــ إبراهيم وهبه . موظف
رجل مخضرم ، ثرثار ، لا يعمل ، ويناقش العمل دائماً .

٤ ــ سمير حلمي : موظف .
شاب جاد .

٥ ــ فكريه حمزه : موظفة
أنها جامعية حديثة التخرج ، تأخذ عملها بجدية مثالية .
٦ ــ عبده : فراش
٧ ــ علوي محمود : مؤلف
٨ ــ محمد عباس .
٩ ــ الرجل الدمية .

الوقت : الساعة التاسعة صباحاً .
(عندما يرفع الستار تكون الحجرة خالية إلا من عبده الفراش ، وهو يهش على المكاتب بمنفضة عتيقة ثم يخرج ويجلس على مقعد في الممر أمام الباب . يقف فجأة ويدخل متولي ممسكاً بصحيفة نصف مطوية وفي يده قلم ويبدو مهموماً .)

متولي : صباح الخير يا عبده . (يذهب إلى مكتبه مباشرة وينكب على حل لغز الكلمات المتقاطعة في الصحيفة) .

سمير : (داخلاً) صباح الخير يا أستاذ متولي (يجلس إلى مكتبه على يسار متولي ويخرج كتباً وأوراقاً ويبدأ عمله) .

متولي : (يرفع رأسه) .. مين ؟ . سمير ؟ . صباح الخير يا ابني (يعود إلى الغازه) .

عبده : (حاملاً فنجان قهوة لسمير) . القهوة يا سمير بيه ..

سمير : متشكر يا عم عبده . حطها هنا ..

عبده : (لمتولي) . مش عايز حاجة يا متولي بيه . البن النهار ده حلو قوي ..

متولي : (بدون أن يرفع رأسه) . لا يا أخي .. مش عايز حاجة . حلو مر وأنا مالي (ينصرف عبده مبتسماً) .

إبراهيم : (داخلا) . صباح الخير يا جماعه (يردون ويجلس إبراهيم على يسار سمير وينشر صحيفة ويبدأ في القراءة).

عبده : صباح الخير يا إبراهيم بيه .. تفضل الشاي والسندويتش ..

إبراهيم : (بدون أن ينظر اليه) . متشكر حطه هنا لما أكمل القسم إللي بقراه .. (بعد برهة) .. أعوذ بالله .. إيه ده ؟ . إيه ده ؟. الدنيا بقت زفت والله الواحد ما ناقصه إلا يهاجر .. دي بلد دي ؟ ..

سمير : (ملتفتا عن عمله إلى إبراهيم) خيريا أستاذ إبراهيم .. فيه إيه ؟.

إبراهيم : حاجة مش معقول يا أخي .. هو ربنا غضبان علينا من قليل (لمتولي) شوف يا أستاذ بيقولوا إيه ..

متولي : (بدون أن يرفع رأسه) .. ما يقولوا إللي يقولوه .. وأنا مالي ..

سمير : (جاداً) . صحيح فيه إيه يا أستاذ إبراهيم .. مين إللي بيقول ... وبيقول إيه ؟ ..

إبراهيم : والغريب إني أنا كنت هناك .. شفت كل حاجة بعيني .. المدافعين كلهم كنت شايفهم .. ومتتبع الهجوم من أول لحظة .. ومع ذلك يضللوا علينا .. أقول لكم الحق .. إحنا مش ممكن نتقدم أبداً ...

سمير : (يترك القلم) .. أرجوك يا أستاذ إبراهيم .. شغلتنا ..فيه إيه ؟ .. دفاع إيه ، وهجوم إيه ؟ .. حصلت حاجة في الجبهة .. أصلي ما قريتش جرايد الصبح .

إبراهيم : (ملتفتاً لاول مرة عن الصحيفة) .. يا أستاذ سمير .. أقسم لك بأولادي التسعة أنا كنت واقف على الخط .. وشفت الباك لفت في حلق الجون ... والونج رايت بتاعنا رقص الباقيين وشاط من عند خط الثمانية .. حتة جون . لكن فني .. ومع ذلك النقاد بيقولوا تسلل .. بذمتك مش حاجة تفور الدم . وتكّره الواحد في عيشته .

سمير : (بهدوء وخيبة أمل) . معليش يا أستاذ إبراهيم .. بسيطة (ينصرف إلى عمله) .

إبراهيم : بسيطة ؟ .. بسيطة إيه وزفت إيه ؟ .. حنقعد نقول بسيطة .. معلهش .. لغاية البلد ما تخرب (يلقي الصحيفة بعصبية) .. أما نقطر أحسن (وهو يشرب الشاي) .. بسيطة آل .. لما يقولوا تسلل .. ويلفوا الجون ... يبقى إيه اللي فاضل في الدنيا ..

أمين : (يدخل متثاقلاً كأنه لم ينم) .. صباح الخير يا أساتذة .. (يردون ما عدا متولي) ..

متولي : (يرفع رأسه ويبتسم) . مين ؟ .. أمين ؟ .. الاستاذ أمين ؟ .. أهلاً ... أهلاً . صباح الخير .. مالك .

أمين : صباح الخير يا أستاذ متولي . والله تعبان شويه . أصلي ما نمتش كويس ... الاوبرج صعب أوي يا أخي .. لوش الصبح .

متولي : راعي صحتك يا أمين يا ابني (مستشرفاً) .. ما تبعثرش شبابك .. وازاى صحة سعادة البيه ؟ .

أمين : كويس.. والحمد لله .. (منادياً) .. عبده .. عبده.. هوّه فين ؟..

عبده : (مهرولاً) .. أنا هنا يا سعادة البيه .. بس لما شفت سعادتك جاي جريت على البوفيه علشان أحضر لك الشاي بنفسي .. إتفضل أهه ..

أمين : لا بلاش شاي يا عبده النهارده .. والنبي أنا عايز فنجان قهوة ساده .

عبده : حاضر .. والشاي ؟ .

أمين : (معنّفاً) .. إشربه يا أخي .. ارميه .. أنا قلت لك هات شاي .. وإلا حتشربني على مزاجك ..

عبده : حاضر .. حاضر .. بس ما تزعلش (ينصرف) .

أمين : (ملتفتاً إلى المكتب الذي على يمينه) .. الله .. هيه الاستاذة

فكريه لسه ماجتش وإلا إيه ؟ .. أستاذ متولي .. هية الاستاذة فكرية متأخرة ليه ؟ ..

متولي : ما تتأخر يا أستاذ أمين .. وأنا مالي ..

أمين : (ببرود) .. وأنا مالي .. وأنا مالي .. حتّى في دي وأنت مالك ..

متولي : يا أستاذ أمين أنا بقالي سنتين على المعاش .. تعرف بقالي كام سنة موظف . ثلاث وثلاثين سنة.. ثلاث وثلاثين سنة مافيش غلطة.. مافيش لفت نظر. مافيش جزا .. ملفي نضيف زي الفل .. ليه ؟ علشان ما ليش دعوه ... إللي قبلي علموني .. أي حاجة .. وأنا مالي ..

سمير : (لأمين) .. خلّي الاستاذ متولي في شغله يا أستاذ أمين ..

متولي : (رافعاً رأسه مرة أخرى مخاطباً سمير) .. الا قول لي يا سمير.. إيه الكلمة المكونة من أربع حروف تطلق على (يقرأ) .. « سيارة غير ذاتية الحركة » .

إبراهيم : إيه . إيه ؟ .. غير إيه ؟ .

متولي : غير ذاتية الحركة .

عبده : (يدخل ببطاقة يناولها للاستاذ أمين .. فيقرأها) ..

أمين : خليه يدخل .. والا إسمع .. بعد خمس دقايق كده .. قل له إني مشغول شويه خمس دقايق ..

إبراهيم : (في ذات الوقت) .. تبقى إيه دي غير ذاتية الحركة .. سيارة ؟.. آه أوبل .

متولي : لا . لا . لا . يكون أولها كاف علشان تمشي مع الكلمات الرأسية . إيه يا أستاذ سمير .. ما قلتش .

سمير : كارو .

إبراهيم : إيه ؟ .. كارو ؟ ..

متولي : (يكتب) .. ك .. أ .. ر .. و .. أي والله تمام .. برافو يا أستاذ

سمير .. أنت عبقري .. أما حتة كلمة .. ما خلتنيش أنام .. حاكم داجرنال أمبارح .. تصدقوا بالله .. والله .. ما عرفت إتعشى .. أنا والاولاد وأمهم طول السهرة نحاول (هازا رأسه) : إيه قال .. غير ذاتية الحركة .. لكن يا أستاذ سمير ما قلتليش يعني إيه غير ذاتية الحركة .. يعني إيه العربية الكارو تبقى غير ذاتية الحركة .

سمير : يعني بيجرها حمار .. (ضحك) .

إبراهيم : تعرف دي سخافة من اللي عامل الكلمات دي.. سخافة وتأخر.. إحنا مش ممكن نتقدم أبداً .. يعني ما لاقاش إلا غير ذاتية الحركة.. طيب يشوف حاجة راقية .. ما هو كلمة «كارو » في الكتشينة.. لازم يعني يبقى فيها حمير ..

متولي : أيوالله يا أخي .. إختيار سخيف ..

سمير : (ضاحكاً) .. ما تراقبه يا أستاذ متولي .. قصدي كلّم زميلك في قسم الرقابة على الصحف إذا كانت الكلمات صعبة يشطبها.

متولي : على إيه .. وأنا مالي .

علوي : (يدخل مبتسماً متجهاً إلىإبراهيم . يأخذ كرسي ويجلس أمامه) . صباح الخير يا إبراهيم بيه .. إزيك ..

إبراهيم : (ببرود وهو ما يزال يقرأ في الصحيفة) .. صباح الخير يا أستاذ .

علوي : (مستظرفاً) . ألله .. دا أنت بتقرا في جريدة « الخبر » .. طيب والله عال دا من حسن حظي .

إبراهيم : (بامتعاض) .. ليه بأه ..

علوي : ليه إزاي .. أنت ما قريتش الاعلان في صفحة ٦ عندك . إعلان كبير عن كتابي إللي مع حضرتك .

إبراهيم : كتابك إللي مع حضرتي ؟ .. إللي لسه ما تصرحش بيه ؟ ..

علوي : آه .. تمام .. أصل بأه الناشر مستعجل .. لما حضرتك قلت لي

الشهر إللي فات .. تعالى بعد شهر تلاقيه خلص .. وقلت له كده .. قعدنا نعد الايام .. يوم .. يوم .. لغاية النهار ده .. أنا جيت آخذ التصريح .. وهو نشر الاعلان . (بلهجة دعائية) قريباً يصدر كتاب حرية الانسان ..

إبراهيم : (مقاطعاً) .. ياه .. دا متفائل .. أوي ..

علوي : (مصدوماً) .. ليه .. هوه الكتاب ما خلصش ؟ ..

إبراهيم : لا ماخلصش.. لسه بدري .. والظاهر أنه حياخد وقت طويل..

علوي : لا . لا . يا أستاذ إبراهيم .. دي تالت مرة آجي تقول لي تعالى بعد شهر .. وإلا إيه يا أستاذ متولي .

متولي : (بدون أن يرفع رأسه) .. وأنا مالي .. عندك الاستاذ المختص .

علوي : (متراجعاً) . إيه يا أستاذ إبراهيم ؟ ..

إبراهيم : (بدون مبالاة) .. روح إشتكيني ..

علوي : (خاضعاً) .. ليه بس ؟ .. لا سامح الله .. أشتكيك ليه ؟ ..

إبراهيم : (مشيراً برأسه إلى متولي) . ما أنت إشتكيتني أهو .. وإلا دي مش شكوى .

علوي : (راجياً) . متأسف يا إبراهيم بيه .. بس ما تزعلش .. أنت برضه كلك نظر وتقدّر الظروف .. بقالي سنتين أكتب وثلاث أشهر رقابة ولسه ما خلصش .. وأنا كمان زي ما أنت عارف .. دي شغلتي .. يعني باكل عيش من قلمي ..

إبراهيم : (مقاطعاً بحدة) . طيب يا أخي ما تخلي قلمك سهل علشان تبقى عيشتك سهلة .. وتسهل لنا إحنا كمان شغلنا ..

علوي : (مأخوذاً) ليه بس ؟ .. فيه إيه ؟ .. ما تقول لي .. طيب باقي كام صفحة ..؟

إبراهيم : باقي الكتاب كله ..

علوي : ليه .. حضرتك ما قريتش منه حاجة ؟ ..

إبراهيم : قريت أول جملة .

علوي : وبعدين ؟ ..

إبراهيم : وبعدين ما بلعتهاش .. وقفت في زوري .. ولسه واقفه لغاية دلوقتي ..

علوي : (غاضباً) .. شوف يا أستاذ إبراهيم .. إذا كان الامر كده يبقى لازم . لا بد من حل جذري .. يعني إيه قريت جملة في شهر ووقفت في زورك .. ؟

إبراهيم : (مقاطعاً في حدة) .. أنا با أدي واجبي .. وأنت ما تتحمقش عليّ .. أنا مش موظف عندك.. آه .. ثم إسمع امّا أقول لك .. أنا صحيح مش جامعي .. ماخدتش شهادة في الفلسفة زيك .. لكن لي عشرين سنة في الرقابة .. قريت كل إللي تكتب .. وشفت وتعلمت . ياما مرت عليّ ناس زيك .. أنتم يا أستاذ .. لما بتألفوا كتب يبقى أول همكم إزاي تفوتوها علينا .. عايزينا إحنا نتحمل مسؤولية كلامكم إللي كله لف ودوران ..

علوي : لا . لا . أنا ما إسمحلكش تقول لف ودوران ..

سمير : (متدخلاً) . إيه الحكاية يا جماعة .. فيه إيه بس يا أستاذ إبراهيم .. روقّ يا أستاذ علوي . طوّل بالك (يقوم ويقف بينهما) . فيه إيه يا أستاذ إبراهيم ؟ ..

إبراهيم : (منفعلاً يخرج كتاباً من الدرج ويفتحه على أول صفحة) .. تفضل شوف يا أستاذ سمير .. بص .. إقرا كده .. إقرا الكلام إللي الاستاذ عايز يأكلو ليّ .. عايز هوه كتابه يتنشر والناس تقول قال .. يبقى هوه بطل .. وأنا أتفضل ..

سمير : (يقرأ) .. قال جان جاك روسوولد الانسان حراً ..

علوي : (مندهشاً) هيه دي .. طيب ودي فيها إيه .. (ينظر إلى سمير الذي يترك الكتاب .. وينسحب إلى مكتبه معبراً عن رفضه لموقف إبراهيم . هه .. فيها إيه دي ؟ .

إبراهيم : فيها إيه ... يا سلام .. طيب أنت بتكتبها ليه .. عايز تقول إيه يعني ..

علوي : يا أستاذ دي بديهية ..

إبراهيم : طيب لما هيه بديهية أنت بتكتبها ليه .. بديهية يعني الناس كلها عارفاها .. أنت بأه .. بتكتبها ليه .. عايز تقول لهم يا ناس أنتم نسيتو أن الانسان ولد حراً .. يبقى معناها إيه ؟ .. أنكم يا ناس مش أحرار ..

علوي : الله . الله . إيه التفسير دا كله ..؟

إبراهيم : (مستمراً بانفعال) .. ثم يا أستاذ .. روسو قالها أمته ؟ .. ما تقول مش قالها قبل الثورة الفرنساوية .. ومش مكتوب في الكتب أنها مهدت للثورة ... يبقى أنت عايز تروح فيه بالكلام دا كله. وإلا فاكرني غبي .. إحنا يا أستاذ مش بنراقب إللي في السطور .. ولا إللي بين السطور .. لا .. بنراقب إللي في الصدور .. ما هو المكتوب قبل ما تجيبه هنا راجعته مرة وإثنين .. ويمكن ورّيته لمحامي كمان .. أما انك تيجي دلوقتي .. في هذا الوقت بالذات .. واخد بالك .. وتطلع كتاب أول كلمة فيه قال جان جاك روسو مش عارف إيه . مش ممكن ينطلي عليّ .. مش ممكن ينطلي عليّ يا إبراهيم .. والا أنت مش عارف إبراهيم ..

علوي : يا أستاذ إبراهيم حلمك ..

إبراهيم : (مقاطعاً) .. شوف لا حلمي ولا حاجة .. قصر الكلام .. أولاً الجملة دي مشطوبة .. وبعدين تفوت عليّ بعد شهر أكون قريت الباقي .. وإذا ما كانش عاجبك روح أشتكيني .. قدامك الرئيس أهه ..

متولي : وأنا مالي يا أستاذ إبراهيم أنت المختص ..

علوي : أمري لله (ينهض متخاذلاً) أمري لله يا أستاذ إبراهيم .. حافوت

عليك بعد شهر (يخرج منكساً رأسه فيصطدم بالاستاذة فكريه داخله مندفعة وفي يدها كتاب) .

فكريه : حاسب يا أستاذ .. صباح الخير يا جماعة (تجلس إلى مكتبها).. أعوذ بالله .

أمين : إيه يا أستاذه فكريه تأخرتي قوي (لعبده) .. عبده .. خلي الاستاذ ييجي .

فكريه : (متجاهلة أمين) .. شوف يا أستاذ متولي .. الحكاية مش نافعة.. إحنا مش ممكن نشتغل كده (تتوقف عن الحديث عندما يدخل محمد عباس حاملاً حافظة) ..

محمد : صباح الخير (لابراهيم أكبرهم سناً) .. مين والله المسؤول هنا .

إبراهيم : مسؤول عن إيه .

محمد : المسؤول (يراقبه الجميع) .

إبراهيم : أيوه المسؤول عن إيه .. القهوة والشاي والنظافة مسؤول عنها عبده .... المكاتب مسؤول عنها المخزنجي .. الكتب مسؤول عنها أصحابها .. أنت بقى عايز أنهي مسؤول ..

محمد : لا قصدي المسؤول عن تصاريح النشر ..

إبراهيم : أهو عندك (مشيراً) متولي بيه الريس ..

محمد : أنا لو سمحت عايز الاستاذ أمين حافظ .. أنا محمد عباس ..

أمين : (ناهضاً) .. أهلاً وسهلاً .. تفضل يا أستاذ محمد ..أنا أمين حافظ .. لا مؤاخذه إذا كنت أخرتك شويه .. أصلي كنت مشغول ..

محمد : لا معلهش (يذهب ليجلس أمام أمين حافظ) ..

إبراهيم : (منهمكاً) طيب يا أستاذ محمد لما أنت عايز الاستاذ أمين بالذات.. إيه الداعي تسأل عن المسؤول .

محمد : أصلي الفراش قال أدخل وسابني فأنا ...

أمين : (مقاطعاً) من فضلك يا أستاذ إبراهيم .. جرى خير يا أستاذ محمد .. (يبدأ حديث هامس بينه وبين محمد عباس يخرج أثناءه ويعود ومعه أوراق يكتبها ويعرضها على متولي ثم يجلس ويضيف اليها .. وأثناء ذلك ..

فكريه : يا أستاذ متولي .. كنت باقول مش ممكن نقدر نشتغل كده ..

متولي : بس يا بنتي ...

فكريه : (تذهب اليه وهي تخاطب الجميع) .. يا أستاذ متولي إزاي نقدر نشتغل إذا كنا إحنا .. إحنا إللي بنراجع الكتب ونراقبها .. ما عندناش مكتبه ... لازم يبقى عندنا مكتبه يا أستاذ متولي ..

متولي : وأنا مالي يا بنتي

إبراهيم : مكتبه ؟ .. مكتبه ليه ؟ .. أيه لزوم المكتبه ؟ ..

فكريه : يا أستاذ إبراهيم .. المؤلف بيقول فلان قال .. وفلان عاد .. وبيجيب كلامهم .. طيب إفرض أنا عايزه أعرف إذا كان فلان دا قال كده وإلا لا .. أعرف إزاي من غير مكتبه ..

إبراهيم : يا أستاذه فكريه ، أنت تاعبه نفسك بدون داعي .. أصلك لسه شباب ... أنت مش بتراقبي إذا كان المؤلف صادق أو كاذب. أنتي بتراقبي الكلام نفسه .. مناسب أو لأ ..

فكريه : دا صحيح يا أستاذ إبراهيم .. ولكن لما يكون المؤلف بينقل كلام سبق نشره في كتب موجودة في السوق .. أو في الجامعة مثلاً .. يبقى خلاص — حاراقبه ليه ..

سمير : فعلاً ..

إبراهيم : والله دا رأيكم .. أنا شخصياً مليش دعوه باللي إتنشر واللي ما تنشرش ... كل وقت له أحكام ..

سمير : لا يا أستاذ إبراهيم .. ما دام الكلام موجود .. ويمكن ناس بتقراه فعلاً .. إيه لازمة منع نشره في كتاب تاني ..

إبراهيم : أنا كده ..

سمير : (لفكريه) .. هوه إيه النص إللي عايزه تعرفيه يا أستاذه فكريه..

فكريه : (تفتح الكتاب) .. هوه نص غريب شويه . إسمع يا أستاذ سمير (ترفع رأسها عن الكتاب) .. تعرف أنا لسه جايه من كلية الحقوق .. دورت في المكتبه على المرجع مالقيتوش .. لكن من ناحيه ثانية مش معقول المؤلف يخترع نص بالشكل ده ..

سمير : طيب بس إيه هوه النص ..

فكريه : بيقول يا سيدي (تقرأ ببطء وتأمل) ..« إن القانون ليس هو المبدأ الأساسي الذي يحكم العالم .. إنه ليس غاية في ذاته ، بل وسيلة لتحقيق غاية ، هي الحفاظ على المجتمع الانساني . فإذا لم يستطع المجتمع أن يحافظ على وجوده في ظل القانون ، وعجز القانون عن إداء غايته، فإن القوة كفيلة بتصحيح الوضع المختل. إن الحياة فوق القانون . وعندما يصبح المجتمع في موقف الخيار بين إحترام القانون والحفاظ على الوجود فلا محل للتردد وعلى القوة أن تضحي بالقانون لتنقذ الأمة . »

إبراهيم : (منزعجاً) .. يا خبر .. أشطبي .. أشطبي .. دي ثورة .

سمير : طول بالك يا أستاذ إبراهيم .. (لفكريه) .. إنما بيقول مين إللي قاله .. المرجع يعني ..

فكريه : واحد .. أستاذ قانون .. اسمه اهرنج ..

محمد : (متدخلا) .. فعلا .. اهرنج قال كده .. لا مؤاخذة أصلي محامي .. وعارف النص .. دا تلاقيه يا أستاذه في كل كتب قانون العقوبات إللي بيدرسوها في سنة أولى حقوق .. إنما المرجع الأصلي في المكتبه العامة بتاعة الجامعة فيه نسخة واحدة ..

فكرية : متشكرة أوي يا استاذ (تعود الى مكتبها وتبدأ في الكتابة) ..

محمد : العفو (يوالي مراقبة أمين حافظ وهو يكتب) ..

سمير : شايفه . أهي تحلت يا ستي ..

فكريه : آه .. تحلت صدفة .. حنقعد دايماً متكلين على الصدف ..

إبراهيم : طيب بكره نشوف تحلت ولا تعقدت.. يا أستاذه فكريه مالكيش دعوه بالراجل اهرنج ده .. أنا قلت لك وأنت حره .. دي دعوه صريحة للثورة ..

سمير : (مبتسماً في خبث) .. يا أستاذ إبراهيم دا رأيك أنت ..

إبراهيم : (مقاطعاً) .. طبعاً رأيي .. ومتمسك بيه .. وبكره ...

سمير : (يكاد يضحك) .. طيب بس حلمك .. الراجل بيقول « إذا » . واخد بالك .. إذا .. فشل القانون في المحافظة على سلامة الأمة .. تبقى ثورة .. فليه أنت متصور أن دي دعوة للثورة هنا .. تكونش فاكر أن – القانون فشل فعلاً (يضحك الجميع ويرتبك إبراهيم إرتباكاً ظاهراً) ..

إبراهيم : أنا . أنا . لا .. لا .. أعوذ بالله .. أمال إحنا بنعمل إيه .. ما إحنا بننفذ القانون علشان نحافظ على البلد .. كمان بتضحك .... والله ما تبقاش تهزر في الحاجات دي يا سمير .. خليها تعدي على خير .. نشتغل أحسن (يبدأ عمله لاول مرة) ..

أمين : (لمحمد عباس) .. خلاص يا سيدي .. هات النسخ (يأخذ منه نسختين ويقدمها مع الأوراق التي كتبها إلى الاستاذ متولي الذي يوقع تصريح النشر بدون أن يقرأ . يؤشر على نسخة ويردها ويدس نسخة أسفل حافظة الكتب) .

أمين : (مسلماً على محمد عباس) .. مبروك يا سيدي .. أي خدمة .. إبقى سلم على البيه ..

محمد : متشكر خالص .. متشكر .. متشكر السلام عليكم (ينصرف فرحاً) ..

سمير : تفضل يا أستاذ أمين آدي التقرير . أصل وصورة .. وآدي الكتاب (يضعهما أمامه) ..

أمين : طيب .

سمير : مش حتراجعه .. صاحبه مستعجل شويه ..

أمين : يا سيدي حاراجعه .. بكره يكون خلص إن شاء الله ..

سمير : (يعود إلى مكتبه ثم يقول متأملاً أمين) .. أستاذ أمين أقدر أسألك سؤال ؟

أمين : تفضل ..

سمير : أنت بتراجع كل ملخصات الكتب في قسمنا والقسم الثاني .. وبتاخذ كل يوم بيجي أربع تقارير .. يعني أربع كتب .. وبتبيجي تاني يوم مراجع الملخصات.. يعني قريتهم على الاقل.. ومع ذلك كل يوم بتقول أنك كنت سهران في الأوبرج .. في الاريزونا .. إزاي ممكن تعمل دا كله في ليلة واحدة ..

أمين : (ضاحكاً) .. يا أستاذ سمير .. تكنولوجيا .. أنا راجل تكنولوجي .. عندي في البيت مكنة أو كدهه (مصوراً بيديه حجماً صغيراً) .. أحط فيها الكتاب والتقرير .. بعد خمس دقايق تكون مراجعه ومدياني النتيجة .. ينشر .. أو لا ينشر .. فأكتبها على الصورة الثانية .. فهمت ..؟

إبراهيم : مش معقول .. طيب إزاي .. مين يديها التعليمات ؟ ..

أمين : (ضاحكاً) .. باوشوشها .. المهم ما يطلعش منها إلا إللي هيه عايزاه .. شوف بأه .. أد كدهه .. ومتحكمه في كل إللي بيتنشر ..

إبراهيم : أنت بتتكلم جد ..

أمين : (مداعباً) . يا راجل أنا باهزر .. مكنة إيه ؟ .. (لسمير) .. والله يا سمير باتعب قوي .. لكن نعمل إيه .. أكل العيش عايز كده .. لكن الحقيقة ده النهار تعبان قوي .. تسمح لي يا أستاذ متولي ..

متولي : (منتبهاً) .. إيه يا أستاذ أمين .. نعم .. عايز حاجة ؟ ..

أمين : (يهم بالانصراف) .. والله تعبان شويه أقدر استأذن (ينصرف) .

متولي : قوي .. قوي .. تفضل (مخاطباً الآخرين) ما دام بيراجع .. يقصد .. يروح .. وأنا مالي (ينصرف أمين) ..

(يدخل الرجل الدمية بدون أن يلاحظه أحد، كأنه غير منظور.. ويدس يده ليخرج قصة محمد عباس من مكانها حيث دسها متولي.. ويقبض على متولي من رقبته ويجره إلى الخارج.. وهو يصيح.. وأنا مالي .. وعندما يكون الستار في طريقه إلى الهبوط يكون عبده منهمكاً في تنفيض مكتب متولي ، بينما الاخرون مشغولون بأعمالهم كأنهم لم يروا ولم يسمعوا شيئاً) .

ستـــار

ـ الفصل الثالث ـ

المكان : زنزانة في احد السجون أمامها ممر طويل تبدو على جانبيه أبواب زنازين أخرى ..

الأشخاص : ١ ــ سيد طأطأ . إبن بلد . ضخم الجسم. بسيط الفكر. صريح التعبير . مسجون منذ مدة طويلة (مخدرات) .

٢ ــ المشرط : غلام دقيق الجسم . خفيف الحركة . مسجون (نشال) .

٣ ــ معوض : فلاح شيخ ، طاعن في السجن . مسجون (قتل) .

٤ ــ الشيخ همام : ضرير . يقول الازجال ويلحنها ويغنيها ، يلبس عمامة على ملابس السجن . بوهيمي وفيلسوف ... ويتحدث ما يظنه عربية فصحى . مسجون (تشرد) .

٥ ــ شرطي : حارس الممر

٦ ــ متولي جمعه .

٧ ــ مدحت خيري

٨ ــ محمد عباس

٩ ــ الرجل الدميه .

عندما يرفع الستار ، يكون الجميع في الزنزانة ما عدا محمد عباس والرجل الدمية بينما الشرطي الحارس يقطع الممر ذهاباً وإياباً .

سيد : ايه يا جماعة .. احنا سكتنا ليه .. (لمدحت) .. ايه يا سيدنا لفندي ما عندكش حاجة تقولها تسلينا .. اصلو بأه .. عدم المؤاخذة .. انتم مستجدين .. مش عارفين قيمة الكلام .. آه .. الكلام قيمته كبيرة .. لازم نتكلم .. مش كده .. والا ايه يا شيخ همام .

همام : اي نعم ، الكلام هو الفرق بين النور والظلام .. هو الفرق بين البشر والأنعام ..

سيد : ها أو .. طب وانت ايش عرفك الفرق بين النور والظلمة .. أنت تخرص بأه (لمدحت) .. ما تقول حاجة يا سيدنا لفندي .. احكينا حكاية ...

مدحت : ما أنا قلت لكم كل حاجة أعرفها .. من أول يوم خلصت كلام .. أصلي بافضل القراية .. وهنا مفيش كتب ..

سيد : كتب ؟ .. كتب ليه .. هو اللي ييجي هنا مش مجرم .. والمجرم مش جاهل .. والجاهل ما يعوزش كتب .. والله مأمور السجن نفسه هو اللي قالها لي .

مدحت : (بحدة جادة) .. هوه اللي قال لك كده ..

سيد : ما يقول اللي يقوله يا أستاذ .. أنت بتاخد الكلام جد ليه .. هم مش مانعين الكتب .. عندنا أجدع كتب .. قوم استقرأ .. ما تقوم تيجي .. الحيطة كلها مكتوبة .. بس يا خسارة أنا ما باعرفش اقرأ .. اقرأ يا أفندي .. الواد مشرط بيقول كلها أسامي وتحتها كلام .. قوم استقرا الكلام .. قوم يا شيخ . (يحاول انهاضه) .. قوم شوف ابن اليتيمة قايل ايه ..

مدحت : (ناهضاً متسائلاً) .. ابن اليتيمة ؟ ..

سيد : آه .. الواد مشرط بيقول ان جنب السقف مكتوب كلام وتحته ماضي ابن اليتيمة ..

مدحت : (متأملاً أعلى الحائط) .. فين ؟ ..
مشرط : اللي في الآخر .. على شمال الشباك ..
مدحت : (يضحك) .. يا راجل .. دا إبن تيميه ..
همام : إبن تيميه الامام الفقيه ؟ ..
سيد : (ضاحكاً) .. ما دام فقي زيك يبقى إبن يتيمة بصحيح .
مدحت : لا دا .. إبن تيمية .. كان راجل مجتهد .
سيد : (ضاحكاً) .. إجتهد قوي .. لغاية ما جه هنا .. كانت شغلته إيه ..
مدحت : مجتهد .. يعني عالم ديني .. كان له مذهب كده زي أبو حنيفة ..
همام : ما تشرحلوش يا حضرة .. انه جاهل ..
سيد : أسكت أنت .. لحسن والله ..أبظظ لك عنيك ..
همام : إخرس يا مفتري .. ولا تلمزوا أنفسكم ..
سيد : والنبي بلاش نحوي .. تلمزوا وتغمزو .. أنت ما تعرفش حاجة إلا المغنى .. دا شاهدين لك فيه .. إنما تلمزوا أنتمش قدها ..
مدحت : أنتم حتتخانقوا والا إيه .. أنتم حتقلبوها جد ..
سيد : إيه هيه إللي حنقلبها .. إحنا شايفين حاجة عدله علشان نقلبها ... إحنا شايفين (يضحك) المقلوب مكتوب والحمد لله .. ما علينا.. قال إيه إبن يتيمه ..
مدحت : إبن تيميه ..
سيد : إبن .. والدته .. خلصنا .. قايل إيه ..
مدحت : قايل يا سيدي (يقرأ) .. النفي لي سعادة .. والسجن لي عبادة . والموت لي شهادة ..
سيد : الله ، الله ، الله .. دا كان مستبيع .. أنت قلت لي كان بيشتغل إيه .
مدحت : كان عالماً .. كان مفكراً كبيراً ..

سيد : آه .. لكن جابوه هنا ليه ؟ ..

همام : علشان كان بيفكر يا جاهل ..

سيد : وإللي بيفكر يحبسوه .. واد يا مشرط .. أنت كنت بتفكر وأنت بتنشل ...؟

مشرط : أبداً .. إيدي بتلقط وحدها .. زي المغناطيس ..

سيد : وأنا كمان .. طول عمري ما فكرت .. وكنت حافكر إزاي .. عشت طول عمري .. مسطول .. ومع ذلك جيت ..

مدحت : معلهش يا عم سيد .. دي حاجة.. ودي حاجة.. وشرحها يطول..

سيد : (لمعوض) .. وأنت يا با .. يا عم معوض .. أصح يابا .. (يرج الشيخ ولكنه لا ينتبه ثم لمدحت) .. طب تعرف يا سي فندي .. وحياة إللي خلقك .. والدنا ده لو كان فكر ما كان جه هنا ..

مدحت : إزاي ؟

سيد : أصله يا سيدي .. كان سته وستين .. راح أتجوز بنت سنها ١٨ سنة ... زي اللوز .. طبعاً .. سنتين هو خلص .. وإللي حصل حصل .. لافت البنيه على اللي في سنها .. راح أخينا دابح الاثنين.. وجه (لمعوض) .. أهلاً وسهلاً .. يابا يا حمش سابقاً .. مش كنت تفكر .. ولا أقولك ... كده أحسن .. يمكن كنت تفكر تيبجي زي أخينا إبن اليـ.. إبن والديه .. (لمتولي) .. وأنت يا خينا ما بتتكلمش ليه .. من ساعة ما جيت ما بتتكلمش .. أوعى تكون بتفكر في إيه والنبي ..

متولي : (مهموماً) .. حافكر في إيه وأنا مالي .

سيد : أأو .. تعجبني يا بتاع وأنا مالي (لمدحت) .. تعرف يافندي .. الراجل ده لازم آخر راحة .. كل حاجة .. وأنا مالي .. يا حلاوه .. أمال جيت ليه ..؟.. (لمدحت) .. استقرا يافندي .. استقرا والنبي كمان .. فيه إيه تاني .. ؟

مدحت : (متطلعاً) .. أسامي .

سيد : طب هات من فوق .. إللي ما عرفش يستقرأهم الواد مشرط .. المغبب .. آل أعمى ونشال .. بلاوي ..

مدحت : فيه أسامي كتير .. عمر مكرم .. عرابي .. محمد فريد .. (منصرفاً) .. كتير ياعم سيد .

سيد : بلاش القراية .. تحب تكتب .. تاخذ قلم ..

مدحت : (بلهفة) .. يا ريت .. فين ؟ ..

سيد : (يخرج مسماراً من جيبه) .. تفضل آدي مسمار أهه .. صلب وحياتك وتمنه سيجارة بس ..

مدحت : مسمار .. وحاكتب على إيه بالمسمار ..

سيد : على الحيط .. زي دول .. دي حتّى كتابة ماتتمسحش أبداً ..

مدحت : حاكتب إيه بالمسمار ..

سيد : أهو ده إللي ما عرفوش .. أكتب إللي نفسك فيه .. بس هات السيجارة إللي نفسي فيها ..

همام : وأنا ليه فيها نفس ..

مدحت : (متهللاً) آه .. والله فكره .. هات ..

سيد : هات السيجارة الاول .. (يعطيه سيجارة ويأخذ المسمار) ..

مدحت : حاكتب حاجة حلوى قوي .. حاجه خالده .. تاريخية .. حاكتب شعار المقهورين داخل السجون .

سيد : شعار إيه ؟ ..

مدحت : شعار المسجونين ..

همام : وماذا يقول هذا الشعار ؟ ..

مدحت : حاكتب .. بس فوق الكل .. عند السقف « يا مساجين العالم إتحدوا ..» (يظهر محمد عباس قادماً من أقصى الممر يصحبه شرطي) ..

سيد : إحنا خدنا السيجارة وأنت أكتب إللي أنت عايزه ..

مدحت : بس إزاي أوصل لغاية فوق (متلفتاً) .. ممكن يا عم سيد تشيلني وترفعني لغاية ما أكتب ..

سيد : لا يا عم .. إطلع لوحدك .. مش على كتافي ..

مدحت : أنت يا أستاذ .. أستاذ متولي .. ممكن والله ..

متولي : يا أخي سيبني في حالي .. وأنا مالي ..

(يدخل محمد عباس الزنزانة وتغلق وراءه) ..

مدحت : الله .. الله .. عمي محمد .. إيه إللي جابك ..

متولي : (شامتاً) حمد لله على سلامتك يا بتاع الا ض .. وديتني في داهية .. تفضل يا خويا نام على الارض ..

محمد عباس : (متجاهلاً متولي) .. السلام عليكم ..

همام وسيد : السلام ورحمة الله وبركاته ..

سيد : (لمدحت) حضرتك تعرفه ..

مدحت : آه .. الاستاذ محمد عباس .. كان صديق والدي ولسه متقابلين لينا اسبوع .

سيد : أهلاً وسهلاً (يصافحه) .. شرفت يا أستاذ .. معلهش .. شد حيلك . هي كده صعب في الاول .. وبعدين تتعود .

محمد : متشكر (فترة صمت يتأمل فيها محمد المكان) ..

سيد : وألاستاذ . عدم المؤاخذه .. بيشتغل إيه ..

محمد : محامي ..

سيد : يا حلاوه والنبي .. يا صلاة النبي .. دا أنا كنت مستنيك من زمان .. فرجت يا شيخ همام ..

محمد : (مستغرباً) .. إيه ده ؟ .. ليه مستنيني ؟ ..

سيد : أصلي يا أستاذ ، عدم المؤاخذه .. أنا وقفت قدام المحكمة ..

كنت عدم المؤاخذه مخدرات .. وكنت متكيف برضه .. حته كده جابتها الوليه في الجلسة .. المحكمة نطقت بالحكم ماخدتش بالي .. ماسمعتش كويس ... من الزيطه يعني .. جابوني على هنا .. ليه عشر سنين أو ثمانية أو أكثر .. أو أقل .. الحقيقة مش فاكر .. المهم أنا مش عارف محكوم عليّ بإيه .. الوليه زبطوها بعدي .. مـــا حدش بيزورني .. وما حدش عايز يقول لي .. تفتكر حضرتك محكوم عليه بكام ..

محمد : والله مش عارف .. يتوقف على نوع المسؤولية .. ومداها ..

سيد : حضرتك مش بتقول إنك محامي .. يبقى إزاي ما تعرفش ..؟

محمد : (ضجراً) .. حاضر .. بعدين أقول لك .. أصلي تعبان شويه ... دلوقتي .. تعبان نفسياً .. هيه الزنزانة بتبقى مقفولة على طول ..

مدحت : أيوه ..

سيد : شوف يا أستاذ .. أن كنت تعبان نفسياً .. يبقى تتكلم .. بحبح .. قول .. ماتكتمش .. ما فيش حاجة تدايق البني آدم مننا .. وتنسفه نفسياً .. الا قلة الكلام .. قول لنا حكاية مثلاً ..

محمد : (يلتفت إلى مدحت متسائلاً) ..

مدحت : والله .. دي تقاليد هنا .. كل إللي يدخل لازم يقول حكاية .. وكل الحكايات إللي يعرفها .. دا طبعاً مبرر سيكولوجيا .. مسألة تعويض عن الشعور .. بالاغتراب .. عايزين يعرفوا حاجة عن المجتمع إللي فقدوه ..

محمد : (مبتسماً) .. آه .. دي بس تبقى حكاية مملة .. يعني مش مسلية ..

سيد : طب قول لنا حاجة تسلينا ..

همام : قل لنا شيئاً نقطع به الوقت .. فالوقت كالسيف أن لم تقطعه قطعك..

مشرط : أقول لك يا أستاذ أعمل لنا محكمة .. نعمل محكمة .. عمي « وأنا مالي » قاضي .. وعمي سيد نيابة ..

سيد : نيابة .. يا ريت ياواد مشرط .. يا سلام ياواد .. كنت أطلع كل المعلمين إفراج ..

محمد : (يبدأ في الاندماج معهم فيضحك) ..

سيد : أهو كده يا شيخ .. إضحك .. إضحك للدنيا تضحك لك .. ولو إني جيت هنا بسبب الضحك ..

مدحت : إزاي ياعم سيد .

سيد : ما هو يومها .. كنت عدم المؤاخذه مبسوط حبتين .. متقلها شويه . والصنف كان نضيف .. نهايته .. بصيت في الوليه مراتي لقيتها الخالق الناطق شبهي .. تقولش بابص في مرايه .. والا يمكن كنت بابص في مرايه .. (يضحكون) قعدت اضحك ضحك .. كان ليل .. قاموا الجيران جابو البوليس .. علشان عدم المؤاخذه كان عندهم ميتم .. دخل عليّ الشاويش وأنا باضحك .. فتشني وأنا باضحك .. زبط العدة وأنا باضحك .. تعرفوا يا رجاله ما بطلتش ضحك لغاية مافوقوني في القسم .. ويوم الجلسة ناولتني الولية الحتة .. حكموا عليّ وأنا باضحك .. معرفش الحكم إيه ..

محمد : بكره نعمل محكمة .. بكره لو سمحتم ..

متولي : يا أخي جبتنا هنا .. وكمان حتسكت .. طب قول لنا فزوره .

محمد : (ضاحكاً) .. حاضر .. علشان خاطرك يا أستاذ متولي .. تعالى يا شاطر وأنت يا والدي .. وأنت يا أستاذ (مشرط ومعوض وهمام) .. اقعدوا .. لا مش كده .. اقعدوا جنب بعض .. وشكم ناحية واحدة .. عن أذنكم بأه الطواقي .

همام : لا .لا . دي عمامة وليست طاقية ..

محمد : طب ممكن يا سيد تديني طاقيتك (يأخذها) .. إقلع العمة يا أستاذ..

همام : لماذا ؟

سيد : (ينهره) .. ماتقلع .. العمه بس ..

همام : (وهو يخلع عمامته) .. يا فاجر ..

محمد : شوفوا .. بأه .. أنا معاي دلوقتي ثلاث طواقي سوده .. وافرضوا معاي كمان ثلاث طواقي بيضة .. والجماعة دول .. الثلاثة اللي قاعدين ناس أذكيا .. أذكيا قوي ..

سيد : أأو .. يا نبيه يا جوز البنيه

محمد : (لسيد) من فضلك لحظة .. بس أما اخلص (لمدحت) أنت طبعاً واخد بالك يا أستاذ مدحت ..

متولي : وأنا كمان واخد با قوي ..

محمد : شوفو ..

سيد : (مقاطعاً) .. شايف يا شيخ همام ..

محمد : وبعدين يا سيد (مستمراً) .. شوفو .. أنا لبست الجماعة الأذكيا دول ثلاث طواقي كلها سوده (يلبسهم) .. ورميت الطواقي البيضة (مشيراً بيده) .. كويس . ؟..

الجميع : كويس ..

محمد : سألت أول واحد (معوض) أنت لابس طقية لونها إيه ؟

معوض : سوده .

محمد : لا ياعم .. أنت عارفها سوده علشان مفيش غيرها هنا .. وأنا كمان قلت .. لكن إفرض كانت معاي طقية بيضه ولبستها لك من غير ما أقول .. كنت تعرف .

معوض : لع .

محمد : يبقى تمام .. أنا سألت الراجل الاول .. أنت لابس طقية لونها إيه ... بص على الاثنين التانيين .. وقال مش عارف ..

سيد : كويس .

محمد : سألت التاني .. وأنت لابس طقية لونها إيه .. بص على الاثنين

التانيين وقال مش عارف ..

جبت للتالت .. هو كمان زي ما عرفنا زكي . سألته أنت لابس طقية لونها إيه .. بص على الاثنين التانيين .. وقال لابس طقية سوده ..

سيد : كويس (بعد فترة صمت من الجميع) وبعدين ؟ ..

محمد : ماهي دي الفزورة .. إزاي الراجل التالت عرف أن الطقية إللي لابسها سوده ؟.

همام : أنا أعرف الجواب .. بس يمكن تعيدها تاني .

سيد : (ينشغل في محاولة حلها . ويخطيء ويصحح له محمد ضاحكاً . ثم يسود الصمت مدة طويلة كل واحد يحاول التفكير . يتجه سيد فجأة إلى باب الزنزانة) .

مشرط : رايح فين يا عم سيد ؟

سيد : حاجيب الشاويش ..

همام : منزعجاً .. لماذا ؟ .. أيها المجنون ..

سيد : علشان يحل الفزورة ..

مدحت : وأشمعنى الشاويش يعني ..

سيد : أصله من كام يوم باسأله إيه أخبار الدنيا بره .. قال لي .. والله يا سيد حاجات تحير زي الفوازير .. يبقى لازم متمرن على الفوازير .. (يضحكون) .

متولي : إستنى يا أخي .. بلاشاويش بلا بتاع .. خليك جد وقت الجد ..

محمد : أقول لكم متتعبوش نفسكم .. هيه صحيح لها حل .. أفتكر وبس إني قلت لكم أن الناس دول أذكيا قوي .. وفكرو فيها يومين ثلاثة ..

سيد : تبقى يا أستاذ بتضحك علينا ..

محمد : لا .. والله ..

مشرط : أنا حليتها ..

محمد : طيب قول ..

سيد : (يضرب مشرط على قفاه) .. وإزاي ياواد تحلها قبلي .. إخرس أنت .

همام : سيبه يا سيد لما نشوف ..

سيد : تشوف ؟ .. أأو .. أهي دي فزورة تانية .. طب قول يا واد يا مشرط .. يا فصيح .. يابن أم فصيح ..

محمد : قول يا شاطر ..

مشرط : هو الراجل الأولاني قال ما أعرفش .. مش كده ؟

الجميع : أيوه

مشرط : والراجل التاني قال ما أعرفش .. مش كده ؟

الجميع : أيوه

مشرط : والراجل التالت قال طقيه سوده .. مش كده ؟

الجميع : أيوه

مشرط : يبقى .. يبقى (متراجعاً خوفاً من سيد) .. والله يا عم سيد كنت عارفها ونسيتها .

سيد : (يضربه) كنت عارفها .. دا معقول .. تعرفها إزاي وأنا لسه ما عرفتهاش (مفكراً) .. يا سلام ياولاد لوفيه حته (لمحمد غاضباً) .. إسمع يا أستاذ .. بلا فوازير .. بلا غيره ..إحنا عندنا مخ علشان الفوازير .. طب هات سجارتين ولو ماكنتش أحلها من أول نفس ما إبقاش طأطأ .

همام : يافالح .. إذا كنت تحلها من أول نفس .. يبقى لزوم السجارة التانية إيه ..

سيد : أتكتم أنت .. دا فن .. بقول سيجارتين .. علشان يقول واحدة بس ... أقول هات وأمرنا لله ..

مدحت : سيبونا يا جماعة من الفوازير .. قول لي يا أستاذ محمد .. إيه إللي حصل علشان جيت هنا ..

محمد : والله ما اعرف ... لسه ماعرضتش على النيابة .. لكن على أي حال حاعرف في التحقيق بعد ٢٤ ساعة .

سيد : أشمعنى .

محمد : علشان طبقاً للقانون لا بد من عرضي على النيابة قبل مضي ٤٨ ساعة .

مدحت : مش معقول .. دا أنا ليه أسبوع ماتعرضتش على النيابة .

محمد : مش ممكن .

سيد : مش ممكن ليه ما دام حصل ..

محمد : (لمدحت) .. لكن دا نص القانون ..

سيد : (مقاطعاً) .. والنبي بتفكرني بالاستاذ إللي كنت عادة يترافع في قضيتي .. قعد ساعة يقول القانون بيقول .. القانون بيعيد .. وأنا كل القانون ما يقول حاجة إطمئن .. وأخرتها .. حتى معرفتش محكوم عليّ بإيه .. قانون إيه يا أستاذ .. القانون ده بتاع الشيخ همام ... أهو ده القانون إللي بحق وحقيق ..

همام : نعم .. نعم ..

محمد : هو الشيخ همام خريج حقوق ..

همام : لا يا سيدي .. أنا موسيقار .. ملحن .. كنت أعزف على القانون .. ألحن الاغاني التي أؤلفها بنفسي .. غار مني الملحنون .. بتوع الاذاعة ... فدبروا لي مكيده .. أي والله مكيده .. قاتل الله الحسد ..

محمد : مكيده إيه ..

همام : قالوا عني .. متشرد ..

محمد : (لمدحت) .. يا أستاذ مدحت .. هيه دورة الميه قريبة ولا بعيده ..

سيد : دورة ألميه قريبة أوي يا أستاذ .. منتهى الراحة .. تشرب من الجردل إللي على اليمين ده .. وتفضي في الجردل إللي على الشمال ده .. أظن مفيش أسهل من كده ..

محمد : (مستغرباً) .. مش معقول .. هوه مين المسؤول هنا ؟

مدحت : (يضحك)

محمد : بتضحك ليه يا أستاذ مدحت ..

مدحت : أصلي إفتكرت لما تقابلنا وكنت حضرتك كل ما قول كلمة تقول مين المسؤول ؟

محمد : لا .. إحنا .. حتى في السجن لنا حقوق .. القانون ..

سيد : يووه .. يا أستاذ ما تنسى القانون .. كل حاجة قانون .. قانون .. إسألني أنا .. القانون هنا هوه السجاره .. آه .. معاك سجاير .. تبقى ملك بالسجارة الباب ينفتح .. وبسيجارة السجان بنفسه ينضف الجردل .. علبة سجاير توديك دورة الميه بتاعة الضباط .. خرطوشة سجاير (ضاحكاً) .. تبقى مأمور لسجن صندوق .. إفراج .. مصنع سجاير تحبس الناس وتقعد أنت بره .. أدي .. القانون .. إذا كنت عـــايز ترتاح اليومين إللي مكتوبين لك (ضاحكاً) .. إبعت بقى هات سجاير كثير بالفلوس إللي خدتها من المعلمين إخواني ..

محمد : (يضحك) .. على أي حال حنبقى نشوف ..

سيد : أهو كده كويس .. أخر جمال .. إتفضل بأه على جنب كده (لهمام) قوم يا شيخ همام .. قوم يا مشرط (لمتولي) .. أنت لسه بتحل الفزورة .. يا راجل قوم تحرك .. قوموا كلكم نحتفل بالاستاذ .. يالله غني يا شيخ همام ..

(يقفون صفين .. سيد ومدحت في الامام وخلفهما معوض ومشرط .. همام يغني ويقود الرقصة متحركاً أمامهم وعلى طول

الزنزانة .. متولي يتأمل أولاً ثم يحرك جسمه البدين قليلاً ثم يهتز ثم يندمج وينضم في أخر الرقصة إلى النصف الاول بجوار مدحت.. محمد يتأمل .. ثم يبتسم ثم ينضم في أخر لحظة ويشترك .. اللحن قريب من شدو أذكار الصوفيين .. يبدأ الايقاع هادئاً ثم يسرع بالتدريج حتى يصبح عنيفاً في النهاية) ..

المجموع : هوّه ..هوّه .. هوّه .. هوّه ..

همام : حاجة غريبة منه هوه ..

المجموع : هوه .. هوه .. هوه .. هوه ..

همام : حاجة تجنن منه هوه .

المجموع : هوه .. هوه .. هوه .. هوه ..

همام : حاجة غريبة ، حاجة غريبة — حاجة تجنن ، مش معقول
يبقى وطنا الوطن العربي — بكل غناه ونعيش عالفول
ونسأل : كيف ؟
يقولوا ..

المجموع : هوه .. طب مين هوه ..

همام : تعلى الميه تبقى طوفان — نفرح ، بالله ، قرفنا سواقي
تنزل ، داري على الغيطان — نزرع ؟ .. أبداً . ح لسه شراقي
ونسأل : كيف ؟
يقولوا ..

المجموع : هوه .. طب مين هوه ..

همام : نبدر غله وقطن وفول — ونزرع فعلاً أحسن زرع
نيجي نحصد .. مش معقول — نلاقيه باميه وكوسه وقرع
ونسأل كيف ؟

يقولوا ..

المجموع : هوه .. طب مين هوه ..

همام : نلم وناخدم المحتاج — علشان إيه قال لازم مصنع
ندى ونصبر على الانتاج — لما نبيعه تمنه يفرقع
ونسأل كيف ؟
يقولوا ..

المجموع : هوه .. طب مين هوه ..

الشرطي : (من الخارج) .. أسكت أنت وهوه .. ياللي جوه ..

سيد : (يرد مع إستمرار الرقص) .. أأو .. مين إللي بره .. ومين إللي جوه . طب أن كنت أنت بره .. أرقص زينا ..

(الشرطي يحاول الرقص على صوت إيقاع أقدامهم .. ولكنه يتجمد فجأة عندما يلمح الرجل الدمية قادماً من أقصى الممر) .

همام : يقولو الحرب نقول يا بلادنا — بالملايين نفديكي في الحرب
بعد ما نخسر نص أولادنا — يقولو قبلنا وقف الضرب
ونسأل كيف ؟
يقولوا ..

المجموع : (في شبه صرخة فزع إذ يكون الرجل الدمية قد دخل عليهم الزنزانة) . هوه .. هوه .. هوه ..

همام : (يرقص بنشاط عنيف منذ أول المقطع الاخير .. وعندما ينتهي منه يكون قد إصطدم بالرجل الدمية وأوقعه ووقع فوقه ، بينما يكف الجميع عن الرقص .. يرتبك همام ويحتضن الدمية ويفتش

في صدرها) .. هوه .. ؟ .. هوه ..؟..هوه فين ؟ .. مش ممكن يبقى دا هوه .. لا .. لا .. يا سيد .. يا مشرط دا قش .. قش.. شايفين (يرفع يده بحزمة قش أخرجها من صدر الرجل الدمية .. النائم بلا حركة) ..

سيد : قش ؟ يا خبر ..

(يندفعون جميعاً إلى الدمية ويجثون فوقها ويخرجون منها قشاً كثيراً وهم يكرزون .. قش .. قش .. سيد يقف فرحاً فاردا يديه .. ويحاول يرقص وهو يهتف .. هوه قش .. هوه قش .. تصطدم يده بحائط الزنزانة فتمزقها ويتبين أن الحائط من ورق الكرتون .. فيهتف كرتون .. كرتون .. يندفع الجميع إلى الخارج هاتفين .. هوه قش .. والحيط كرتون .. ويبقى محمد وحده وسط المسرح ..

محمد : (متأملاً مندهشاً) .. هوه .. قش .. والحيط كرتون ؟

(وبصوت أعلى وأسرع) .. هوه .. قش .. والحيط كرتون .. (صارخاً) .. هوه قش والحيط كرتون .. أمال مين المسؤول ؟ مين المسؤول (جاثياً باكياً) .. مين المسؤول ؟ ..

الســـــتار

مسرحية

(محاكمة نيرون)

الاهداء

إلى الجيل الجديد من الشباب العربي
عسى أن يكـــون أكثر من جيلنـــا
علمـــاً ... وعزمـــاً ... وحسماً .

القاهرة .
٨ فبراير (شباط) ١٩٧٤

الفصل الاول

المكان : مدرج في كلية الآداب بجامعة القاهرة . طلبة وطالبات وهرج وتهريج بينما يقوم مخرج « للتليفزيون » بتوزيع أجهزة الاضاءة على مواضيع يختارها ، ويصدر أوامر عصبية إلى جماعة من العاملين معه ، كل هذا إستعداداً لنقل ما يدور في القاعة .

الاشخاص :

١ – نيرون بملابسه الرومانية . شاب رياضي البنية ، وسيم ، فيه مرح الفنان وغياب إنتباهه أحياناً .

٢ – دكتور علام فرغلي أستاذ التاريخ الروماني . شيخ ذو لحية بيضاء مرسلة ونظارة سميكة .

٣ – مدير الجامعة ، وعميد كلية الحقوق ، ووكيل كلية الآداب.

٤ – مخرج التليفزيون ، ومساعدوه ، ومذيع أنيق ذو طبيعة إستعراضية .

٥ – طلبة وطالبات ...

عندما يرفع الستار يكون المخرج مشغولاً بمحاولة إقناع الطلبة والطالبات بالهدوء اللازم لبدء الارسال ، منبهاً إلى قرب حضور

الاستاذ . ثم يأمر بالبدء في الارسال فيبدأ المذيع بعد أن يتأكد من أناقته بلهجة رشيقة مصطنعة .

المذيع : سيداتي آنساتي سادتي . يسر التليفزيون العربي أن ينقل إليكم على الهواء مباشرة جانباً من المحاضرة الاخيرة لشيخ العلماء وأستاذ الاساتذة ، وداعية الحرية الأول الدكتور علام فرغلي . والواقع أن التليفزيون العربي إذ ينقل إليكم هذا الحدث التاريخي إنما يجري على تقاليده العظيمة . تلك التقاليد التي لا شك أنكم تذكرون كيف بدأت الشهر الماضي بنقل صور حية خالدة في سجل الاعلام.

والصورة الحية التي ننقلها اليكم اليوم، سيداتي آنساتي سادتي ، صورة كانت الامة كلها تنتظرها بلهفة . فقد تلقى التليفزيون العربي فعلاً ٢٠٦٢٧١ رسالة عادية و٤٠٣١٢ رسالة مسجلة من جميع أطراف الوطن العربي الكبير يطلب راسلوها تسجيل هذا الحدث العظيم قبل أن ينقضي فيستحيل تسجيله . ولقد تأثر التليفزيون العربي تأثراً خاصاً عندما تبين ، عن طريق الفحص الالكتروني ان ٣٧,٨ ٪ من تلك الرسائل أرسلها مواطنون تجاوزت أعمارهم الثمانين عاماً . وهم يتمنون ألا تفوتهم رؤية المحاضر العظيم الدكتور علام فرغلي في آخر دفاع له عن الحرية وزاد من تأثرنا أن ١٩,١ ٪ من الرسائل كانت من أطفال يريدون أن يبدأوا حياتهم بسماع المعلم الكبير لتستقر أقدامهم الصغيرة على طريق الحرية ، يحبون عليه أولاً ثم يمشون على صراطه المستقيم واثقين .

وكلكم تعلمون مما نشرته الصحف هذا الموسم كيف كانت محاضرات الدكتور علام عن الطاغية نيرون محل دراسة ومناقشات واسعة النطاق بين أفراد الشعب لما أثارته من قضايا مصيرية تتصل بحرية الوطن وحرية المواطن . تلك المحاضرات أزعجت القوى

المعادية المتربصة بوطننا العزيز بقدر ما أحيت في صدور أبناء هذا الوطني آمال الحرية . لهذا لم يكن غريباً من حكومتنا الرشيدة أن تمنح الدكتور علام جائزة الدولة التقديرية ، لا بمناسبة إنتهاء العام الدراسي فحسب ، بل أيضاً بمناسبة دوره الوطني الكبير في توعية الجيل الناشيء بمعاني الحرية والعزة والكرامة (ينظر إلى خارج القاعة فيرفع صوته معلناً) .

والآن ، سيداتي آنساتي سادتي ، يهل علينا أستاذنا الكبير تحيط به اللجنة التي عينها مجلس الجامعات للاشتراك في تكريمه بحضور آخر محاضراته . وهي تتكون ، كما تعرفون من السيد الدكتور مدير الجامعة ، والسيد الدكتور عميد كلية الحقوق ، والسيد الدكتور وكيل كلية الآداب أيها السادة .. أنهم قادمون تحيط بهم جماعة من الناس .. هذا هو الرجل الكبير ، أيها السادة وسنحاول أن نتحدث اليه قبل أن تبدأ محاضرته الاخيرة .

(يدخل الدكتور علام وصحبه ويجلسون إلى المنصة بينما يتفرق من معهم بين الاماكن الخالية في المدرج) .

المذيع : صباح الخير يا دكتور علام . نحن التليفزيون العربي . ويسعدنا أن ننقل إلى المشاهدين في جميع أنحاء العالم محاضرتكم الاخيرة التي لا شك ستكون حلقة ماسية في السلسلة الذهبية من محاضراتكم القيمة . والتليفزيون العربي يرجو أن تسمح له بتوجيه بعض الاسئلة التي تهم الشعب العربي بل شعوب العالم جميعاً . ولا شك في أن الجماهير العربية في كل أنحاء الوطن الكبير تنتظر إجابتكم الحاسمة عليها .

د . علام : تفضل ..

المذيع : مع أنه سؤال شخصي إلاأن التليفزيون العربي يطمع في أن يتلقى

الجواب عليه بمناسبة هذه الفرصة التاريخية التي قد لا تتكرر . دكتور علام .. هل تستطيع (مستظرفاً) طبعاً تستطيع .. أقصد هل تتفضل فترضي المشاهدين والسامعين بأن تذكر لهم كم يبلغ عمرك الان ، وأين كان مولدك ، والمعاهد التي تعلمت فيها ، ومن هي الشخصية التي أثرت في حياتك ، وكيف بلغت هذه المرتبة العلمية ، وما رأيك في الجيل الجديد ؟ ..

د . علام : عمري سبعون سنة ، وأربعة أشهر ، وعشرون يوماً ، وقد ...

المذيع : (مقاطعاً) وهكذا سيداتي آنساتي سادتي حسم العلامة الكبير بجوابه القاطع كل التساؤلات التي شغلت الرأي العام في السنة الاخيرة . فبذهنية العالم المدقق الذي لا يلقى الحديث على عواهنه أجاب فعرفنا عمره بالسنة والشهر واليوم .. وهو أمر لا يمكن أن تحفظه الا ذاكرة حديدية كذاكرة رجل بلغ حد العبقرية في دراسة وتدريس التاريخ القديم الذي بدأ دراسته في قرية ميت غمر ثم في المنصورة . وكما فهمنا من استاذنا الكبير أنه تأثر بالبيئة المصرية الطيبة وبالقصص القديم الذي كان يستمع اليه وهو بعد في أول سني حياته . وهو أمر نعرفه تماماً من واقع أمتنا العظيمة التي لا تكاد تفعل شيئاً أكثر من حفظها تاريخها القديم (ينبهه المخرج فينظر إلى ورقة في يديه ويستأنف) . آسف . كما قلت أيها السادة أمتنا العظيمة التي تفعل أشياء كثيرة منها حفظ تاريخها القديم الذي يمتد إلى ما قبل العصر الحجري ويدل على اصالة حضارتها . لا غرو إذن ان تنجب لنا الدكتور علام نابغة التاريخ . والآن .. يا دكتور علام ، أن كل الناس تعرف ، فالدكتور علام أشهر من نار على علم ، ولكن لا بأس في أن نسألكم عن فرع التاريخ الذي تدرسه للطلاب في الجامعة ؟

د .علام : التاريخ الروماني .

المذيع : (مستظرفاً) .. الروماني .. ؟ وهل نستطيع أن نعرف لماذا التاريخ الروماني بالذات ؟ .

د . علام : لأن التاريخ الروماني هو تاريخ ثاني حضارة كبرى أثرت في :

المذيع : (مقاطعاً) .. سيداتي آنساتي سادتي . هذه هي العبقرية والوطنية معاً . بهذه الاجابة الواثقة يرد الدكتور علام على أصعب الاسئلة التي ترددت في الصحف وبين أفراد الشعب . أعني به : ما هو سر إهتمام الشعب بالدكتور علام ومحاضرات الدكتور علام ؟..لقد أجاب ، أيها السادة بفطنة العالم الذي لا يخطىء فعندما قال لنا إن سر إهتمامه بالتاريخ الروماني هو أنه تاريخ ثاني حضارة كبرى أثرت في مصير العالم ، كان يؤكد لنا ما نعرفه جميعاً ان الحضارة الفرعونية هي أول حضارة كبرى أثرت في تاريخ البشرية . إن وعي التاريخ وعياً صحيحاً ، وعدم الانبهار بما تردده أبواق القوى المعادية ، والاحتضان الموضوعي للمواقف الوطنية هي مؤشرات مميزة لعبقرية الدكتور علام .

والان ، سيداتي آنساتي سادتي ، اذ نشكر الدكتور علام، نيابةً عنكم ، على فيض المعرفة القيمة التي أغنى بها تراثنا الفكري وأنار بها الطريق أمام الاجيال الصاعدة ، لا يسعنا إلا أن ننتحي جانباً ونترك لكم الاستماع اليه .. شكراً يا دكتور علام ... (ينسحب).

د . علام : (بعد فترة صمت وهدوء كامل) هذا آخر لقاء بيننا وبين الطاغية نيرون . وهو آخر لقاء بيننا في هذا العام .. وهو آخر لقاء بيننا في هذا المكان . وقد جرت التقاليد على أن يلقي الاستاذ على تلاميذه خطبة وداع في آخر لقاء بينهم . غير أن الزملاء المحترمين، زميلي مدير الجامعة ، وزميلي عميد كلية الحقوق ، وزميلي وكيل

كلية الآداب . قد رأوا مشكورين أن يعفوا أستاذهم القديم من إنفعالات الوداع فجاءوا يحضرون لقاءنا هذا . ويعبرون لكم، نيابةً عني عن مشاعري التي يعرفونها جيداً (تصفيق) .

ولكني استأذنهم في كلمة قصيرة أريد بها أن أنقل اليكم ما اعتبره خلاصة الدروس التي القيتها عليكم هذا العام . بل دراستي للتاريخ وخبرتي بالحياة معاً .

أولاً : تعرفون أن الجامعة قد تفضلت فانتدبتني هذا العام لألقي عليكم دروساً في التاريخ الروماني تغطي مرحلة تاريخية طويلة . تبدأ من تأسيس روما وتنتهي بسقوط الامبراطورية البيزنطية . أي أكثر من عشرين قرناً . ولا أحد يعرف أكثر منكم انني لم الق عليكم دروساً في كل هذا التاريخ ، بل اخترت لكم منه فترة قصيرة . انها لفترة التي بدأت عام ٥٤ وإنتهت عام٦٨ بعد الميلاد . أي إننا قضينا عاماً كاملاً ندرس معاً تاريخ الرومان في أربع عشرة سنة ، هي مدة حكم الطاغية نيرون .

ثانياً : لقد كان هذا الاختيار محل تعليق وترحيب وإعتراض وأثار ما أثار في الجامعة وفي الصحافة . لماذا ؟ اليوم أقول لكم لماذا . الواقع انني لم أكن أدرس لكم التاريخ الروماني الذي إنتدبت لتدريسه . ولا كنت أدرس لكم التاريخ عامة . لقد انتهزت فرصة انتدابي لاعلمكم شيئاً ، عرفت من خبرتي الطويلة بالتاريخ وبالحياة ، إنه أهم من التاريخ . إنه عبرة التاريخ . تلك العبرة التي تفيدنا ، وتفيدكم ، في الحياة المقبلة . والعبرة ليست متوقفة على معرفة كل أحداث التاريخ . يكفي مثال واحد من فترة تاريخية معينة ، لنحصل من التاريخ على العبرة التي نريدها .

أريدكم وأريد لكم أن تدرسوا التاريخ على هذا الوجه . أن

تفتشوا في أحداثه الكثيرة عن العبر التي تنفعكم في حياتكم لأنكم، مع تقديري للثقة بشبابكم ، لا تستطيعون مهما أوتيتم من قوة أن تلغوا ما وقع في الماضي . كل حدث وقع أو كل كلمة قيلت أفلتت نهائياً من مقدرة الانسان . فلماذا نرهق أنفسنا بدراسة الماضي ؟ .. لماذا ندرس تاريخنا وتاريخ البشرية ؟ لماذا نختلف ونتشاحن حول قيمة الاحداث التاريخية ما دمنا لا نستطيع أن نغيرها ؟. اليوم أقول لكم لماذا . اننا ندرس التاريخ لنبني المستقبل. المستقبل ، أنتم ، آمالكم ، هي مبررات دراستكم التاريخ وقيمة التاريخ كله مستمدة من قيمة ما تريدون تحقيقه . وإذا كنت قد كررت أمامكم ألف مرة قولي أن التاريخ خبرة متراكمة فقد كان ذلك لانبهكم إلى أن تأخذوه وتستفيدوا منه كخبرة ، مجرد خبرة تغني معرفتكم بالحياة ، وتصقل مقدرتكم على صنع تاريخكم الخاص .

ثالثاً : وأخيراً فقد كان درسنا الأخير مدخراً لختام حياة نيرون . وفيها عبرتان أرجو ان تحفروهما في رؤوسكم فهما ذخر لكم في الحياة المقبلة ، أما الاولى فمن تاريخ وفاته وأما الأخرى فمما تلى وفاته .

عن الأولى . عرفنا في المحاضرة السابقة الظروف التي تحررت فيها روما العظيمة من نيرون الطاغية ، هرب الجبان من روما ليلاً هرب إلى نهر التيبر يريد أن يغرق نفسه . فلما همّ خانته شجاعته . فهرب واختفى في بيت على طريق سلاريا . بيت مواطن يدعى فاؤون وهناك قرر أن ينهي حياته فطعن نفسه بخنجر في رقبته . ولكن شجاعته خانته مرة أخرى . إضطربت يده وضعفت قبضته فأعانه إيتروديتس على أن يدفع سن الخنجر إلى نهايته . وهكذا لم يستطع الطاغية الجبان أن ينهي حياته الفاسدة وكان قد قتل المئات

من أشراف روما . في اللحظة الحاسمة إتضح أنه جبان . فأين العبرة ؟ .. اليوم أقول لكم أين .

إن كل طاغية جبان . وهذا مبرر علمياً . ويعرفه تماماً علماء النفس . إن الجبان يعرف من ذات نفسه أنه لا يستقيم سلوكاً ويعف نفساً إلا إذا خاف . فيتصور الناس على شاكلته .

عن الثانية : لقد عرفتم كيف ولد نيرون ولم يكن يستحق العرش فتولاه نتيجة حيلة مجرمة . وعرفتم كيف بلغت وحشيته حد قتل أمه التي أنجبته . كيف بلغت خسته حد قتل أستاذه الذي علمه . كيف بلغ فجوره حد إرتياد المواخير الداعرة . كيف بلغ إستهتاره حد التفريط في أقاليم الأمبراطورية كيف بلغ جنونه حد إحراق روما العظيمة مدينة العلم والحضارة ثم وقف على اطلالها ينعق بشعره التافه .

والغريب ان الشعب الروماني وشعوب الأمبراطورية ظلوا أياماً ينتحبون حزناً عليه فيما عرف في التاريخ بظاهرة « الحزن الروماني » . وأغرب من هذا أنهم تداولوا فيما بينهم بأساليب خفية أسطورية تقول « ان نيرون لم يمت بل اختفى وسيعود لانقاذنا » . (ضحك) فأين العبرة ؟ ... اليوم أقول لكم أين .

(يخرج نيرون في ملابسه الرومانية ، مندفعاً غاضباً من ركن في القاعة . تصدم الدهشة كل الحاضرين . حركة وهرج ولغط . يقف مدير الجامعة ليهم بالاعتراض بينما يتقدم نيرون متوثباً إلى حيث الدكتور علام . المذيع في حالة تردد بين البقاء والهروب).

نيرون : كفى . كفى أيها الشيخ المخرف . كفى جناية على الماضي والمستقبل معاً . لقد صادفت في حياتي مئات المنافقين والمخربين ولم أصادف من هو أكثر منك نفاقاً وتخريباً . انك هدام . انك مدمر ، انك

تزيف التاريخ وتكذب على رجال كانوا في الماضي لتفسد وتضلل رجال المستقبل . ما الذي سلطك على الناس أيها الشيخ المفترّي ؟..

د . علام : من ؟ . من ؟. إخرس ..

المدير : من أنت أيها الرجل ؟ ..وكيف دخلت إلى هنا ؟ لقد كنت أمرت بإغلاق الابواب وعدم السماح لأحد بالدخول . فكيف دخلت ؟..

نيرون : (أكثر هدوءاً) الابواب مغلقة يا سيدي. أنا لم أدخل . أنا ظهرت.. أنا نيرون : الذي (هرج كبير . وصيحات إستغراب وفزع ...)

المدير : نيرون ؟ .. إنك مجنون لا شك في هذا .. أين الحراس ؟.. (يزداد الهرج بينما يحاول البعض الامساك بنيرون) .

المذيع : (بمنتهى الاضطراب والانفعال) . أيها السادة... معجزة.. حادثة .. شيء غريب الابواب مغلقة .. معجزة .. رجل .. ها هو أمامكم أيها السادة .. نجاح خالد للتليفزيون العربي .. معجزة .. نيرون .

المدير : (للمذيع غاضباً) إخرس أنت . ودعنا نعرف من أين جاء هذا الرجل .

المذيع : (بمسكنة) .. أيها السادة .. يسر التليفزيون العربي أن يترك « الميكرفون » للسيد مدير الجامعة ..

المدير : إتركوه .. فلتبق الابواب مغلقة .. (يجلس) من أنت أيها الرجل وكيف جئت إلى هنا ؟ .

نيرون : سيدي .. قلت إني نيرون .. وقلت إني لم أحضر بل ظهرت ..

عميد الحقوق: (بهدوء وجدية) .. كيف تثبت أنك نيرون وليس مهرجاً مثلاً ؟ (للجميع) إجلسوا من فضلكم حتى نستطيع أن نعرف حقيقة ما يجري . (يجلسون ويسود الهدوء مرة أخرى) .

نيرون : ماذا تعني يا سيدي ؟ ..

العميد : إني عميد كلية الحقوق . وأستاذ القانون فيها . فلا تطمع في أن أصدقك بدون دليل . أنت تدعي أنك نيرون . والثابت أن نيرون

قد مات منذ عشرين قرناً . فما هو الدليل على أنك نيرون ؟.

نيرون : (مبتسماً) ألم تسمع يا سيدي ما قاله هذا المؤرخ . لقد قال الشعب الروماني إنني لم أمت وسأعود . صدق الشعب . وهأنذا قد عدت. ألا تكفي كلمة الشعب دليلاً عندكم ؟.

د . علام : هراء .

العميد : (بجزم) دعك من هذه الدعاوي . وأياً من كنت فإني أطلب منك إحترام المكان الذي أنت فيه . لا تعبث أمامنا . تكلم . من أنت ؟.. وإذا كنت نيرون فما هو دليلك ؟ ..

نيرون : سيدي العميد ، انك على حق ولست أعرف كيف أقدم دليلاً على وجودي . كنت أحسب وجودي دليلاً كافياً على وجودي . وأنت تريد دليلاً آخر .. آه فهمت . مشكلة الزمان . تريد دليلاً على إني منذ أن وجدت ما أزال موجوداً .. أهذا هو الذي تعنيه يا سيدي ؟..

العميد : (بجزم) نعم . هذا هو الذي أعنيه فتكلم .

نيرون : كيف . كيف أثبت لكم إنني .. إنني .. روح مثلاً .. روح نيرون أو نيرون الروح .. (بثقة) سيدي العميد إنني نيرون جئت إلى هنا في اهاب شفاف ، اهاب روحي ، بإذن خاص من المعلم الأكبر (همهمات وضحكات مكتومة) .

العميد : (يضرب بيده على المنضدة ويتحدث بجزم القضاة) .. الهدوء من فضلكم وإلا أخليت القاعة . أيها الرجل المدعي . اثبت لنا الجزء الاول من دعواك . ما هو الدليل على أنك روح ؟..

نيرون : إذا أثبت لكم يا سيدي إنني جسم روحي فهل تعفني من إثبات إنني نيرون وإنني جئت من العالم الآخر بإذن ..

المدير : (مقاطعاً) نعم .. أثبت لنا انك روح ونحن نعفيك من أي سؤال آخر .. ونصدق أنك نيرون .

نيرون : فليكن . هذا هو دليل (يستل خنجره ويضرب به صدره وذراعه ضربات متتالية . بينما تسمع أصوات إستنكار وصرخات مكتومة. يغمى على المذيع وبعض الطالبات) .

د .علام : هراء .. هراء .. أين هو الدليل ؟ ..

نيرون : الدليل أنه ليس في عروقي الشفافة نقطة دم واحدة . إنني لا اتألم إنني لا أموت . ألا يكفي هذا دليلاً على إنني ..

المدير : يكفي .. يكفي .. يا نيرون يا سيد نيرون .. إن الجامعة ترحب بجلالتكم .. (هرج) .

العميد : (بغضب) قلنا الهدوء من فضلكم . بعد إذن السيد المدير سأتولى إدارة هذا الاجتماع . ولن أتردد في طرد من يخل بنظامه وهدوئه. لقد أصبح الأمر في منتهى الجدية بل الخطورة . وأرجو من كل واحد منكم أن يقدر مسؤولية الوصول بهذا الاجتماع التاريخي إلى غاية مفيدة (هدوء كامل) : إسمع يا سيد نيرون أجب على مابقي من أسئلة .

نيرون : ألم يعفني السيد (مشيراً إلى المدير) .

العميد : إن ما يجري الان يتجاوز حقوق الجامعة . أنه يهم البشرية كلها . ومع إعتذاري للسيد المدير فإني مصر على إستجوابك حتى النهاية أرجوأن يكون بيننا من يستطيع تسجيل الاستجواب .

المخرج : مسجل بالصوت والصورة يا سيدي العميد .

العميد : ممتاز . أجب يا سيد نيرون . كيف جئت إلى هنا ولماذا ؟ ..ولتكن إجابتك مرتبة حسب ترتيب الأسئلة. أولاً : كيف جئت إلى هنا؟..

نيرون : جئت يا سيدي بإذن خاص من المعلم الأكبر . كنت أحضر كل يوم إلى رحابه المقدس أتلقى على يديه دروساً في الحكمة . وكنت أسمع وأنا في طريقي اليه ما يقوله هذا الشيخ المضلل . فشكوت إلى معلمي العظيم ما يجنيه هذا الشيخ على الطلاب من أبناء هذا البلد

الذي أنجب المعلم الأكبر نفسه . فرأى أن ينقذهم . واستجابت لرجائه قوى العالم الروحي . فأذن لي بأن أظهر اليكم .. وهكذا ظهرت .

د . علام : أتقول أن المعلم الأكبر من أبناء هذا البلد ؟..

نيرون : نعم أيها الشيخ . انه ما يزال يلقي دروسه في الحكمة على كل الوافدين من دنياكم . وقد تركت عنده الآن ، استاذنا سقراط يتلقى درساً خاصاً ..

د . علام : (ساخراً) هراء .. إنك مجنون .. حتى لو كنت روحاً فإنك روح مجنون . إن التاريخ لم يعرف معلماً أول إلا : أرسطو .. وأرسطو ليس من هذا البلد .. أرأيت يا سيدي المدير . إنه رجل عابث وجاهل .

نيرون : ان المعلم الأول أرسطو ليس ، الآن ، إلا تلميذاً للمعلم الأكبر فخر بلادكم وعطائها العظيم للانسانية ، وأول قبس من الضوء في ظلمات البشرية . لقد كان أعظم ملوك هذا الوادي وهو الآن ، أعظم معلمي الحكمة ..

د . علام : هل تقصد خوفو .. الملك خوفو ؟..

نيرون : (ضاحكاً) خوفو ؟.. ولماذا خوفو أيها الشيخ ؟ ..

د . علام : (مستنكراً) لماذا خوفو .. غريب . اليس هو الذي بني الهرم أعجوبة الدنيا ومعجزة الهندسة والإنشاء وأثر العبقرية الفرعونية الخالدة ؟ ..

نيرون : (ضاحكاً) خوفو بنى الهرم الأكبر ؟ .. وكسب الخلود على لسانك . يا للتضليل . يا للتخريب . كأنك لم تفتر عليّ وحدي .

د . علام : أي إفتراء أيها المجنون . هل تنكر أن الهرم الأكبر أعجوبة الدنيا التي تجسد العبقرية ذاتها هندسة وإنشاء وبناء ؟..

نيرون : لا أنكر أيها الشيخ المخرف . إنما أنكر أن يكون خوفو قد بناه .

د . علام : كيف ؟.. كفى أيها المجنون الجاهل .. اخرجوه (يهم بعض الطلبة بالخروج اليه من أماكنهم) .

العميد : إنتظروا .. افصح يانيرون .. تكلم ..

نيرون : (للطلبة) .. حتى أنتم . أتصدقون الاكاذيب حتى ما يقع منها تحت أنوفكم ؟ .. إن الهرم الأكبر يجسد عبقرية الذين صمموا تكوينه الهندسي وحسبوا زواياه على إمتداد أشعة الشمس الخالدة ، وأرسوه حجراً فوق حجر إلى أن أصبح أعجوبة الدنيا . فهل كان الملك خوفو هو الذي صممه ؟.. هل كان خوفو هو الذي حسب زواياه ؟ .. هل كان هو الذي ذهب إلى الجبل الشرقي يختبر صخوره ويختار أحجاره .؟. هل بنى خوفو مراكب العبور التي نقلت الحجر إلى موضع البناء ؟.. هل رفع خوفو البناء حجراً فوق حجر إلى أن تم الهرم الأكبر ؟.. هل قالوا لكم هذا في كتب التاريخ التي يؤلفها أمثال هذا الشيخ المخرف ، حتى لا تبنوا أهراماً أخرى إلى أن يبنيها لكم خوفو آخر . أيها الشباب . أيها السادة .. لم يحدث أبداً أن فعل خوفو شيئاً من كل هذا.. كان خوفو يريد أن يكون من الخالدين . أو أن واحداً من الكهنة أقنع خوفو بأن من حقه الخلود لم يدر أحد أي السببين هو الصحيح فإن كاتب القصر وكاتم أسراره قد أخفى الحقيقة .فأمر الملك خوفو جموع الشعب في هذا الوادي بأن تبني له مقبرة . هذا هو كل ما فعله خوفو وما كان يهمه . لم تكن لديه أية فكرة عن الهرم كيف تكون زواياه ، كيف يعلو على الأرض ، كيف تحمل اليه الأحجار هو أمر . فإن كان الأمر شيئاً عظيماً وخالداً فخلدوه ، ولكن بعيداً عن الهرم . أما الهرم كتجسيد لعبقرية الإنسان فينبغي أن

ينسب إلى الناس أصحابه. إلى الذين صمموه وأنشأوه وبنوه فعلاً. إلى الذين ماتوا وهم يعبرون بأحجاره الثقيلة نهر النيل ، وهم يرفعونها بأذرعهم الصلبة إلى مواقعها في البناء . ولم يكن منهم واحد أسمه خوفو . لم يكن منهم ملك قط . فلماذا تنسبون فضلهم إلى غيرهم ؟ .. لماذا تخلدون خوفو الذي أمر ببناء مقبرة ولا تخلدون البشر الذين أقاموا معجزة ؟ الأنكم لا تعرفون أسماءهم ؟ .. خلدوا الشعب إذن .. (للدكتور علام بحزم وثقة) إن الشعب يا سيدي هو الذي بنى الهرم الأكبر ودفع ثمن بنائه من حياة أبنائه (تصفيق من صفوف الطلبة) .

المدير : يا سيد نيرون لكن من هو المعلم الأكبر الذي أذن لك بالظهور يا سيد نيرون ؟..

نيرون : أنه أخناتون .. ياسيدي المدير (دهشة وهمهمة وضحكات مكتومة).

د . علام : (مستعجباً) أخناتون ؟.. وما الذي رفع قدر ذلك الملك المشوه ؟.. الأنه عبد الشمس وفرض على الناس أن يعبدوها ؟..

نيرون : (بهدوء) .. لا يا سيدي .. لأنه كان أول ملك صادق .. الصدق يا دكتور علام هو مقياس الترقي في عالم الحقيقة ..

د . علام : (مستنكراً) صدق ؟.. وفيم صدق أخناتون ؟..

نيرون : صدق وهو قادر على الكذب . صدق فقطع سلسلة متصلة من التقاليد الكاذبة . صدق والصدق شيء يسيء اليه . صدق مع نفسه يا دكتور علام وصدق مع الناس . كان الملوك من قبله ، ومن بعده ، يأمرون بتجميل تماثيلهم وتزويق تاريخهم ، ليخدعوا الأجيال التالية حتى في حقيقة تكوينهم الجسدي وجاء هو فعرض نفسه على الشعب في زمانه ، وعلى الناس في كل زمان ، على حقيقته لم يكن يؤمن بآمون فأنكر عبادة آمون . كان يؤمن بالشمس

فعبد الشمس . حتى صورته المنحوته في الصخر جاءت كما تقول عنها .. شائهة .. لأن تلك كانت الحقيقة .

د . علام : وأية قيمة في هذا إذا كان ...

نيرون : (مقاطعاً بحدة) يا دكتور علام .. ألا ترى قيمة في الصدق . كيف تصدق ما رواه الملوك عن تاريخهم إذا كانوا قد بدأوا تزييف صورهم . ألا ترى أن الملك الذي يقف بجوار الفنان ويأمره بأن يرفع ذقنه قليلاً ، يفتح عينيه أكثر ، يطيل من رقبته قيراطاً ، ينفخ في عضلاته قدراً . ولا يستحي حتى من الفنان أمامه ، هو ملك كذاب . فكيف تصدق الكذابين ؟ .. غريب أنت يا دكتور علام .. تشيد بأستاذنا سقراط لأنه قال « أعرف نفسك » مع أنه قد يعرف نفسه ولا يخفيها أو قد يعرف نفسه ليخفيها .. ولا ترى القيمة الفائقة في الملك يقول لشعبه : لقد عرفت نفسي على حقيقتها فاعرفوها أنتم أيضاً على حقيقتها .. ليتك تأتي الينا قريباً يا دكتور علام .. لتحضر دروس المعلم في الصدق التي سيلقيها في أول العام القادم (ضحك خافت) .

د . علام : أعوذ بالله ..

العميد : (مقاطعاً) السؤال الثاني يا سيد نيرون .. لماذا جئت ؟ .

نيرون : جئت لأصحح للجيل الجديد الأخطاء التي يلقيها عليهم هذا الأستاذ (مشيراً إلى الدكتور علام) عن التاريخ الذي عاصرته .

د . علام : إنها ليست أخطاء . إنها وقائع ثابتة . وتحت يدي مئات المراجع الرسمية التي تثبت صحة الوقائع التي حدثت في عهدك ..

نيرون : (ضاحكاً) وقائع ثابتة يا دكتور علام ؟ .. قد تكون ثابتة في الكتب .. ولكنها ليست ثابتة الصحة . (يضحك عالياً) .. يا دكتور علام .. في عالمنا نتابع ما يدور في عالمكم ونعرف حقيقته

فأرجو ألا يصدمك أن تعرف أنكم لا تعرفون كل تاريخكم الذي تعيشونه. لنفترض أن الوقائع التي تعرفها عن تاريخي صحيحة..

المدير : ما الذي جئت تصححه إذن ؟.. هل تعبث أم ...

نيرون : (مقاطعاً) أصحح تفسيرها يا سيدي المدير .

د.علام : عندما تكون وقائع التاريخ ثابتة وصحيحة فانها تفسر نفسها بنفسها وليست في حاجة اليك . إذا كان التاريخ قد أثبت أنك مستبد فهل يحتاج هذا إلى تفسير . الإستبداد هو الإستبداد .

نيرون : هذا هو الخطأ الأكبر في حياتك يا دكتور علام . الخطأ في كل العبر التي تستخرجها من بطون كتب التاريخ . إنك لا تعرف أن العبرة ليست بالواقعة التاريخية كما حدثت . العبرة ، أيها الشيخ المخدوع ، بالظروف التي وقعت فيها . بالزمان الذي وقعت فيه . بعلاقتها بوقائع أخرى . انك تعامل الواقعة التاريخية كما لو كانت لقيطة . لا أب ولا أم ولا أسرة ولا مجتمع أنت تقول إني مستبد . كتب التاريخ التي تعلمت فيها تقول إني مستبد . وتلعنني في كل كلمة تقولها ولكنك لم تسأل نفسك أبداً . لماذا كنت مستبداً . متى كنت مستبداً . أين كنت مستبداً كيف كنت مستبداً . انك لا تعرف هذا الذي يسميه المعلم الأكبر « المربع الذهبي » ويوصينا بألا نفهم شيئاً إلا في إطاره : لماذا . متى . أين . كيف . إنك لم تسأل نفسك ، قبل أن تلعنني عمن هم الذين استبد بهم نيرون ، ومن هم الذين استبد من أجلهم نيرون .. إنك تشيد بالملك خوفو وتسرق له الخلود من الشعب ، فلماذا لا تلعنه إذ سخر الشعب ليبني له مقبرة يضمن بها لنفسه وحده ، الخلود ؟.. يا دكتور علام .. إنك تحفظ التاريخ ولكن لا تفهمه .. التاريخ عندك قصة وليس حياة .. وهذا جهل يا ...

المدير : (مقاطعاً) يا سيد نيرون لعلك تعرف ان ما يدور الآن في هذه القاعة مذاع على الناس .

نيرون : نعم أعرف هذا .. وقد قلت اننا نتابع ونعرف ما تفعلون ..

العميد : إذن ، أرجو أن تقدر مسؤولية الموقف وأن تختار كلماتك على الوجه الذي يليق بمخاطبة أستاذ في الجامعة .

نيرون : أعتذر يا سيدي وسأحاول ما استطعت مخاطبة الدكتور علام بما يخاطب به أستاذ في جامعة ..

العميد : نشكرك .. إستمر ..

نيرون : (للعميد) جئت ، إذن ، يا سيدي لأصحح لهؤلاء النشيء العبر الخاطئة التي استخلصها لهم الدكتور علام . إن هذه العبر ليست خاطئة فحسب بل خطيرة أيضاً . أحد مصادر خطورتها يا سيدي أنها صادرة من الدكتور علام على وجه التحديد .. فلا أحد يستطيع أن ينكر قيمة ما يصدر من الدكتور علام كواحد من أقوى المؤرخين أثراً (للدكتور علام ضاحكاً) أترى يا دكتور علام ، إني أشيد بك . إن مرجع غضبي تقديري لتأثيرك . إني أنصفك كمؤرخ ولكني جئت أنصف الناس منك كمعلم . إنك تقدم إلى الجيل الجديد عبرك الخاصة مغلفة بصفحات التاريخ . وتحرضهم على أن يصوغوا مستقبل حياتهم على هديها . أي كما تريد أنت . إنك في آخر عمرك تريد أن تستولي على حياة الناس . ولما كنت مجرداً من قوة السلطان الذي يفرض إرادته فإنك تحتال بقوة البيان لتتحكم فيما يريدون . أليس هذا إستبداداً من ...

المدير : (مقاطعاً ومنبهاً) .. نيرون ..

نيرون : آسف يا سيدي (للعميد) .. سيدي العميد .. هل تتفضل فتذكر لنا الفرق بين السرقة والنصب ..

العميد : كلاهما جريمة يختلس بها المجرم ما يملك غيره . السرقة تتم بدون رضاء المجني عليه . والنصب يتم برضاه نتيجة أعمال إحتيالية .

نيرون : عظيم . ما الفرق . إذن ، يا دكتور علام بين الاستبداد يفرض إرادته بدون رضاء الشعب ، والاستبداد يفرض إرادته بالاحتيال على الشعب ؟ .. عبر التاريخ ليست بسيطة إلى الحد الذي تظنه يا دكتور علام ..

د . علام : وما فائدة التاريخ إذا لم نستخلص منه عبراً تفيد الناس في مقبل حياتهم ؟ ..

نيرون : لا فائدة . وأنت محق في فهمك دور التاريخ في تقرير المصير . وهذا مصدر خطورتك على الجيل الجديد .. مصيبة الناس فيك (لمدير الجامعة) آسف يا سيدي (مستمراً) انك تقول بعض الحق ثم تدس معه البعض الاخر من عندك . فتدخل الأخطاء مع الحقائق من باب واحد كما تدخل الكلاب الصغيرة أبواب المنازل بين أقدام الضيوف . لماذا لا تقول — على الأقل — إن ما تراه من عبر في التاريخ هو اجتهادك الخاص ، ثم تدعو غيرك إلى الاجتهاد مثلك .. لماذا لا تقول ..

العميد : (مقاطعاً) طيب يا سيد نيرون . عرفنا لماذا جئت فكيف ستؤدي ما جئت من أجله ؟ .. كيف ستصحح ما تعتقد أنه خطأ في دراسة تاريخك ؟ . لقد انقضى ، أو كاد أن ينقضي العام الدراسي .

المدير : قد تستطيع الجامعة إنتدابه لتدريس التاريخ في العام القادم على بند..

نيرون : (مقاطعاً) أيها السادة . لست أعرف كيف أصحح ما قاله الدكتور علام خلال عام . إني أستعين بكم في العثور على وسيلة مناسبة . غير إني لا أرى أن انتدابي للتدريس في العام القادم ، كما

تفضل السيد المدير وسيلة مناسبة . أولاً لأن الأذن بظهوري محدود بأسبوع واحد . وثانياً لأن هؤلاء الطلبة الذين جئت من أجل تطهير عقولهم مما تلقونه خلال العام سيتخرجون هذا العام يحمل كل واحد منهم في رأسه ما تلقاه . ولم يكن حضوري لانقاذهم وحدهم من تضليل التاريخ كما عرفوه ، بل لاحول أيضاً دون أن ينقلوا عدوى الضلال إلى غيرهم . أرجو أن نجد معاً وسيلة سريعة ومناسبة .

المدير : ما رأيك في مناظرة بينك وبين الدكتور علام ..

العميد : لا . بعد إذن السيد المدير . المناظرة لا تجدي . إن غاية المتناظرين التغلب على خصومهم في الجدل . وكسب الاعجاب بمقدرتهم .

نيرون : على السفسطة (ضحك) .

العميد : أعتقد هذا . كما أعتقد أن الذي إقتحم علينا مجرى أفكارنا هو السيد نيرون . لقد جاء ليعيد طرح قضيته .

نيرون : (بحماس) تماماً يا سيدي العميد . هذا ما جئت من أجله .

العميد : تريد أن تستأنف حكم التاريخ عليك .. مثلاً ...

نيرون : نعم . هذا هو ما أريد .

العميد : طيب يا سيد نيرون . لقد حكم التاريخ بإدانتك . وأنت تريد أن تستأنف حكمه . تريد أن تطرح قضيتك مرة أخرى . هذا ممكن . على أن تبقى في موقف المتهم ..

نيرون : ماذا تعني يا سيدي .

العميد : أعني أننا لا نستطيع أن نبطل كل ما عرفناه عنك إلا إذا ثبتت براءتك منه . فأنت في موقف المتهم الذي لم يحكم عليه ، بعد ، حكماً نهائياً . هذا أقصى ما يسمح به القانون .. فهل تقبل ؟..

نيرون : أقبل ماذا ؟..

العميد : تقبل محاكمتك . أعني إعادة محاكمتك .

نيرون : أين ؟.. أمام أية محكمة ؟..

العميد : في هذا المكان . أمام كل الناس الذين لا يرون الآن ما يجري هنا .

نيرون : (متردداً) نعم . نعم أقبل . وليكن الناس شهود .

العميد : عظيم . ستوفر الجامعة ما يلزم لمحاكمة علنية . لقد قلت إنك مأذون لأسبوع ، فهل تستطيع أن تحضر غداً ؟..

المخرج : (متدخلاً) سيدي العميد . بعد إذنك . غداً لا يكفي . إن نظاماً أعلامياً خاصاً لا بد أن يقوم العالم كله سيعرف غداً ، إن لم يكن قد عرف الآن ، نبأ الحدث العظيم الذي جرى اليوم وسنطلب صحافة العالم وأجهزة اعلامه حضور المحاكمة . وأظن أن السيد نيرون لن يرفض هذا ..

نيرون : أبداً .. أبداً .. بالعكس .. إني أرحب به .

المخرج : ليس أقل إذن ، من خمسة أيام قبل أن تبدأ المحاكمة ، حتى يستطيع المسؤولون عن الاعلام والأمن أيضاً توفير ما يلزم ، ويليق ، بهذه المحاكمة .. إن خمسة أيام ...

نيرون : (مقاطعاً) أوافق .. سأعود بعد خمسة أيام .

المدير : هل لك رأي فيمن يكون قضاتك ؟..

نيرون : هذا الرجل . عميد كلية الحقوق . أريده قاضياً وحيداً ..

العميد : ان قانون الاجراءات يتطلب أن ينظر القضايا الهامة أكثر من قاض واحد لضمان ..

نيرون : (مقاطعاً بسخرية) .. أي ضمان يا سيدي العميد ؟..ثم إني أريد حكماً يصدر عن يقين المعرفة لا بترجيح اراء أغلبية القضاة .. أريدك أنت قاضياً .. وسأقبل محاكمتك ..

العميد : فليكن . سنعتبرها محكمة خاصة . ومن سيكون المدعي ...؟

د . علام : (مندفعاً) أنا.. بعد إذنكم أنا. الذي سأقيم الدعوى ضد هذا الرجل.. أرجو أن تسمح لي يا سيدي المدير بهذا الدور لأختم به حياتي .

نيرون : (مبتسماً) وأنا أقبل .

المدير : إذن ، ستكون المحاكمة في هذه القاعة بعد خمسة أيام . تبدأ في الساعة الثامنة صباحاً . ستقوم الجامعة بما يهمها من إجراءات وعلى السادة التابعين لوزارة الاعلان أن يقوموا بما يهمهم منها . كما سنخطر المسؤولين عن الأمن . إذ أتوقع أن يتزاحم الناس على الحضور ..

المخرج : صحيح يا سيدي المدير . وأرجو من ناحيتي أن تأذن إدارة الجامعة بإقامة مكان ملحق بالقاعة للترجمة الفورية .

المدير : فليكن . هل بقي شيء ؟..

العميد : المتهم . طبقاً للقانون لا بد من إعلام المتهم بما هو منسوب اليه قبل المحاكمة . يا دكتور علام هل حددت التهم التي تريد أن توجهها إلى المدعى عليه ، أم أنك ستتهمه بكل ما جاء في كتب التاريخ ؟..

د . علام : لا يا سيدي العميد ليس كل ما جاء في كتب التاريخ . رأيي دائماً أن بعض وقائع التاريخ تكفي لاستخلاص عبرته . إني أختار أربع تهم محددة . أولاً : قتل أمه . ثانياً : قتل أستاذه . ثالثاً : فرطت في أملاك الامبراطورية . رابعاً : حرق روما . هذا يكفي يا سيدي العميد .

نيرون : (مبتسماً) ان كان يكفي الدكتور علام فهو يكفيني ..

المدير : هل انتهينا الآن .. هل بقي شيء .

العميد : بقيت مشكلة الاثبات . إن شهود التاريخ غائبون . ولا بد من شهود لاثبات أو نفي وقائع الدعوى ، المنطق وحده لا يكفي .

نيرون : هذه مشكلة محلولة يا سيدي العميد . لقد تضمن الأذن لي تصريحاً بأن أصحب معي من أريد إذا كان ظهوره لازماً لاثبات الحقيقة فما عليكم ، ما على الدكتور علام ، إلا أن يطلب حضور من يشاء فيحضر معي ..

د . علام : (منفعلاً) .. نعم . نعم . هذا جيد . عظيم . أشكرك يا نيرون . شاهداي هما أملك ، وأستاذك نعم أملك التي ولدتك وأستاذك الذي علمك .

العميد : (لنيرون) هل تعترض على أحد منهما ؟..

نيرون : (مبتسماً) أبداً . أبداً . ما يكفي الدكتور علام يكفيني . أريد أن أضيف اليهما المواطن فاؤون . ذلك الذي قال الدكتور علام انه اواني إذ هربت إلى منزله (تهبط حماسته . ويبدو مهموماً غير منتبه لما يدور)

العميد : (مغتبطاً) . طيب. لتحضر معك أملك وأستاذك (للدكتور علام) ما أسمه ؟..

د . علام : سينكا . الفيلسوف سينكا . الفيلسوف أنيوس سينكا .

العميد : لتحضر معك أملك والاستاذ سينكا والمواطن فاؤون (منبهاً) نيرون .. نيرون .. يا سيد نيرون. هل تسمعني ؟..

نيرون : (قلقاً ومنقبضاً) .. أسمعك يا سيدي العميد .. أحضر معي أمي والاستاذ سينكا والمواطن فاؤون فقط . أعني . ولكن ..

العميد : ولكن ماذا يا سيد نيرون . لماذا تبدو مهموماً ؟..

نيرون : (بقوة) أيها السادة . لم أكن جباناً قط . ولكن يبدو إنني تجاوزت الوسط الذهبي الذي قالوا لي أنه الفضيلة . تجاوزت الشجاعة إلى التهور . فها أنذا ، على مرأى ومسمع من كل الاجيال التي سبقتني والاجيال التي عاشت من بعدي القي بنفسي في مخاطر

عدالة لا أعرف مقاييسها . (للعميد) سيدي العميد الجليل .. هل يمكن أن أعرف الآن ، وقبل فوات الأوان .. أعني هل يسمح نظامكم القضائي بأن يعرف المتهم .. ما هو مقياس العدل الذي تقيسون به أعماله ؟..

العميد : إنه القانون يا نيرون ..

نيرون : أي قانون يا سيدي ؟.. أهو القانون الروماني الذي عشت في ظل أحكامه ؟..

العميد : ليس تماماً . إننا نطبق القانون القائم حالياً . وهو ليس غريباً عن القانون الروماني . ولكنه ليس قريباً منه . انه أكثر تطوراً وإن كان قائماً على الأصول ذاتها . إنه عندنا عنوان العدالة ومقياسها وهو ، بعد ، يجيز لنا – إن رأينا من وقائع الدعوى ضرورة العودة إلى القانون الروماني – أن نعود اليه .. وهكذا يمكنك أن تطمئن إلى عدالتنا ..

نيرون : رائع . رائع يا سيدي الجليل . ان الطمأنينة تدب فعلاً في روحي حتى يكاد الدم يجري في عروقي البلورية . فمن أجل مزيد من الدماء الدافئة هل أستطيع أن اسأل سؤالاً صغيراً .. أعني أستفهم ؟

العميد : طبعاً . إسأل يا نيرون .. إن ما يهمنا قبل كل شيء أن تطمئن روحك إلى عدالتنا .

نيرون : ان عدالتكم يا سيدي لم تعد محل سؤال . ألم تقل لي منذ برهة أنكم تقيسون العدل بمقياس القانون . هذا يكفيني يا سيدي . إنما الذي يدور بخاطري هو .. هو .. ما هو المقياس القانوني للعدالة ؟..

العميد : ماذا تعني ؟..

نيرون : أعني يا سيدي أنكم تحكمون بالعدل عندما تقضون بحكم القانون. إلى هنا يكون القضاة عادلين لا شك في هذا . ولكن ما هو مقياس

عدالة القانون ذاته.. هل أتكلم بمزيد من الصراحة ؟ هل تسمحون؟.

العميد : تفضل ..

نيرون : لو كان القانون ظالماً وقضيتم بحكمه فانكم عادلون وحكمكم ظالم .. هل ترى يا سيدي ؟.. إن كونكم عادلين لا يعني أنكم تحكمون بالعدل .. أرجو أن أكون قد أوضحت .

د .علام : (متدخلاً) أوضحت بما يكفي وأكثر . ان كل هذا ليس غريباً عنك . إن في تاريخ القضاء والتاريخ العام الواناً من المماطلة ..

نيرون : (غاضباً) . مماطلة .. هل أكون مماطلاً لمجرد أنني استأذنت فأذن لي فسألت.. لقد عادت نقط الدمالثقيلة تنسحب من عروقي..

العميد : لا . لا . إهدأ يا نيرون . المسألة أنه لم تجر التقاليد بمثل هذا الحوار مع المتهمين . ولكني أعتقد أن أهمية قضيتك تبرر هذا التجاوز . فالقانون لا يحاكم الملوك والمجانين والاطفال . وأنت ملك إمبراطور . ولا يحاكم الأباطرة كل يوم . كل ما نرجوه أن تفصح عما تريد باختصار .. ألا ترى أن الحوار قد طال أكثر مما يجب ؟..

نيرون : سيدي. أشكرك. أريد أن أعرف ما هو مقياس العدل في القانون؟..

العميد : مقياس العدل هو النص .كل ما يخالف نص القانون غير مشروع. غير عادل .

نيرون : نعم . نعم . ولكن النص هو القانون . اليس كذلك ؟.. فما هو مقياس العدل في نصوص القانون ؟

العميد : آه فهمت ما تريد . القانون يا نيرون القانون الذي سنحاكمك طبقاً لنصوصه يأخذ سلوك الرجل العادي مقياساً للعدالة ، لا بد أنك تفهم هذا . إنه ميراث من القانون الروماني . الرجل العادي هو المقياس . المجنون مثلاً ليس عادياً . المكره ليس عادياً .العبقري

ليس عادياً . الغبي ليس عادياً . القانون لا يعتد بما يفعل المجنون والمكره . لا يقبل عذر العبقرية . والقانون لا يحمي الأغبياء ..

نيرون : سيدي العميد . أعذرني . إن الامور قد إختلطت عليّ فلم أعد أفهم شيئاً . وأحسب انني مغبون باسم العدالة أو بغير اسمها . لقد كانت حماقة منذ البداية أن أتحدى التاريخ وأقبل المحاكمة .

العميد : نيرون . ما الذي جرى ؟ .. لماذا كل هذا الجزع . هل تخذل العالم كله وتنسحب الآن لمجرد أنك لم تستطع أن تدرك قواعد العدالة في عصرنا .

نيرون : لا يا سيدي . لا . إني أدركها . مصيبتي إني أدركها جيداً . لكن تأمل معي يا سيدي . ألم تقل أن مقياس العدالة في القانون هو سلوك الرجل العادي ؟..

العميد : نعم .. هو ذاك ..

نيرون : هل جاء في القانون وصف دقيق لهذا الرجل العادي ؟..

العميد : لا . ولا أحسب أن هذا لازم .

نيرون : مهلاً يا سيدي .. هل أنت الرجل العادي ؟..

العميد : لا يقيناً لا ..

نيرون : هل أنا الرجل العادي ؟

د . علام : (متدخلاً) طبعاً لا ..

نيرون : (للعميد) إذن ، يا سيدي ، هاك عقدة الموقف . إذا سلمنا بعدالتكم أولاً . وسلمنا بعدالة القانون ثانياً . يبقى في هذه القضية ثلاثة أطراف . أنت القاضي . وأنا المتهم . ثم الرجل العادي . وواضح يا سيدي أن أحدنا سيكون غائباً . ذلك الاحد الذي قاس القانون عدالته على قده . إنني لست فقيهاً في القانون يا سيدي العميد ولكني أحسب أنك حين تحاكمني لا تحاكم الرجل العادي .

وإذا حاكمت الرجل العادي فأنت لا تحاكمني .

العميد : أنت كثير الشك يا نيرون . لقد اخترتني قاضياً ألا تثق بضميري . ان القضاة هم الذين يحددون ماهية الرجل العادي ويقيسون عليه ما يسند إلى الآخرين .

نيرون : كيف يا سيدي ؟

العميد : انهم من الناس يا نيرون .. يعيشون بينهم .. ويدركون ظروف حياتهم . ويعرفون مسالكهم العادية ومسالكهم الشاذة ..هذه هي مهنتهم .. لا يؤدونها منعزلين عن مجتمعهم أو معزولين عنه ، بل كجزء منه . وعلى قدر التحامهم بمجتمعهم يكونون عادلين .

نيرون : وما الذي يحدث يا سيدي العميد إذا كان القاضي منعزلاً أو معزولاً عبقرياً أو غبياً أنت مثلاً يا سيدي . إني أرى فيك إنساناً كامل الحكمة ، هذا يطمئنني على وجه ويقلقني على وجه . أو أصبح يقلقني . لقد وثقت بك فإخترتك قاضياً . ربما لأنني رأيت فيك إنساناً غير عادي في فطنته . توسمت فيك فطنة غير عادية . وأعرف الآن أنك حين تصبح قاضياً ستقيس ما فعلت على رجل عادي تختاره أنت . وإني لاخشى أن يكون إختيارك متسقاً مع شخصك العظيم . الواقع أنه لا بد أن يكون متسقاً مع شخصك العظيم . انك لاتستطيع أن تفعل غير هذا سيأتي إختياراً غير عادي للانسان العادي . وإذ بك تحاكمني قياساً على شخصك ..

العميد : مهلاً يا نيرون . لا تعقد الأمور أكثر مما يجب . ما نزال ، بعد ، بشراً ولسنا قادرين على أن نتجاوز واقعنا البشري لنبلغ مستوى المثالية .. إن الافكار المثالية ، عن العدالة وغيرها ، أفكار جميلة ، ولكنها – كما يجب أن تعرف – ليست انسانية . إنها ، بشرياً ، فاشلة بقدر بعدها عن الواقع الانساني فلا تحملنا ما لا طاقة لنا به .

وإذا كنت تريد أن تثبت براءتك للناس ، فلتقبل حكم الناس ، طبقاً لمقاييس عدالتهم ... فهل تقبل ؟..

نيرون : (بحماس وفرح شديد) . أقبل يا سيدي .. أقبل حكم الناس .. أقبل حكم الناس .

العميد : طيب لم تبق إلا مشكلة الدفاع . من تختار للدفاع عنك . أو تختار لك المحكمة محامياً ؟..

نيرون : سيدي ألم تنصح بعدم تعقيد الأمور أكثر مما يجب ، فلماذا يدافع عني محام ؟. هل أنت في حاجة إلى مساعد ؟..

العميد : لا لست أنا الذي في حاجة إلى مساعد . القانون يفترض أنك في حاجة إلى مساعد . الواقع أنه — في مثل قضيتك — يلزمك القانون بقبول مساعدة المحامي. فإذا لم تختره .. إختارته المحكمة.

نيرون : وفيم يساعدني .. إني أعرف ما حدث أكثر منه .

العميد : يساعدك في بيان حكم القانون فيما حدث .

نيرون : انه يساعدك أنت إذن . وقد قلت انك في غير حاجة اليه . هل أنت واثق من أنك في غير حاجة اليه ؟.

العميد : الواقع يا نيرون ..

نيرون : (مبتسماً) .. الواقع يا سيدي .. إنني أعرف ما تريد أن تقول، وأعرف المحامين والمحاماة . إنها أقدم مهنة اقدم حتى من روما .. وعندما كان القانون مجموعة من الطقوس الشكلية لا يحفظها كل واحد .. وعندما كانت البلاغة هي الطريق إلى التأثير في القضاة الذين لا يعرفون القانون كان المحامي لازماً لتعويض جهل المتهم بالطقوس أو ضعفه في الخطابة . أما الآن .. والقاضي يعلم القانون

ويطبقه ولا يحتاج في سبيل هذا إلا إلى معرفة الوقائع . فلست أعرف كيف عاشت تلك المهنة .. على أي حال .. بإذن منكم سأدافع عن نفسي إلا إذا وجدت انني في حاجة إلى دفاع .. فإن كان شكل القانون لا يتم إلا بإختيار محامي .. يحضر في القاعة .. أو يقف بجوا ي .. فإني أترك هذا لكم .

العميد : إذن ، ستبدأ المحاكمة ، في هذه القاعة ، بعد خمسة أيام الساعة الثامنة صباحاً .. إنتهى الاجتماع (هرج ومبادرة للخروج) .

نيرون : لحظة أيها السادة .. حتى أعود .. (يتجه متقهقراً إلى مكان ظهوره) .

د . علام : (بإنفعال) لا . لا . أمسكوه . قد لا يعود .

نيرون : (للدكتور علام) .. كل واحد يقيس الناس على شخصه يا دكتور علام .. الكذابون لا يصدقون أحداً .. أما أنا فسأعود (يختفي)

ستـــار

الفصل الثاني

المكان : القاعة ذاتها بعد أن تحولت إلى قاعة للمحاكمة . أضيف إلى يمين المنصة مكان للمدعي وإلى يسارها مكان للمسجل . أضيف صفان أماميان من المقاعد . الأول لاساتذة الجامعة وكبار الحاضرين . الثاني لممثلي أجهزة الاعلام العالمية . علقت على الحائط خلف المنصة صورة كبيرة لشعار العدالة : فتاة معصوبة العينين تمسك ميزاناً . بين المنصة والحاضرين أربعة مقاعد شاغرة للمتهم والشهود .

الأشخاص :

١ ـ اجربينا جرمنكوس : والدة نيرون في نحو الأربعين فاتنة الجمال والرشاقة مثيرة الأنوثة ، في ملابس رومانية خليعة .

٢ ـ إنيوس سينكا : فيلسوف ، في نحو السبعين ، طويل نحيل أصلع مصاب بالربو ، بدون لحية في ملابس رومانية .

٣ ـ أشخاص الفصل الأول . وعدد كبير من رجال الأمن والأساتذة وممثلي أجهزة الاعلام من كل جنس يضعون على آذانهم سماعات لتلقي الترجمة . مصورون . الحاضرون خليط من الناس أكثرهم من النساء وقلة من الطلبة .

عندما يرفع الستار تكون القاعة مليئة وقد أخذ كل واحد مكانه .

صمت ثقيل لا يخلو من همهمات . ترقب مشوب بالتوتر والقلق . الانظار المترددة بين المكان الذي خرج منه نيرون والساعات التي يحملها الحاضرون .

د . علام : (يغادر مكان المدعي بهدوء ويحدث العميد بصوت خافت) .. سيدي القاضي ، هذه هي قائمة الاتهام والشهود (يعطيه ورقة وتثير هذه الحركة همهمات وضحكات خافتة) .

العميد : (يأخذ الورقة ويضيفها إلى أوراق أمامه) .. طيب . تفضل أنت (يدق بمطرقة في يده) هدوء من فضلكم .. قد اقتربت الساعة . (تبدأ ساعة الجامعة في الدق معلنة الثامنة . الترقب والقلق يتزايدان مع توالي الدقات . يتأهب المصورون . في اللحظة التي تتم فيها الدقة الثامنة ، يظهر نيرون . يتقدم رشيقاً مرحاً نحو القاضي وينحني تحية له . يتزاحم المصورون لالتقاط صور له من زوايا مختلفة . يصفق له بعض الحاضرين من الطلبة والنساء .. العميد يصبر على الجميع بينما يقف نيرون وقفة تحفز متطلعاً إلى شعار العدالة).

العميد : (يدق بشدة على المنضدة ثم للمصورين) .. كفى . كفى . هذا يكفي (بصوت حاد وحازم) بأمر المحكمة هذا يكفي . وليأخذ كل واحد مكانه (بينما ينسحبون إلى أماكنهم) .. نيرون هل أنت مستعد ؟.. نيرون . لن يحضر معك محام . لم يكن القانون الروماني يوجب حضوره والمحكمة تستجيب لرغبتك في الدفاع عن نفسك . نيرون هل تسمعني .. إلام تشير بإصبعك ؟.

نيرون : إلى هذه الفتاة يا سيدي .. ما الذي تفعله هنا ؟..

العميد : إنها شعار العدالة يا نيرون .

نيرون : هل لا بد للعدالة من شعارات يا سيدي ؟..

العميد : انها التقاليد يا نيرون . دعك من الشكليات ولندخل في الموضوع إن العالم كله ينتظر ..

نيرون : انها ليست شكليات يا سيدي .. إنها في صميم الموضوع . لقد استطعت من قبل إقناعي بكثير مما لم أكن لاقتنع به . ولكن هذه .. مستحيل. مستحيل أن أقبل الاحتكام إلى عدالة شعارها فتاة عمياء. فاما أن ترفعوها واما أن ترفعوا العصابة عن عينيها . إني أريد أن أواجه عدالة مبصرة . أما عمياء (بإنفعال) .. فلا .. مستحيل .. لا أقبل .. إرفعوها كلها .

العميد : (ملاطفاً بغضب) . نيرون . إنها رمز لكون العدالة لا ترى أحداً فلا تفرق بين الناس . إنها رمز المساواة بين الناس ، فهل تعترض على المساواة بين الناس ؟.

نيرون : ليس الناس يا سيدي ، إنساناً مكرراً . ليس الناس كأسنان المشط. شئنا أم أبينا لا يستوي الناس ذكاء ومقدرة على العمل ، ولا تستوي ظروفهم في الحياة . فإذا كانت العدالة تريد أن تعاملهم على قاعدة المساواة فإنها لن تستطيع المساواة بينهم إلا إذا عرفت ما بينهم من فروق . وهي لا تستطيع أن تعرف إلا إذا أبصرت فرأت فقدرت. أما المساواة الشكلية ، أما المساواة السلبية ، أما مساواة العميان ، فأنها هروب من اقامة العدل . لا يا سيدي .. إرفعوا هذه الفتاة من هنا .. أو أعود (همهمة وأصوات وهرج) .

العميد : فليكن يا نيرون .. إرفعوا هذه الصورة (بعض رجال الشرطة يرفعون الصورة بينما يصفق بعض الحاضرين فيضرب العميد بمطرقته مطالباً بالهدوء) ..

نيرون : أشكرك يا سيدي .. الآن إني مستعد ..

العميد : (يضرب بمطرقته ثلاثاً) .. إذن فتحت الجلسة .. (يقرأ) .. لويسيوس نيرون ..

نيرون : نعم .

العميد : أنت متهم بأنك في الفترة ما بين سنة ٥٤ وسنة ٦٨ بعد الميلاد ، بمدينة روما ، قد ارتكبت الجرائم الآتية . أجب بما إذا كنت مذنباً أو غير مذنب عن كل جريمة على حدة :

أولاً : قتلت والدتك أجربينا جرمنكوس الشهيرة بأجربينا الثانية ، عمداً مع سبق الاصرار والترصد وذلك بأن أمرت تابعيك الذين يلزمهم القانون تنفيذ أمرك بقتلها فقتلوها ضرباً بالسيوف .

نيرون : غير مذنب .

العميد : ثانياً : قتلت الأستاذ إنيوس سينكا عمداً مع سبق الاصرار وذلك بأن أمرته أمراً يلزمه القانون تنفيذه وهو أن يقتل نفسه . فقتلها بإن قطع شرايين يده .

نيرون : غير مذنب .

العميد : ثالثاً : فرطت في أملاك الأمبراطورية الرومانية وذلك بأن تنازلت باسمها عن بلاد اليونان بدون أن تكون مكرهاً على هذا في حرب أو ثورة داخلية .

نيرون : غير مذنب .

العميد : رابعاً : حرقت مدينة روما .

نيرون : غير مذنب .

العميد : الشهود . أين الحاجب ؟ .. ألا يوجد حاجب ؟ .. من ينادي على الشهود .. نسينا .

المذيع : (واقفاً في مكان التسجيل بحماس وإنفعال) .. أنا .. أنا لو سمحت يا سيدي القاضي .. إن التسجيل مستمر . وقد أمرت سيادتكم بعدم التعليق أثناء المحاكمة .. فأنا لا أفعل شيئاً وأريد ..

العميد : (مقاطعاً) .. طيب . خذ (يعطيه ورقة) .. ناد الشاهدة الأولى .

المذيع : (يرتب هندامه ويختبر حنجرته ثم ينادي) . أجربينا جرمنكوس الشهيرة بأجربينا الثانية .. (تظهر أجربينا وترتفع الهمهمات وتعليقات الاعجاب . المصورون يصورونها بينما تتجه نحو العميد وتنحني تحية له) .

العميد : أجربينا جرمنكوس الشهيرة بأجربينا الثانية ؟..

أجربينا : نعم . أنا هي ..

العميد : سنك ، ومهنتك ، ومحل إقامتك .

أجربينا : (مرتبكة ثم ساخرة) لا سن لي ولا مهنة ولا محل إقامة (ضحك) .

العميد : (يضرب بمطرقته) .. لا يهم .. إنها محكمة خاصة على أي حال . أقسمي أن تقولي الحق ، كل الحق ، ولا شيء غير الحق .

أجربينا : أقسم بأن أقول الحق ولا شيء غير الحق .

العميد : أكملي القسم .. وكل الحق .

أجربينا : فيما اسأل عنه ، اليس كذلك ؟..

العميد : نعم . طبعاً .

أجربينا : وكل الحق .

العميد : السيد المدعي . إنها شاهدتك فابدأ بإستجوابها .

د . علام : (بهدوء وتهيب) . أيتها السيدة أجربينا . هل تعرفين المتهم ؟.

أجربينا : نعم . إنه ابني . نيرون .

د . علام : أذكري للمحكمة تاريخه كما عرفتيه منذ مولده حتى تولى عرش روما .

أجربينا : كل التفاصيل ؟

العميد : لا . ليس كل التفاصيل .

د . علام : طبعاً . طبعاً . ليس كل التفاصيل . أذكري من تاريخ حياته ما

يكفي لنعرف ملكاته العقلية والنفسية وطباعه الغالبة . وأذكري تاريخ وصوله إلى العرش . أعني كيف صار إمبراطوراً .

أجربينا : تزوجت والده إكنيوس دوميتيوس وكانت سني ثلاث عشرة سنة . كنت .. يقال إني كنت جميلة . أجمل من الآن . وكنت : كانوا يقولون انني ورثت ذكاء أمي . وأنجبته فجاء ابني . ثم مات أبوه في واحدة من تلك الحروب اليومية التي كان يشعلها الاباطرة فكرست حياتي لتربيته . فشب ولا مثيل له بين أطفال روما كلها ورث كل ذكاء أسرتي ، ورث كل جمال أسرتي . وخفة دمهم ايضاً . وأدهش روما كلها منذ طفولته بحبه كل ما هو جميل . بدأ يقول الشعر وهو في السابعة من عمره . وكان يرسم . وكان ينحت . وكان يمثل . وكان يؤلف ويعزف الحاناً رائعة تسعد الآلهة أنفسهم . وكان يكره كل ما هو قبيح . كره قبح المباني في روما . كره التواء شوارعها الضيقة . كره الاقذار المنحدرة من أعلاها المتراكمة عند أسفلها . كره المستنقعات التي تحيط بها . فكان يهرب من روما أياماً يحمل جيتاره متجولاً في الريف . لا أعتقد إنه لم يكن يحمل الجيتار بل كان يحمل الارغن الذي إخترعه .لا . لا . كان يحمل الجيتار كما قلت أولاً .. إنه لم يخترع الارغن إلا فيما بعد .. آسفة . إني أكره التفاصيل فلا أتذكرها .. قلت .. ماذا كنت أقول ؟.. آه .. كان يحب الريف .. كل ما في الريف (ضاحكة) .. عندما بلغ السابعة عشرة وأردت أن أزوجه .. قال : أمي لقد تزوجت الطبيعة .. إني أزف اليها كل ليلة على اضواء النجوم . كان يهزل طبعاً . فإن الزواج هو الطريق إلى اخصب عناصر الطبيعة .. عاد إلي يوماً أحد العبيد الذين كانوا يحرسونه من بعيد أثناء جولاته . عاد فزعاً . وقال لي : سيدتي ، ادركي ابنك انه منذ يومين منبطح بين الاحراش لا يأكل ولا يشرب

ولا يتكلم .. بل ينظر بعين ثابتة إلى زهرة صغيرة .. ذهبت اليه.. في الليل البارد ورأيته على ضوء القمر كما قال العبد تماماً .. إقتربت منه فلما عرفني قال : أمي . لماذا تقتحمين خلوتي .. لماذا ؟.. ثم بكى . ضممته إلى صدري وقبلته وسألته : ما الذي كنت تفعله إن القصر مليء بالزهور .. وإن تشأ أحضر اليك كل زهور الأرض .. قال ببراءة الطفل : كنت اتأمل زهرة . قلت : تتأملها يومين يا حبيبي ؟ قال وكأنه يحدث نفسه : كنت أريد أن أعرف كيف تتفتح الزهور .. نحن نراها براعم مغلقة .. ونعود اليها فنراها زهوراً متفتحة كيف تتفتح ؟.. هل تأتي الآلهة فتفتح أو اقها ورقة ورقة . أم أن قوة في داخلها هي التي تفتح أوراقها وتلونها وتدس في عروقها عطراً .. ضحكت ليلتها كثيراً من ابني وقبلته الف مرة .. ثم صحبته معي إلى المنزل وهناك ..

العميد : إختصري يا أجربينا .. أدخلي في الموضوع .

أجربينا : هذا هو كل شيء عن الموضوع يا سيدي . لقد كان ابني . ابن أجربينا وتربيتها . فكان وليس مثله أحد ذكاءً وجمالاً .. وقوة .. ولماذا أسميته نيرون ؟.. لأنه كان أقوى وأشجع أقرانه .

العميد : طيب . أذكري لنا كيف أصبح إمبراطوراً .. هل ورث العرش عن أبيه ؟..

أجربينا : لا .. يا سيدي .. ونعم .

العميد : لا ؟ ونعم ؟

أجربينا : هو ذاك . لا ، لأن أباه إكنيوس دوميتيوس لم يكن إمبراطوراً . ونعم لأنه تولى العرش ميراثاً عن ابيه الأمبراطور تيبيريوس كلوديوس .

العميد : (بفضول ساخر) .. وكيف كان ذلك يا اجربينا ؟.. يبدو الامر غريباً .. يعض الشيء .

اجربينا : (مبتسمة مفاخرة) . هو غريب يا سيدي القاضي .. ولكنه ابني . ابن اجربينا الثانية . ألم تسمع عن اجربينا الثانية .. لا بد أن تكون قد سمعت فلا أحد في مصر لا يعرف جدي انطونيو الذي .

العميد : نعم . نعم . نعرفه جيداً .. لنعد إلى الموضوع كيف ورث نيرون العرش ولم يكن ابوه امبراطوراً .. وكان ابوه امبراطوراً فورثه . كما قلت ؟..

اجربينا : بسيطة . استبدلت لابني أباً بأب .. فرفعته إلى عرشه الذي لم يكن له ..

العميد : اذكري لنا الوقائع يا اجربينا .

اجربينا : قلت يا سيدي القاضي أن ابني نيرون كان طفلاً ممتازاً — لم يكن مثله أحد من الاطفال . ولما شب تفوق ، بفضل تربيتي ، على جميع اقرانه في كل شيء . فكنت أسأل نفسي ، كما تفعل كل أم كرست حياتها لطفلها ، ترى ما الذي يصلح له نيرون ؟. فلم أجد إلا العرش مكاناً يستحقه ابني . فنذرت نفسي من اجل أن أضعه فوقه . كنا اثرياء ولكن ليس بالقدر اللازم ليكون إبني امبراطوراً . عائلتنا ، كما لا بد تعرف يا سيدي ، كانت مسرفة . كنا نحب أن نمتع انفسنا . وكان لا بد من أن يكون ابني ملكاً للمال حتى يقبله مجلس الشيوخ امبراطوراً لروما . فماذا أفعل ؟ ماذا تفعلين يا اجربينا ماذا تفعلين ؟.. تزوجت من كيوس كرسيس . كانت ثروته منتفخة بقدر ما كان جسمه ضامراً . ولم يكن ثمة أثقل من ذهبه الادمه . ضحيت من أجل ابني وتزوجته . واستطعت أن أرثه اصبحنا أثرياء فماذا أفعل ؟.. ماذا تفعلين يا

اجربينا ؟.. ماذا تفعلين !؟

ذهبت يوماً أزور خالي الأمبراطور كلوديوس خالي المسكين كلوديوس .كان ما يزال متأثراً بما فعلته زوجته فليريا مسلينا الفاجرة ذات الصدر الضامر والارداف المتهدلة . تصوريا سيدي القاضي تلك المرأة التي لم تكن لولا مساعدتي ، تعرف كيف تضع على وجهها القبيح لا المعجون ولا الأبيض ولا الأحمر ، وكان رجال روما ، يشكون من أن طلاء شفتيها ينتقل الى شفاههم .. تصور يا سيدي القاضي .. تلك المرأة التي كانت زوجاً لخالي الطيب ، لم يكفها احترافها الفسق في المواخير .. ولم يكفها إنها حملت خالي طيب القلب على أن يأمر الراقص منسر بمضاجعتها ولم يكفها الأمر الأمبراطوري الذي يلزم من تختاره بانيكون عشيقاً لها .. لم يكفها كل هذا ، وانتهزت فرصة غياب خالي عن روما .. ذهب يقاتل من أجل الأمبراطورية .. فاختارت الرقيع سيليوس وتزوجته زواجاً رسمياً . نعم يا سيدي القاضي زواجاً تمت فيه كل الطقوس الدينية والقانونية واحتفلت به روما سبعة ايام كاملة .. ولولا نارسيوس الشجاع .. لصعد الرقيع سيليوس من فوقها الى العرش . (ضحك) .

العميد : (يضرب بمطرقته) .. وبعد .

اجربينا : عاد خالي المسكين متأثراً فذهبت اليه أواسيه . صعب علي أن أراه وهو في سن السبعين متألماً لفراق العاهرة . أردت أن انقذه من عذاب ذكراها . أن اعوضه . بقيت معه اياماً اسري عنه . اريحه . كنت آخذ رأسه المتعب فاضعه فوق صدري . هنا (مشيرة الى ما بين نهديها) واحدثه بما يروقه .. حتى نام . استرد عافيته

فتزوجنا . تزوجت الأمبراطور كلوديوس وهكذا انتقل ابني الى القصر . اقتربت به خطوة نحو العرش .. وهو في سن الحادية عشرة لم يكن يعرف اشياء .. كان ما يزال مشغولاً بمجموعة الفراشات التي يحتفظ بها .. وكانت من بينها فراشة ذهبية اللون ..

العميد : (مقاطعاً) .. وبعد ..

اجربينا : دعني التقط أنفاسي يا سيدي القاضي . انني اقترب من بحر المر الذي أرغمني هذا الأبن العاق على ان اغرق فيه .. ماذا كنت اقول .. الفراشة .

العميد : (مقاطعاً بسرعة) كنت تقولين انك تزوجت الأمبراطور كلوديوس واقتربت بالمتهم خطوة نحو العرش .

اجربينا : آه . نعم . ماذا أفعل بعد هذا ؟ ماذا تفعلين يا اجربينا ؟

العميد : (ضجراً) إختصري من فضلك ..

اجربينا : (متجاهلة) ماذا تفعلين ؟ آه .. كان كلوديوس مخموراً عندما سقطت من فمه القذر كلمة « كم هي رشيقة لوليا بولينا » تصور يا سيدي .. لوليا بولينا الشمطاء كانت في عين ذلك الغبي رشيقة . صدقت جدتي . عندما كانت تريد ان تشتم احداً كانت تقول : «انه اكثر بلاهة من ابني كلوديوس» . وفيم كانت لوليا بولينا رشيقة ؟ الآن المعتوه كاليجولا أخذها من زوجها ، كما قالوا ، لأني لم أكن قد ولدت ، يقال عنها رشيقة ؟.. وهل ترك كاليجولا جيفة لم يلغ فيها . انهم الرجال على أي حال لا شأن لي بهذا . أنا اعرف لماذا رآها ذاك الغبي رشيقة . كانت يومها تلبس ثوباً قبيحاً مغطى من رأسها الى قدمها بالمجوهرات النادرة . وتعلق في رقبتها قائمة بثمن ثوبها .. حيلة .. تغري الرجال بتقبيلها ليقرأوا الثمن .. يقال . يقال . لأني لم أكن أطيق الإقتراب منها . ولكني

سألت . قالوا انه أربعون مليون سسترس .

العميد : (ملتفتاً الى الدكتور علام) .

د . علام : (نصف واقف) نحو مليون جنيه يا سيدي (همهمة وصيحات إعجاب وإستغراب من النساء خاصة) .

العميد : وبعد .. باختصار من فضلك ..

اجربينا : (متجاهلة) . وماذا في هذا . لقد كانت تزوجت نصف أعيان روما وورثتهم ...

العميد : اختصري يا اجربينا .

اجربينا : (تتأمله ثم تتجاهله) .. هذه هي المسألة . كان الأبله يراها رشيقة لأن ثوبها ثقيل . هو ورأيه . انا لا يهمني . المهم انني ادركت الخطر ، ليس الخطر علي يا سيدي القاضي . وهل من المعقول ان أغير من لوليا بولينا وهي مثل جدتي . ادركت الخطر على ابني .. نيرون .. ولم اسكت . بعد ان انتهيت من لوليا بولينا زوجت ابني من اوكتافا . بنت خالي وزوجي الأمبراطور كلوديوس حتى اذا ما خطر لرأسه الغبي ان يتخلص مني لا يستطيع ان يتخلص من زوج ابنته . كنت اعمل لمصلحة ابني يا سيدي القاضي .. صحيح ان اوكتافا كانت طويلة الأنف قصيرة الرقبة غير مستوية الجذع . وتعرج قليلاً .. ولكن حديثها كان ممتعاً .. كان صوتها كالموسيقى ذاتها .. خاصة لثغتها الساحرة .. سمعها مرة الملحن كانوس ..

العميد : (بضيق) اجربينا ... اختصري .

اجربينا : (بحدة وتحد) .. اختصري .. اختصري .. الم تحملني على ان أقسم بان اقول كل الحق لماذا يكره الرجال كل الحقيقة .. اختصرت .. باختصار اقنعت الأمبراطور بان يزوج ابنته اوكتافا ابني نيرون

ثم اقنعت الأمبراطور بان يتبناه . ثم اقنعت الأمبراطور بان يعفو عن الفيلسوف سينكا الذي كان منفياً بأمره فاعاده الى روما ليكون معلماً لابني . وان كان قد أفسده آخر الأمر .. واقنعت الأمبراطور بان يعين بروس قائداً للحرس الأمبراطوري . ثم اقنعت الأمبراطور بأن يتفرغ لي يوماً كاملاً قضيناه معاً بدون خدم كنت اخدمه بنفسي . حتى فطائر التفاح التي يحبها اعددتها له بيدي . ولما مات الأمبراطور اقنعت قائد الحرس الوسيم بان يصحب ابني الى مجلس الشيوخ بدلاً من برتنكس ولي العهد . وهناك أقنع قائد الحرس القوي مجلس الشيوخ بان ينادي بابني امبراطوراً .. هذا هو كل ما كان .. باختصار .. ما دمت من هواة الاختصار . وتحرم كل هؤلاء الناس من متعة معرفة كيف تولد الحوادث التي يعرفونها (باغراء انثوي ساحر) .. كيف يتم الإقناع مثلاً .

العميد : مفهوم . مفهوم .. ماذا فعل نيرون عندما تولى العرش ؟

اجربينا : لم يفعل شيئاً . لم اكن معه فلم يفعل شيئاً . كنت معتكفة حداداً على زوجي الغالي . فجاء الي من مجلس الشيوخ . دخل حجرتي . وقال أمي .. لقد أصدر مجلس الشيوخ قرارين . قرر أولاً ان اكون امبراطوراً . وقرر ثانياً . ان يكون كلوديوس الهاً . اني اعرف انك صاحبة القرار الاول . فهل انت صاحبة القرار الثاني .؟.. ان يصبح كلوديوس الغبي كما كنت تسمينه ، الهاً يعبده الرومان ؟.. قلت له . بعد ان مسحت دموعي بمنديل كانت قد أهدته كليوباتره لجدي انطونيو وورثته عن أمي .. كان من الكتان الرقيق مطرزاً بازهار اللوتس ..

العميد : (منبهاً بحزم) .. اجربينا .

اجربينا : يووه .. قلت له .. يا بني .. لو لم يكن كلوديوس غبياً لما كنت انت

امبراطوراً .. ثم انه ما دام كلوديوس قد أصبح إلهاً فانه لم يمت .. لا أحد يستطيع ان يقول انه مات او كيف مات .. انه انتقل من روما الى جبال الاولمب (بحدة) فهل تعرف يا سيدي ماذا قال الأبله .. سألني : أمي .. ماذا تأكل الآلهة في جبال الاولمب ؟.. سؤال سخيف .. خاصة وانا في فترة الحداد . قلت : لا اعرف قال : انا اعرف يا أمي . قلت : وماذا يأكلون يا نيرون ؟.. قال الأحمق: يأكلون فطائر التفاح .. ثم انصرف يترنم بلحنه القبيح .. ولم أكن ..

العميد : (مقاطعاً) .. هذا يكفي .. دكتور علام ..

د . علام : (ناهضاً) ايتها السيدة اجربينا . اننا نحاكم المتهم عن جرائم محددة . منها انه قتلك ومنها انه قتل الاستاذ سينكا . ومنها انه بدد املاك الأمبراطورية . ومنها انه حرق روما ونريد ان تكون شهادتك منصبة على هذه الاحداث فقط .. ان الوقت يضيق وما تزال الاجراءات في اولها ..

اجربينا : خسارة (بدون مبالاة) .. اسأل وانا اجيب ..

د . علام : هل قتلك نيرون ؟

اجربينا : نعم . أمر عبيده بان يقتلوني . طاردوني حاصروني . استلوا سيوفهم .. تذكرت كل ما فعلته من أجله فقلت لهم ادفعوا بسيوفكم في رحمي فهو المسؤول ..

د . علام : لماذا قتلك ؟..

اجربينا : لم يكن هناك سبب . وهل هناك سبب يبرر للأبن قتل أمه . أو (مترددة) ربما هي البنت آكتي ..

العميد : من هي آكتي .. ولماذا تعتقدين انها كانت سبب قتلك ؟

اجربينا : كله من الرجل المخرف سينكا . هذا المنافق ناكر الجميل احضرته

ليعلم ابني . وعينته عضواً في مجلس الشيوخ . فسيطر على الولد بكلامه الفارغ الذي يسميه حكمة . واصبح هو الأمبراطور الحقيقي . لم يكن ابني ينطق كلمة الا بعد ان يهمس في اذنه . ولم يكن يقرأ ورقة الا بعد ان يكون قد كتبها له . فأردت ان انقذ ابني . وهل كنت قد تعبت وربيته واقمته امبراطوراً ليكون لعبة في يد مخرف مثل سينكا ؟.. نصحت ابني .. مرات عديدة نصحته.. ان يتحرر من تأثير ذلك الرجل . وان يستمع الى امه .. فلجأ الرجل الماكر اللعين الى حيلته المفضلة واختار اجمل جواريه . البنت آكتي . وقدمها لأبني . فحاولت ان اقنع ابني ، لأنقذه ، بان أمه خير له من آكتي .. لم يقتنع .. عرضت الأمر على اصدقائي من الحرس الأمبراطوري ولكن لا فائدة .. استطاع سينكا أن يدس في رأس ابني أنني كنت اتآمر عليه . وهل هناك ام تتآمر على ابنها .. لكنه أفلح .. فأمر ابني ، بقتلي وقتلوني .. ظلماً ..

د . علام : وهل قتل ابنك الأستاذ سينكا ؟..

اجربينا : كنت قد مت ولكن أشهد بأنه قتله .. فنحن هناك نعرف كل شيء نعم أمره بان يقتل نفسه .. يستأهل .

د . علام : هل تعرفين لماذا قتله ؟

اجربينا : لأنه خائن . غبت انا . وخلا له الجو . فلما اراد ابني — اخيراً — ممارسة حقوقه .. تآمر سينكا ضده .. فلقي جزاءه العادل .

د . علام : هل بدد ابنك ممتلكات الأمبراطورية ؟.. هل تنازل عن بلاد اليونان ؟

اجربينا : سمعت . انا اعرفه . انه خائب . كان وجودي بجواره يعوض خيبته . ولكن بعدي .. طبعاً بددها .

د . علام : هل تعرفين لماذا تنازل عن بلاد اليونان ؟.

اجربينا : اسأله هو .. وهل يعرف احد لماذا يتصرف المجانين ..

د . علام : هل كانت بلاد اليونان لازمة لرخاء الأمبراطورية ؟

اجربينا : طبعاً . اسألني انا . ومن الذي كان يعلم اولادنا ، ويبني قصورنا ، ويقيم تماثيلنا ، ويفصل ملابسنا ويصنع حلينا .. من الذي كان يدربنا على الرقص والغناء .. من الذي كان يؤلف لنا المسرحيات ويخرجها لنا .. انهم عبيدنا من اليونان ..

د . علام : هل حرق ابنك روما ؟..

اجربينا : ولماذا تسأل ؟ الا تعرف ؟ الم اقل لك انه كان يكره روما . كان كلما مر في شوارعها يقيء . كم مرة قال لي : آه يا أمي ، لو كان الأمر بيدي .. لهدمت روما واعدت بناءها على نمط الاسكندرية .

العميد : ولماذا الاسكندرية .. هل كان قد ذهب اليها ؟

اجربينا : ومن اين لي ان اعرف ؟.. لم ير في حياته الاسكندرية . ولكنه ذلك العبد فاؤون المصري .. الذي جاء الى روما اسيراً .. واخترته عبداً خاصاً لأبني .. لا بد ان يكون هو الذي حدثه عن الاسكندرية.

د . علام : (للعميد) .. اني اكتفي بهذا يا سيدي القاضي .

العميد : (لنيرون) .. هل تريد ان تسأل الشاهدة يا نيرون ؟..

اجربينا : (محتجة) .. لا .. لا يسألني .. اني لا أكلمه .. نحن متخاصمان ..

نيرون : سؤالاً واحداً يا سيدي ..

العميد : سؤال واحد يا اجربينا .. اجيبي عليه من فضلك.. اسأل يا نيرون..

نيرون : (متقدماً نحو أمه) .. أمي .. بعد أن تزوجت عمي كلوديوس .. الأمبراطور .. كنت تركبين بجواره في مركبته وأنتما في الطريق الى مجلس الشيوخ .. وكان الشعب يقابلكما بالهتاف فهل تتذكرين الهتاف الذي كان يردده الشعب ؟..

اجربينا : نعم أذكر . وهل يمكن حتى للارواح أن تنسى الأيام الحلوة .. كان الشعب يملأ شوارع روما ويقضي ساعات منتظراً المركبة

الأمبراطورية . وكان كلوديوس يستعجلني . وهل كان يجوز أن اظهر امام الشعب قبل أن أكمل زينتي اللائقة بزوجة امبراطور .. وحين نخرج .. ويراني الشعب .. ويرانا أنا وبجواري الأمبراطور ، كان يهتف بصوت كالرعد (ترفع يدها وتهتف باللاتينية) :

« Ave caesar morituri Salutamus te »

العميد : (ملتفتاً الى د . علام) .. ماذا يعني هذا ؟

د . علام : يعني : مرحباً بقيصر ، نحن الذين نوشك ان نموت .. نحييك (ضحك) .

العميد : طيب أية اسئلة أخرى ؟

نيرون : (مبتسماً) لا يا سيدي .

العميد : (لاجربينا مشيراً الى مقعد شاغر) تفضلي .. (للمذيع) ناد الشاهد الثاني .

المذيع : (منادياً) .. انيوس سينكا (يظهر ويتقدم نحو العميد ينحني تحية له بينما يصوره المصورون) .

العميد : انيوس سينكا .

سينكا : نعم . هو أنا .

العميد : سنك ومهنتك ومحل اقامتك .

سينكا : عشت تسعة وستين عاماً اعلم الناس في روما .

العميد : اقسم بان تقول الحق ، كل الحق ، ولا شيء غير الحق .

سينكا : بماذا اقسم ؟

العميد : بما تقدسه .

سينكا : اقسم بان اقول الحق كل الحق ولا شيء غير الحق ..

العميد : دكتور علام .. شاهدك .

د . علام : ايها الأستاذ انيوس سينكا .. هل تعرف المتهم ؟

سينكا : اعرفه . كان تلميذي . وكنت اقرب الناس اليه عشر سنوات .

د. علام : اني ، باسم التاريخ ، اتهم لوسيوس نيرون بانه قتل امه اجربينا الثانية ، وقتل استاذه انت ، وبدد املاك الأمبراطورية وحرق روما ونريد أن تذكر للمحكمة ما تعرفه عن هذه الأحداث .

العميد : (متدخلاً ملاطفاً) .. أرجو أن يقدر الاستاذ سينكا ، ان الوقت ضيق ، فيقصر حديثه على ما يفيد في إظهار الحقيقة . إنك فيلسوف فلن تجد صعوبة في ان تذكر لنا ما قل ودل .

سينكا : (مبتسماً) .. ما قل ودل ؟.. اذن ، لقد كان نيرون جاهلاً .. من هذا الاصل تفرعت كل خطاياه .

د. علام : كيف كان جاهلاً وانت استاذه ؟

سينكا : تلك هي المأساة . مأساتي ومأساته ومأساة روما . كنت أعلم الحكمة في روما فنفاني الغبي كلوديوس الى جزيرة كورسيكا . ثم استدعاني لأكون معلماً لربيبه الذي تبناه ، نيرون ، وادركت ان نيرون سيكون خليفة الأمبراطور الأبله . فحسبت ان قد جاءت فرصتي لاقدم الى بلاط روما امبراطوراً حكيماً .. ولكن الثعبانة كانت هناك .

العميد : أية ثعبانة .

سينكا : أمه . اجربينا الثانية . دست السم لزوجها الثاني كيوس كرسيس لترثه . ودست السم للسيدة مسلينا زوجة الأمبراطور كلوديوس لتحل محلها . ودست السم للسيدة لوليا بولينا منافستها لديها . ودست السم لماركس سيلانس خوفاً من ان يعينه كلوديوس وارثاً من بعده . وسيطرت بجمال جسدها على الأمبراطور والأمبراطورية . صكت النقود باسمها تحمل صورتها . استقبلت السفراء وعقدت معهم صفقات لحسابها باسم الأمبراطور . باعت

المناصب والتوصيات وعقود الأعمال العامة . نهبت ونفت وقتلت لتصادر الأموال وتنفقها على ملذاتها مع عشاقها الذين لم يكونوا أقل عدداً من النجوم ذاتها . يكفي بياناً لطغيانها انها اصدرت او استصدرت أحكاماً بالاعدام على خمسة وثلاثين من أعضاء مجلس الشيوخ وثلاثمائة من الفرسان ، قبل أن تدس السم في الفطائر وتقتل زوجها نفسه .

د. علام : (بضيق) يا أستاذ سينكا . نحن لم نسألك رأيك في شاهدة الاثبات اجربينا جرمنكوس .. كنت سألتك كيف كان المتهم جاهلاً وانت أستاذه . فأرجو أن تكون اجابتك في حدود الاسئلة .

سينكا : إني ارد الأمور الى أصولها . وقد كانت اجربينا اصل الجهل الذي دمر روما على يد نيرون .

د. علام : حسن . أشرح لنا ، اذن ، كيف أدى جهل نيرون الى تدمير روما ؟

سينكا : عندما استدعتني الثعبانة لأعلم ولدها نيرون ، قالت لي علمه ما شئت الا شيئاً واحداً . قلت : وما هو أيتها السيدة اجربينا؟ قالت: الفلسفة . لا تعلمه الفلسفة . انك عائد من منفاك الى مقعدك في مجلس الشيوخ. لقد اخليت خمسة وثلاثين مقعداً فيه لتشغل واحداً منها . فلا تحملني على أن ابقي كل المقاعد خالية . قلت لها : وما الذي اعلمه لنيرون إذا لم اعلمه الفلسفة . قالت : هذا شأنك . اني لا اعرف ماذا تعرف . ولكني اعرف ان المرأة اولمبيساس قد استأجرت ارسطو لتعليم ولدها الاسكندر . ولست انا أقل منها ولا ولدي أقل من ولدها (ضاحكاً) هكذا كانت تفكر اجربينا .

د. علام : (بحزم) .. دع اجربينا وشأنها .. هل علمته انت شيئاً ام بقي جاهلاً ؟..

سينكا : علمته حب التواضع ، ودماثة الخلق ، والبساطة والتقشف ، والصبر على الشدائد ، وكتبت له رسائلي في الغضب وفي قصر الحياة وفي هدوء الروح وفي الرحمة وفي الحياة السعيدة وفي المسرح ، وفي الفوائد ، وفي حسن التدبير .. وبقي جاهلاً (ضحك) .

العميد : (مبتسماً) .. وهل بقي جاهلاً لانه لم يع كل هذا ، ام وعاه وبقي جاهلاً ..

سينكا : وعاه يا سيدي القاضي . لقد كان ذكياً . وكان طالباً مجداً . ولولا ان شغل نفسه بالفن لكان أكثر وعياً لقد كان تواقا الى الاستحواذ على كل ضروب الكمال والتهذيب . فاجهد نفسه وبدد طاقته في دراسة فنون النقش والتصوير والنحت والشعر والموسيقى وتأليف المسرحيات وتمثيلها .. حتى الغناء . كان يريد ان يكون صوته جميلاً . ولم يكن صوته كما يريد . فكان يستلقي على ظهره ويضع على صدره لوحاً ثقيلاً من الرصاص ، ويفرغ معدته ثم يدرب رئيته على التحكم في أوتار حنجرته .

د. علام : (بدأ يفقد هدوءه) .. ولكنك قلت انه كان جاهلاً ، وان جهله قد أدى الى تدمير روما .

سينكا : نعم يا سيدي . كان جاهلاً . لأنه ادرك الفروع ولم يدرك الأصول. لم يتعلم الفلسفة .

العميد : ماذا تعني بالفلسفة التي لم يتعلمها ؟

سينكا : الفلسفة يا سيدي هي إدراك الجزء في الكل .

العميد : هل يمكن ان تكون اكثر وضوحاً ؟

سينكا : سيدي .. الفلسفة هي علم الحكمة . والحكمة هي فن الحياة . والسعادة هي غاية الحكمة والفضيلة هي الطريق الى السعادة .. فكيف نشق طريق الفضيلة الى الحياة السعيدة ؟ بان نتعلم الفلسفة أولاً .

العميد : نريد إجابة أوضح من هذه يا استاذ سينكا.. ما علاقة الجزء والكل. بكل هذا (ضحك) .

سينكا : علاقتهما واضحة يا سيدي القاضي . الطريق الى السعادة يبدأ من حيث تكون متجهاً الى حيث نريد . وكل ما نريده يقع في المستقبل. الماضي لا يعود . قبل ان نتقدم على الطريق نسأل الحكمة التي هي فن الحياة ، تقتضي ان نسأل : هل الطريق متصل أو مقطوع ؟.. هل هو ممهد او وعر ؟ هل هو ضيق او واسع ؟ هل هو مستقيم او متعرج ؟ كل هذه وغيرها لا بد لنا من ان نعرفها حيث نكون وقبل ان نبدأ . فكيف يمكننا ان نعرفها ؟.. بأن نعرف هضبة الحياة وتضاريسها لنعرف ما يؤثر في طريق مسيرتنا عليها فيصله او يقطعه ، يمهده او يعرقله ، يزاحمه او يضيق او يفسح له فيتسع يوازيه فيستقيم او يعوقه فيتعرج .. من السائرون عليه ، اصحاب ام لصوص ، ماذا نملك من دابة أو مركبة نقطعه عليها ، ام إننا سنقطعه مشياً على الاقدام .. كل هذه يا سيدي القاضي ، من نحن ، من معنا ، من ضدنا ، ما غايتنا ، ما هو طريقنا .. كل هذه جزئيات لا نستطيع ان نعرفها قبل البداية إلا اذا عرفنا الكل الذي تنتمي اليه . بدون معرفة هضبة الحياة وسكانها ، قد نرى طريقاً متصلاً فنندفع عليه فإذ هو مقطوع . قد نراه مستقيماً فما ان نقطع بعضه حتى يلتوي بنا .. وقد نجد انفسنا مرة أخرى عند أوله ، مع اننا كنا نظن اننا نتقدم عليه الى غايتنا . إدراك الجزء في الكل يا سيدي هو ، إذن ، المعرفة الأولى . هو الفلسفة وقد كان نيرون يجهل الفلسفة لأن الثعبانة حرمت عليّ تعليمه الفلسفة .

د. علام : كيف أدى هذا الجهل الى تدمير روما ؟..

سينكا : لا أحد ، يا سيدي ، يعرف الجواب أكثر مني . فقد علمت نيرون خمس سنوات قبل أن يتولى العرش . وكنت قريباً منه

خمس سنوات اخريات وهو امبراطور . وإذا تجاوزنا عن سخافات الفن التي كان يبدد فيها طاقته فلا بد لي من أن اعترف بانه كان يريد ان يكون أفضل أباطرة الرومان . كانت نواياه طيبة ولكن جهله خذله . فقد كان ذكاؤه يساعده على أن ينتبه الى الجزئيات ويدركها . كان يدرك جيداً كل لون في الصورة على حدة . لم يفت عينه الحساسة لون واحد ولو كان باهتاً ، وكان يتأثر بما يرى فتختلف مواقفه وقد تتناقض تبعاً لاختلاف الالوان وتناقضها . ولكنه لم يستطع أبداً أن يرى الصورة كلها .. الصورة ككل .. لقد ..

د. علام : (مقاطعاً) .. أية صورة ؟.. يا استاذ سينكا . نريد أن نعرف كيف أدى جهل المتهم الى تدمير روما ؟..

سينكا : (مبتسماً ببرود) .. صورة الحياة يا سيدي .. صورة الحياة في روما وفي الأمبراطورية .

العميد : أضرب لنا مثلاً واقعياً يا استاذ سينكا حتى نستطيع متابعة ما تقول.

د. علام : (بحدة) .. وقل لنا ، ارجوك ، كيف أدى جهل نيرون الى تدمير روما ؟

سينكا : (للدكتور علام) : .. حلمك يا استاذ علام .. الحلم فضيلة .. ثم لا تنسى انني كنت محامياً بضع سنين واعرف ماذا تريد ان تقول . (للعميد مبتسماً) .. كان نيرون يا سيدي .. مثلاً .. يكره مجلس الشيوخ ولكنه لم يدرك ان مجلس الشيوخ جزء اساسي من بناء الأمبراطورية . كان يريد — مثلاً آخر — ان يحرر العبيد ولكنه لم يدرك ان العبيد جزء من عملية انتاج الكروم .. كان يريد — مثلاً آخر — ان يعيد تخطيط الشوارع في روما ولكنه لم يدرك ان تخطيط شوارعها جزء من عملية هدمها .

د. علام : (مقاطعاً بلهفة) .. وهل هدمها ؟..

سينكا : (متجاهلاً ومستمراً) .. وهكذا يا سيدي القاضي .. كانت حياته كلها إدراكاً للجزئيات وتأثراً بالجزئيات ، وافعالاً جزئية، ردود أفعال جزئية فلم يفلح في أن يكون امبراطوراً على الكل وللكل لانه لم يستطع في أي يوم ان يدرك الأمبراطورية بعيداً عن ادراكه الافراد الذين يعيشون فيها وأدى هذا كله الى تدمير روما ..

د. علام : دمرها .. ام حرقها ؟

سينكا : ماذا تقول يا سيدي ؟ روما التي اتحدث عنها رمز الأمبراطورية ، وليست روما المدينة.. لقد دمر روما اعني اضعف الأمبراطورية.. هذا ما كنت أعنيه .

العميد : (مبتسماً للدكتور علام) .. فلنتبع ترتيب قائمة الاتهام ونحدد الاسئلة وإلا فلن ننتهي .

د. علام : (بحزم) . استاذ سينكا .. أجب باختصار على كل سؤال تسمعه ، هل قتل نيرون والدته أجربينا جرمنكوس ؟

سينكا : نعم أمر بقتلها فقتلت .

د. علام : هل قامت لديه أسباب تبرر قتلها ؟ ..

العميد : (متدخلاً) دفاعاً عن الشرف مثلاً ..

سينكا : (ضاحكاً) الشرف ؟ .. لقد كانت اجربينا من أشرف سيدات روما ، سيدي انها النظرة الجزئية .

د. علام : (مقاطعاً بحدة) .. دعنا من النظرة الجزئية والنظرة الكلية . لقد ذكرت من قبل أن عشاقها كانوا مثل عدد النجوم وأنها قتلت ما لا أدري من ومن .. والآن تقول انها كانت أشرف سيدات روما .. لقد قال عنك المؤرخون حقاً عندما قالوا ان أحداً لا يستطيع أن يثبت من كتاباتك أنك كنت موحداً أو مشركاً أو كافراً أو مادياً أو أفلاطونياً – ولكنك على أي

حال .. أمامنا .. في هذه القاعة .. أقسمت بما تقدسه بأن تقول الحق .. وأياً ما كان ما تقدسه حتى لو لم تكن تقدس إلا شخصك فإنا نتوقع من فيلسوف مثلك أن يكون صادقاً وأكثر دقة في حديثه .

سينكا : لا تغضب . ان الغضب رذيلة . ثم أين التناقض بين ما قلت وما أقول . إن كنت تعني بالشرف العفة فإنها لم تكن معروفة في روما . كانت روما ابيقورية . اللذة فيها هي الفضيلة ذاتها . والمنافسة في مضمار اللذة سباق إلى الفضيلة . أما إشباع اللذة فكان انتصاراً لها . كان رجال روما ونساؤها جميعاً ، يتنافسون من أجل الفضيلة كما عرفوها وعاشوها . فإذا كنت قد قلت ان أجربينا من أشرف سيدات روما فلأن سيدات روما كن يبالغن في الفضيلة . ولم يكن رجالها أقل مبالغة . عندما ضرب كاليجولا مثلاً فذاً في الفضيلة ، فاصطحب العروس معه وهو يغادر عرسها الذي دعي اليه ، وتزوج امرأة حاملاً قبل أن تطلق ، وشارك أخواته المتزوجات وغير المتزوجات فراش اللذة ، وأعجبه غلام فتزوجه زواجاً رسمياً .. أقاموا له في روما معبداً وألهوه . إنها روما يا سيدي .. وأنا أتحدث عن روما ، وشرف روما .. وفضيلة روما كما كنت فيها وكما وجدها نيرون عندما تولى عرشها .. فهل تغضب إذا قلت ان أجربينا كانت من أشرف سيدات روما .. ربما لأنها ثعبانة .. فقد كانت ترى أن اللذة ليست إلا .. وسيلة إلى ما هو أكثر لذة .. السلطة .. الحكم ..

د. علام : وهل كنت منهم .. أعني من سكان روما ؟

سينكا : بالمعنى الذي يدور في ذهنك . لا . كنت رواقياً ولم أكن أبيقورياً كنت أؤمن وأبشر بأن العقل وليس اللذة هو الطريق إلى السعادة . كنت أؤمن وأبشر بأن اللذة حلم جميل ولكنها ككل حلم

ليست حقيقة .. إنما الحقيقة هي الفكر .. والفضيلة هي إخضاع الحواس للعقل . والسعادة هي الإنتصار للفضيلة . كنت أقول لهم إننا ننال بالعدالة والحلم والرأفة قدراً من السعادة أكثر مما نناله بالجري وراء اللذه . كنت أقول لهم لا تخافوا مرض الجسم واحذروا مرض العقل ، كونوا أصحاء العقل . والصحة العقلية هي أن يكون الإنسان واثقاً مدركاً أن الأشياء التي يسعى اليها الناس جميعاً ، وكل الملذات التي يعملون لها أو ينالونها لا أثر لها في الحياة السعيدة .. قلت لهم إنكم تصلون إلى قمة السعادة في اليوم الذي تدركون فيه أن الناجحين هم أكثر الناس شقاء ..

صوت من وسط القاعة : كلام .. (ضحك . ومطرقة القاضي تدق) .

سينكا : (يلتفت نحو مصدر الصوت) ليس كلاماً يا ولدي .. (يعود فيلتفت إلى القاضي) .. لقد جسدت أفكاري مسلكاً وحياة . لم أتزوج إلا امرأة واحدة . ودعوت بقوة إلى الغاء معارك المجتلدات حيث يتصارع العبيد حتى الموت . كنت أنام على خشبة صلبة خشنة ، ولا أشرب إلا الماء القراح ، ولا آكل إلا التفاح البري حتى أصابني الربو . كنت أندد بالجري وراء الشهوات . كنت ، في جملة واحدة ، أمجد الفكر وأحتقر الحياة وأؤثر الموت .. وهكذا عشت كما عاش أستاذي سقراط . كان أستاذي وقدوتي حتى في اللحظات الأخيرة .. قطعوا شرايين يدي ولكني أبيت إلا أن أشرب السم كما شربه أستاذي .. كان ذلك أسعد أيام حياتي .. يوم أن أمر نيرون بأن أقتل نفسي .. وكان ..

د. علام : (مقاطعاً وقافزاً) .. أتقول أن نيرون قد أمرك بأن تقتل نفسك ؟ ..

سينكا : (مستغرباً) .. نعم .. وماذا يهم الرواقي ..

د. علام : إنتظر .. انتظر .. (متأكداً) .. أمرك نيرون بأن تقتل نفسك . قلت هذا .. أليس كذلك ؟

سينكا : نعم قلته .

د. علام : وقلت من قبل أن نيرون أمر بقتل والدته أجربينا ..

سينكا : الثعبانة ؟ .. نعم . قلت ..

د. علام : هذا يكفي .. (للمحكمة بانفعال) .. سيدي القاضي .. لقد شهد بصحة تهمتين .. وبقي أن نسأله عن ..

العميد : مهلاً يا دكتور علام (لسينكا) لماذا أمرك نيرون بأن تقتل نفسك يا أستاذ سينكا ؟

سينكا : اختلفنا . كان يريد أن يدمر روما ولكني .

العميد : خطوة خطوة . يدمر روما حقيقة أم مجازاً .. أعني يدمر روما المدينة أم يضعف الامبراطورية ؟

سينكا : يضعف الامبراطورية .

العميد : كيف ؟ ..

سينكا : بغى وتمرد على مجلس الشيوخ الذي هو في منزلة القلب من جسم الأمبراطورية . وأقسم بانه سيقتل أعضاءه جميعاً . فأعاد إلى الحياة قانون الخيانة واتخذه وسيلة لقتل الناس فقتل منهم مئات بل ألوفاً وكان يغري العبيد ليشهدوا على سادتهم . وابتكر جريمة جديدة هي « عدم الحماس للأمبراطور » .. وأعدم بها ثراسيابيتس زعيم المعارضين في مجلس الشيوخ لأنه لم يستمتع بغنائه وألف كتاباً أثنى فيه على كاتوه ونفى بها هلفيديوس برسكس زوج ابنة تراسبا بيتس لأنه علم بجريمة والد زوجته ولم يبلغ عنها . فلما قال رجلان في حديث عابر : خسارة برسكس أعدمهما . ونفى روفس الفيلسوف الرواقي الكبير وكاسيوس أحد علماء

القانون . ولما لم يعجبه سينكا الذي هو أنا .. أعدم أخي أنيوس ميلا وأخي أنيوس نوفاتس .. أما الشاعر الرقيق لو كان فقد أعدم لأنه انتقد بيتاً من قصيدة امبراطورية .. أما الذين لم يرحمهم الموت فقد أودعهم سجونه الرهيبة .. (منفعلاً) والسجون .. السجون .. يا سيدي القاضي .. أكثر قسوة من الموت بكثير . فهناك .. يا سيدي القاضي .. العذراء الخشبية والآت التعذيب التي تفنن نيرون في ابتكارها . جب يلقى فيه المتهم فإذ في قاعه غابة من المسامير الصغيرة ، تمزق ولا تميت . نيران توقد في الحفر حول الجسام.. تكوي ولا تحرق . خطا طيف تشد الجلد ولا تقطع اللحم .. وأغلال كثيرة الأنواع يا سيدي .. رهيب ، شيء رهيب لا يفكر فيه إلا مجنون ولا يستخدمه إلا طاغية .. (يتوقف وهو يلهث) ..

د. علام : استمر .. استمر يا أستاذ سينكا .

العميد : هل تعبت ؟ هل تريد أن تستريح ؟ .. يمكنك أن تجلس احضروا له مقعداً (يحضر له أحد رجال الشرطة مقعداً فيجلس) .

د. علام : الآن وقد استرحت .. استمر .. كنت تقول أن نيرون طاغية . وبعد .

العميد : (مقاطعاً) .. أستاذ سينكا كنت تقول أن نيرون كان مجنوناً .. فهل كان مجنوناً ؟ .. أرجو أن تفكر جيداً قبل أن تجيب . ولكي تعرف أهمية الجواب أقول لك أن القانون لا يعاقب المجانين .. فلو كان نيرون مجنوناً ..

سينكا : (بحماس) .. لا . لا . يا سيدي .. لم يكن مجنوناً بهذا المعنى .. وهل يستطيع مجنون أن يبتكر أدوات التعذيب العبقرية . لقد كان يدرك ما يفعل ويريده .. إني أستعمل كثيراً التعبيرات المجازية .. من أثر المهنة ..

د. علام : (بالحاح) . إذن استمر ..

سينكا : (ببرود) .. لماذا هذا الإلحاح يا سيدي . استمر في ماذا ؟ لقد قلت كل ما أعرفه .

د. علام : فليكن . هذا يكفي على أي حال . ننتقل إلى التهمة الثالثة . هل فرط نيرون في أملاك الأمبراطورية ؟

سينكا : (بصوت متقطع لاهث) .. نعم .. نعم (يكح ويبدو عليه التعب الشديد) .. لم .. لم ..

د. علام : (بحرص وخوف) .. أجب يا أستاذ سينكا . تماسك .. ماء ؟ .. (لرجال الشرطة) أحضروا له كوباً من الماء .. اهدأ يا استاذ سينكا .. كدنا نصل ..

العميد : (لرجل الشرطة) . لا تحضر شيئاً .. انهم لا يشربون .. (للدكتور علام) .. اصبر عليه يا دكتور علام .. اعطه فرصة يهدأ فيها ... هل أنت أفضل الآن يا أستاذ سينكا ؟ ..

سينكا : (بعد أن هدأ) .. نعم .. نعم .. أفضل بكثير .

العميد : هل تستطيع أن تجيب على سؤال المدعي .. أم تريد أن نرفع الجلسة لتستريح ؟ ..

سينكا : لا .. لا .. أجيب .. أجيب ..

د. علام : حسن . كنت أسألك : هل فرط نيرون في أملاك الأمبراطورية ؟

سينكا : (ما يزال متعباً) .. نعم . فرط في أملاك الأمبراطورية .. تنازل (يكح) .. عن بلاد (يكح) ... اليونان .

د. علام : بقي سؤال واحد يا أستاذ سينكا .. سؤال واحد .. سيشكرك التاريخ ويخلدك لو استطعت أن تجيب عليه .

سينكا : (بقدر من الإنتباه) .. وما .. هو .. ؟

د. علام : هل حرق نيرون روما ؟

سينكا : (يتأمل الدكتور علام برهة) .. أخشى .. (يكح) .. لقد عاودتني نوبة الربو (يكح) .. اللعين (نوبة سعال حاد) .. اني أخشى .. أخا ف .. أخاف ..

العميد : مم تخاف يا أستاذ سينكا ؟ .. تخاف تموت .. (ضحك) ..

سينكا : (مبتسماً) .. نعم يا سيدي حتى لا أعود اليكم ..

العميد : (ضاحكاً) .. إذن ترفع الجلسة ربع ساعة .. لتستريح.. فتبقى ميتاً .

ستـــار

الفصل الثالث

المكان : القاعة ذاتها .

الأشخاص : ١ — فاؤون المصري . فلاح ضامر يبدو عليه الفقر الشديد . مقوس الظهر . في نحو الستين من عمره . في ملابس رومانية

٢ — أشخاص الفصل الثاني .

— • —

عندما يرفع الستار يكون الناس في القاعة مختلطين إلا نيرون الذي يحيط به رجال الشرطة . سينكا ممدد على المنصة ويقوم طبيب بعمل تنفس صناعي له . حلقة كبيرة من النساء والصحفيين والطلبة ملتفة حول اجربينا التي تستعرض جمالها في وقفات مختارة للتصوير ، وتوقع على أوراق للذكرى . ضحك ومرح وتهريج وتعليقات ساخرة ومعجبة . يندفع المذيع قادماً من الخارج .

المذيع : أيها السادة .. ليجلس كل واحد في مكانه . الجلسة توشك أن تبدأ .. اجلس يا أخي .. إجلسي يا ست (لسينكا) قم يا عم .. كفى تظاهراً .. ربو ؟ .. أي ربو ؟ .. وصدرك أجوف .. كفاية قم .. إجلسوا من فضلكم .. القاضي في طريقه الينا . (يبدأوا في

العودة إلى أماكنهم ويقفز سينكا نشيطاً من فوق المنصة ويتجه إلى مكانه . أجربينا لا تبالي .. أنت يا ست .. يا ست أجربينا .. يا أجربينا هانم .. كفاية .. (يذهب اليها ويجرها من ذراعها) .. كفاية .. تفضلي اجلسي .. هنا .. (يسود الهدوء ويقف المذيع عند المدخل مترقباً ثم بأعلى صوته) .. محكمة (يقف الحاضرون بينما يدخل العميد يتبعه د. علام كل إلى مكانه . يجلسان ويجلس الباقون بإشارة من يد العميد) .

العميد : فتحت الجلسة .. أستاذ أنيوس سينكا . (يقف سينكا ويتقدم نحو القاضي) .. هل أنت بخير الآن ؟ .. هل تستطيع أن تجيب على الأسئلة ؟ ..

سينكا : نعم .. اني بخير .. هاتوا ما عندكم ..

العميد : (للدكتور علام مبتسماً) هات ما عندك يا دكتور علام .

د. علام : كان آخر سؤال ، يا أستاذ سينكا ، هو ؛ هل حرق نيرون روما ؟ أجب باختصار ، نعم ، أولا .

سينكا : (بعد برهة يتأمل فيها د. علام وبصوت ساخر) .. لا . لم .. يحرق .. نيرون .. روما (همهمة وأصوات دهشة في القاعة يسكتها العميد بدقات مطرقته) .

د. علام : يقول المؤرخ ليفي .. تيتوس ليفيوس .. أن نيرون هو الذي أحرق روما .

سينكا : ليفي كذاب .. (للعميد منفعلاً) .. سيدي القاضي .. هل جئت هنا لتقولوا لي .. قال ليفي ..
ليفي .. ليفي كان يكتب التاريخ كما يتمناه ..

العميد : اهدأ يا سينكا .. انتبه لصحتك .. حتى لا .. تعود (ضحك) طيب قل لنا : هل احترقت روما ؟ ..

سينكا : نعم احترقت ؟ ..

العميد : هل كان إحتراقها أثناء حكم نيرون ؟
سينكا : نعم . كان امبراطوراً في سنة ٦٤ عندما احترقت روما .
العميد : هل كان موجوداً في روما وهي تحترق ؟ ..
سينكا : نعم كان موجوداً ..
العميد : هل تعرف من الذي حرق روما ؟
سينكا : لا . لا أعرف
العميد : كيف عرفت إذن أن نيرون لم يحرقها ؟
سينكا : لأن نيرون لم يكن موجوداً في روما حين احترقت . كان في أنتيوم بعيداً عن روما .
العميد : ولكنك قلت منذ قليل أنه كان موجوداً في روما وهي تحترق .
سينكا : نعم .. كان موجوداً وهي تحترق .. ولم يكن موجوداً حين احترقت فقد استمر الحريق تسعة أيام .
العميد : هل تعني أن الحريق بدأ وهو غائب عن روما ثم حضر والحريق ما زال مشتعلاً ؟
سينكا : هو ذاك . أبلغوه النبأ . حضر إلى روما وبقي فيها إلى أن تم احتراقها .
العميد : لماذا يقال ، إذن ، أن نيرون حرق روما ؟ .. هذا ما تذكره كتب التاريخ ..
سينكا : لأنه كان يريد إحراقها .. والأعمال بالنيات .. ثم انه كان سعيداً بعد أن رآها خراباً وأقام على أطلالها حفلاً غنى فيه نفسه شعراً من وضعه وألحاناً من تأليفه .
العميد : ولماذا كان يريد أن يحرق روما ؟
سينكا : لأنه كان يريد أن يحرق القصور القائمة فوق تل البلاتين .. وهي محصنة ضد الحريق .. أما الأكواخ التي تحيط بها فكانت من الخشب المغطى بالنفايات الجافة .. فلعله تصور .. أنه لو احترقت

تلك الأكواخ سيختنق سكان تل البلاتين .. وهذا ما حدث فعلاً ..
بدأ الحريق من أكواخ روما ..

العميد : ومن هم سكان تل البلاتين ؟

سينكا : أعضاء مجلس الشيوخ ، والقادة ، وكبار التجار ورجال الأعمال .. وقد قلت انه أقسم ليقتلن كل أعضاء مجلس الشيوخ ..

العميد : هل تعتقد أن نيرون مسؤول عن حريق روما ؟

سينكا : نعم مسؤول .

العميد : على أي وجه يكون مسؤولاً عن حريق لم يشعله ؟

سينكا : لأنه فكر في إشعاله . والعبرة بالأفكار . الفكر هو الذي يحدد للناس أعمالهم حتماً . وما دام قد فكر في إحراقها ، فحتى لو لم يكن قد أشعل النار فإنه قد حرقها . أو كان حتماً عليه أن يحرقها .. (يبدأ يكح) .

العميد : (مبتسماً) .. أستاذ سينكا . أرجو ألا تستهين بذكائنا . لقد تركناها تفوت المرة الماضية .. يجب أن تعرف أن اصطناعك مرضك القديم لا يغني عندنا إلا أنك تجد حرجاً في الإجابة . دعك من الكح وقل لنا كيف تعتقد أن نيرون مسؤول عن حريق لم يشعله ؟

سينكا : (بيقظة وتحد) .. اني شاهد .. وأنت المسؤول عن معرفة من المسؤول عن حريق روما فلا تحتمي ورائي .

العميد : طيب . سبق ان قلت إنك صاحبت نيرون خمس سنوات وهو إمبراطور ثم ابتعدت عنه ، أو أبعدك عنه ونسبت إلى نيرون أنه تمرد على مجلس الشيوخ وأعاد قانون الخيانة واتخذه وسيلة لقتل الناس فقتل منهم مئات بل ألوفاً . ووصفت لنا وصفاً بليغاً ما رأيت أنه شاهد على ظلمه وطغيانه . فهل حدث ذلك وأنت قريب منه أم بعد أن أقصاك ؟

سينكا : بعد أن انسحبت من بطانته ..

العميد : لماذا ، إذن ، انسحبت من بطانته كما تقول مع أنه لم يكن قد فعل شيئاً مما نسبته اليه ؟

سينكا : كنت قد بدأت ألاحظ ما طرأ على أفكاره من تغير ، فعرفت أنه سيفعل ما فعل حتماً ، لأن الفكر هو ..

العميد : (مقاطعاً) هو الذي يحدد للناس أعمالهم حتماً .. طيب .. ما الذي غيّر أفكار نيرون ؟

سينكا : فاؤون .. الساحر الفرعوني .. فاؤون المصري ..

العميد : من هو فاؤون ؟

د. علام : (متدخلاً) .. شاهد النفي ..

العميد : آه طيب .. كيف غيّر فاؤون أفكار نيرون ؟

سينكا : لا أعرف كيف .. انه لا يقرأ ولا يكتب .. جاء أسيراً فأصبح عبداً .. عمل فترة في مزارع اجربينا ولم يكن يتكلم كثيراً لأنه لا يعرف اللاتينية . كان يعرف كلمات محدودة . فاختارته اجربينا عبداً خاصاً لولدها نيرون حتى يخدمه ولا يتحدث اليه فلا تنتقل إلى رأسه أفكار العبيد .. فهو إذن لا يقرأ ولا يكتب ولا يتكلم .. ومع ذلك فقد غيّر أفكار نيرون .. كيف ؟ .. لا أدري .. لهذا قلت انه ساحر فرعوني .. أوحى بدون كلام إلى نيرون بأفكاره المستوردة .. ولكني لست واثقاً من هذا .. لأني سمعت نيرون .. في آخر أيام حياتي ، يسب مجلس الشيوخ بالهيروغليفية التي أعرف منها بضع كلمات .. فليس من العسير على ساحر مثل فاؤون .. أن يعلم الأمبراطور لغته بدلاً من أن يتعلم هو لغة الأمبراطور .. اسألوا فاؤون .. (بحماس) .. اسألوه .. واعرفوا لنا منه كيف غيّر أفكار نيرون (يصطنع الحكمة) .. سيدي القاضي .. انني كشاهد لا أسمح

لنفسي بأن أتدخل في الطريقة التي أخترتموها لمعرفة الحقيقة .. ولكني ، أعني أرجو أن تسمحوا لي بأن أقول لكم ، إنكم تضيعون وقتكم معي كما أضعتم وقتكم مع اجربينا الثعبانة .. ان سر الموقف كله في صدر فاؤون فاسألوا فاؤون .. تعرفوا حقيقة ما جرى ..

العميد : طيب . نشكرك . سنسأله . والآن .. هل لدى الدكتور علام أسئلة أخرى ؟

د .علام : لا يا سيدي القاضي .

العميد : (لنيرون) هل تريد ان تسأله عن أي شيء يا نيرون ؟..

نيرون : (متقدماً بمرح ظاهر) .. طبعاً .. طبعاً .. لقد أوحشتني محاوراته .. أهلاً أهلاً استاذي .

العميد : اسأل يا نيرون . أجب يا استاذ سينكا باختصار وفي الموضوع على اسئلة المتهم .

نيرون : (للعميد) إطمئن يا سيدي .. اني اعرفه جيداً واعرف كيف اسأله فلا يفلت .. (لسينكا) استاذ سينكا هل قلت ان أعضاء مجلس الشيوخ كانوا يسكنون قصوراً مشيدة فوق تل البلاتين ؟

سينكا : نعم .

نيرون : سأصف حي البلاتين فاستمع جيداً ثم قل انت ما إذا كان وصفي صحيحاً ام غير صحيح (للقاضي) سيدي العميد .. كان أعضاء مجلس الشيوخ والقادة وكبار التجار ورجال الاعمال ، أولئك الذين يسمونهم سادة روما يقيمون منازلهم فوق تل البلاتين المطل على روما او خارج مدينة روما ذاتها على مساحات واسعة . كانت أرض قصورهم من الرخام . وعمدها من المرمر . وجدرانها مطعمة بالاحجار الغالية . وأسقفها مصفحة بالذهب . وأثاثها من خشب الليمون المطعم بالعاج . وحماماتها من الزجاج . وصنابيرها

من الفضة . وكان خلف كل منزل بهو غير مسقوف يغرسون فيه الزهور والشجيرات ويزينونه بالتماثيل ويحيطونه باروقة ذات عمد من المرمر وينشئون في وسطه مسبحاً يضعون في مائه الدافىء عطوراً خاصة مستوردة من الصين . وكانوا يشيدون حول البهو طائفة جديدة من الحجرات ، واحدة للطعام ، وبيتاً للنساء ، ومتحفاً لمجموعاتهم الفنية ، ومكتبة لكتبهم المزوقة التي لم يكونوا يقرأونها أبداً .. (لسينكا مبتسماً) .. هل كانوا يقرأونها يا استاذ سينكا .

سينكا : (يهز رأسه نفياً) .. لا ..

نيرون : (مستمراً) وفي الشتاء كانت البيوت تدفأ بواسطة افران يحرق فيها الخشب فتمد الحجرات بالهواء الساخن يسير في انابيب من القرميد او في ممرات تخترق ارض المنزل وجدرانه .. (للقاضي) (مبتسماً) احسب هذا يكفي .. ثم (لسينكا) هل كان وصفي صحيحاً يا استاذ سينكا ؟.

سينكا : نعم .

نيرون : والآن سأصف روما – فيما عدا تل البلاتين – وستقول يا استاذ سينكا ماذا كان وصفي صحيحاً ام لا . لقد وفرت علي بعض القول عندما قلت انها كانت مبنية من الأكواخ المغطاة بالنفايات فأضيف أن سكانها كانوا من العاملين والحمالين والفلاحين والرقيق وآبائهم وأمهاتهم ونسائهم واطفالهم وكانت شوارعها ضيقة تعج بهم اثناء الليل فتجعل النوم مستحيلاً . وتزدحم بهم الطرقات فتجعل السير في النهار أشبه الاشياء بالحرب والكفاح . فمهما اسرعت سد عليك الطريق جيش لجب من امام بينما تدفعك كتل بشرية من الخلف . منهم من يضربك بمرفقه ومنهم من يدفعك بعمود هودج . هذا يسقط على ام رأسك كتلة خشب . وذاك

قارورة خمر . ورجلاك يغطيهما الطين . فان وقعت تطأك أرجل ضخمة مقبلة من كل الجهات . كل هذا في هواء فاسد من روائح العرق والخمور والطين والعفن .. (لسينكا) هل قلت حقاً يا استاذ سينكا ؟..

سينكا : نعم وكان قولك بليغاً .. كأنك تنقل عن جوفنال ..

نيرون : بقي وصف ..

د .علام : (متدخلاً محتجاً) .. سيدي القاضي ان المتهم لا يستجوب الشاهد بل يدافع عن نفسه قبل أن تصل الاجراءات الى مرحلة الدفاع . التمس من المحكمة ان تنبه المتهم الى ما ينبغي عليه ان يلتزمه من قواعد التحقيق .

العميد : طيب يا سيد نيرون .. لا تتحدث انت ثم تسأل الشاهد عن مدى صدقك . أجّل هذا الاسلوب الى وقت الدفاع .. في هذه المرحلة.. انت تسأل عن وقائع محددة وهو يجيب .

نيرون : وما الفرق يا سيدي ؟ اني اذكره أولاً ..

العميد : لا تحاول أن تذكره .. دعه يذكر ما يعرف .. قد يتضمن التذكير ايحاء بشيء أو توجيها الى شيء او تواطأ على شيء .

نيرون : امرك يا سيدي العميد .. يا استاذ سينكا .. عرف الناس منك كيف كان يعيش سادة روما حياتهم الابيقورية . وعرفوا منك متى وأين كان يعيش أولئك السادة . وعرفنا الآن اين كان يعيش باقي سكان روما والان اسألك اين كان يعيش باقي سكان ايطاليا .

سينكا : في المزارع .. في الضياع .

نيرون : من الذي كان يملك الضياع ؟

سينكا : اعضاء مجلس الشيوخ .. اغلبها كانت مملوكة لهم .

نيرون : هل كانت في ايطاليا ضياع كثيرة ؟

سينكا : كانت ايطاليا كلها مقسمة الى ضياع .

نيرون : هل كانت تلك الضياع كبيرة ؟

سينكا : كانت كبيرة الى حد أن بعضها بلغ من السعة ما يستحيل معه على مالكيها ان يطوفوا بها راكبين .

نيرون : بليغ . كأنك تنقل عن كالوملا .. من الذي كان يزرع في تلك الضياع ؟

سينكا : الزيتون والكروم ومازيد ترعى فيه الماشية .

نيرون : هل كانت تزرع قمحاً او أية حبوب اخرى ؟

سينكا : لا .

نيرون : هل تعرف لماذا ؟

سينكا : لأنها أقل ربحاً من زراعة الكروم والزيتون وتربية الماشية .

نيرون : هل كانت في روما صناعة ؟

سينكا : مصنعان أحدهما للورق ، والآخر للصباغة ..

نيرون : هل كان سادة روما يعيشون على الزيتون والكروم واللحوم ويتسلون بالورق الملون فقط ؟

سينكا : انت تهزل ، لقد كان نصف منتجات الأقاليم يحمل إلى ايطاليا لتتلذذ به أفواه سادة روما وتكتسي به أجسادهم وتزدان به بيوتهم كانوا يعيشون متخمين (باللاتينية) :

Vomunt Setedant und edant ut vomunt

(نيرون يضحك) .

العميد : (ملتفتاً إلى الدكتور علام مستفهماً) ؟

د . علام : (واقفاً) .. كانوا يتقايئون ليأكلوا ثم يأكلون ليتقايئوا ..

العميد : (لنيرون) .. استمر .

نيرون : هل كان أحد من سادة روما يعمل في ضياعه أو في أحد المصنعين

أو في أقاليم الأمبراطورية ؟ .

سينكا : لا . لأنهم كانوا متفرغين للمنافسة على اللذة .. الفضيلة كما عرفوها ..

يرون : لا يعملون لأنهم متفرغون للمنافسة على اللذة ، أم يتنافسون على اللذة لأنهم لا يعملون ؟

سينكا : هذه جزئيات ... كانت قد سيطرت عليهم الأفكار الأبيقورية .

نيرون : ومن اذن الذي كان يعمل في الضياع وفي مصنعي الورق والصباغة وفي الأقاليم ؟

سينكا : العبيد .

نيرون : هل كان عدد العبيد كبيراً بالقدر الذي يكفي لزراعة ايطاليا كلها .. فضلاً عن المصنعين والأقاليم وخدمة القصور ؟

سينكا : وأكبر . كانت ايطاليا كلها عبيداً . حتى في روما ذاتها . كانوا أغلبية . عرض على مجلس الشيوخ يوماً ، اقتراح بأن يلبس العبيد زياً خاصاً فرفضه خوفاً من أن يدرك العبيد كثرتهم .

نيرون : كيف أصبح كل أولئك عبيداً ؟

سينكا : بألف طريقة وطريقة . بالميراث . بالأسر ، المدين يصبح عبداً . السارق يصبح عبداً . المفلس يصبح عبداً . كل فقير كان عبداً .. أو مرشحاً للعبودية .. أما سكان الأقاليم من أول مصر إلى بريطانيا فكانوا عبيداً طبقاً لقانون الأمم .

نيرون : كيف كان يعامل سكان تل البلاتين عبيدهم ؟ ..

سينكا : كما يعامل العبيد . كانوا يملكونهم كما يملكون ماشيتهم . في المزارع يصفدونهم بالأغلال حتى لا يهربوا . أما في المدينة فكانوا يستخدمونهم في كل ما يستخدم فيه النبات أو الحيوان أو الجماد

وكانوا يرفهون عن أنفسهم مرتين كل يوم بقتلهم ، في الصباح يدفعون بهم إلى الملاعب لمصارعة الأسود الجائعة .. وبعد الظهر يسوقونهم إلى المجتلدات يتصارعون حتى الموت عراة وبغير دروع وغير هذا كثير .. أنت تعرفه .. لا بد انك تعرف فيديوس بليو..

نيرون : أعرفه ، أعرفهم كلهم ، وأعرف كل شيء ، انما أريد أن يعرف الناس هنا ..

سينكا : كان فيديوس بليو مغرماً بأكل سمك البوربون . فأقام في ساحة قصره صندوقاً كبيراً من الزجاج يربي فيه أسماكه .. وتحت تأثير الفكر الأبيقوري المتطرف اهتدى إلى أن أفضل غذاء لسمك البوربون هو لحم العبيد .. فظل سنوات طويلة يقدم من لحم عبيده الوجبة المفضلة لأسماكه .. ليأكل من لحم أسماكه وجبته المفضلة .

نيرون : هل تذكر ماذا كان يفعل لوسيوس فيراتيوس ؟ ..

سينكا : نعم .كان القانون يعاقب من يصفع أحداً بدفع خمسة وعشرين آساً . فكان لوسيوس فيراتيوس يمر على جواده في الأسواق والطرقات يصفع من يطيب له صفعه ويتولى عبده دفع الغرامة فوراً ..

نيرون : ماذا كان يفعل سكان روما .. من غير تلال البلاتين . عندما يرون لوسيوس فيراتيوس قادماً على جواده ؟ ..

سينكا : كانوا يتزاحمون حوله ، يمدون أقفيتهم للصفعات وأيديهم للآسات ..

العميد : كم يساوي الآس يا دكتور علام ؟

د . علام : ٥ مليمات تقريباً .

العميد : (لنيرون) .. استمر .

د . علام : (محتجاً) سيدي القاضي ان المتهم يستغل رحابة صدركم .. ليس في أي سؤال مما سأله ما يتصل بالتهم موضوع القضية .

نيرون : (مبتسماً) سنرى .. سترى يا دكتور علام .. يا صاحب عبر التاريخ .. لعلك عرفت الآن ما هي حقيقة روما التي توليت عرشها .. ورحت تدينني على ما فعلت فيها .. انتظر .. انتظر يا دكتور علام .. وسترى المزيد من العبر ..

العميد : طيب .. استمر .. ولكن ادخل إلى وقائع الدعوى .. (مبتسماً) هذا آخر يوم لك .

نيرون : (مبتسماً) ليتني أبقى . اذن لما أضعت ما أضعت من وقت وجهد أجرب الناس والأشياء قبل أن أعرف ما أريد متأخراً (لسينكا) .. ألم يحاول أحد من الأباطرة تغيير تلك الحياة الرومانية (مبتسماً) الأبيقورية ؟ ..

سينكا : أذكر أن يوليوس قيصر حاول مرة أن يوفر الحبوب لروما . فانتزع قدراً من الأرض ووزعها على عبيد أعتقهم مقابل أن يزرعوا حبوباً بدلاً من الكروم والزيتون ولكن المحاولة فشلت .

نيرون : لماذا فشلت ؟

سينكا : مجلس الشيوخ وجد حلاً آخر للمشكلة . طلب من يوليوس قيصر أن يغزو مصر حيث تتوافر الحبوب فضرب عصفورين بحجر صائب .

نيرون : عرفنا عصفوراً .. فأين العصفور الثاني ؟

سينكا : العبيد الذين أعتقهم يوليوس قيصر ووزع عليهم الأرض كان عليهم بعد أن أصبحوا أحراراً أن يلتحقوا بالجيش المتجه إلى الشرق .. وعادت سلطة مجلس الشيوخ . ولم يبق إلا مشكلة قيصر وما أطلق عليه « السلم الروماني » .

العميد : ماذا كان يعني « بالسلم الروماني » .

سينكا : أشياء كثيرة كان أخطرها منح الايطاليين ما لأهل روما من حقوق .

نيرون : وكيف حلت مشكلة يوليوس قيصر ؟

سينكا : مات .. قتله بروتس بالاتفاق مع جماعة كانت تسمي نفسها «دعاة الحرية » ..

نيرون : هل كان بروتس ودعاة الحرية أعضاء في مجلس الشيوخ ؟

سينكا : نعم ..

نيرون : (مغتبطاً) .. نعود اليك يا أستاذ سينكا . هل كنت أنت عضواً في مجلس الشيوخ ؟ .

سينكا : نعم . لفترة وجيزة ..

نيرون : هل كان أعضاء مجلس الشيوخ يقبلون قدمي الأمبراطور كاليجولا ثم يصدرون قراراً بشكره على أن شرفهم فسمح لهم بتقبيل قدميه ؟

سينكا : نعم .. قبل أن أكون عضواً فيه ..

نيرون : هل أقر مجلس الشيوخ تعيين جواد الأمبراطور كاهناً وبناء معبد له ؟

سينكا : نعم .. قبل ان اكون عضواً فيه .

نيرون : هل كان مجلس الشيوخ يعرف ان كلوديوس غبي أبله ومع ذلك عينه امبراطوراً ثم آلهاً ؟..

سينكا : نعم .

نيرون : هل كان مجلس الشيوخ يعرف انني لست ولي العهد ومع ذلك عينني امبراطوراً ؟

سينكا : نعم .

نيرون : هل اقترح مجلس الشيوخ ان أكون آلهاً يقيم لي معبداً فرفضت؟

سينكا : نعم .

نيرون : عندما ماتت طفلتي بعد مولدها بيومين هل اصدر مجلس الشيوخ قراراً باعتبارها آلهة ؟ ..

سينكا : نعم .

نيرون : هل اكره الأمبراطور كاليجولا او الأمبراطور كلوديوس .. او أنا .. مجلس الشيوخ على ان يصدر تلك القرارات ؟

سينكا : لا .

نيرون : لماذا ، اذن ، كانوا ينافقوننا ؟

سينكا : هذه هي المسألة . الترابط بين الاشياء . معرفة الجزء في الكل مجلس الشيوخ كان جزءاً من روما وروما كانت فاسدة الخلق .. اقولها كرواقي .

نيرون : لنر الأمر من زاوية اخرى ، إذا كان فساد الخلق كما تسميه هو السبب ، فلماذا لم ينافق مجلس الشيوخ يوليوس قيصر بل قتله ولم ينافقني في المرحلة الأخيرة من حكمي .

سينكا : (متردداً) أعتقد .. أعتقد ..

نيرون : (بحزم وغضب) .. هل يكون السبب محاولة كل من يوليوس قيصر .. ولوسيوس نيرون .. تحرير العبيد وتوزيع الارض ؟

سينكا : (مرعوباً) .. ربما يا سيدي الأمبراطور .. ربما (يسترد جأشه) سيدي القاضي .. انه (يبتسم نيرون) .

العميد : نيرون .. أرجو الا تنسى اين انت ..

نيرون : اسف يا سيدي العميد .. يستفزني دائماً المتاجرون بالكلمات .

العميد : (بحزم) كفى .. هل انتهيت من سؤاله ؟

د .علام : (للعميد) .. سيدي انه لم يسأله عن أي شيء يتصل بالقضية .. انه يضيع الوقت ..

نيرون : اني لا اضيع الوقت وسابقى هنا حتى لو مت .. الى ان انتهي منك ومنه .

العميد : قلت لك كفى يا نيرون ..

نيرون : اسف مرة اخرى ولكني متمسك بحقي في ان اسأل الشاهد ..

العميد : اسأله .. ولكن في موضوع الاتهام ..

نيرون : فليكن (لسينكا) .. يا سينكا .. عندما توليت العرش بعد الأمبراطور كلوديوس هل القيت انا امام مجلس الشيوخ بياناً بليغاً أرثيه فيه واقترح رفعه الى مصاف الآلهة ؟

سينكا : نعم .

نيرون : بعد ان ماتت أمي اجربينا هل القيت انا امام مجلس الشيوخ بياناً مؤثراً اقول فيه انها قد انتحرت ؟

سينكا : نعم .

نيرون : هل كان ما قلته في البيانين ، البليغ والمؤثر كليهما ، صحيحاً ؟

سينكا : لا . كان كلوديوس ابلهاً ، واجربينا لم تنتحر ..

نيرون : (بحزم وغضب) .. هل كنت انت الذي كتبت لي البيانين وطلبت مني ان اتلوهما على مجلس الشيوخ بحجة « الكياسة » .؟

سينكا : نعم . فقد كنت أدرى منك بالسياسة ..

نيرون : هل لا بد من الكذب في السياسة يا سينكا ؟

سينكا : اعتقد .. اذا كانت المصلحة العامة تقتضي ..

نيرون : (متهكماً) .. المصلحة العامة ؟.. سينكا .. لقد شرحت للناس فلسفتك الرواقية وكيف جسدتها مسلكاً فكنت زاهداً .. تنام على خشبة ولا تأكل الا التفاح البري ..

سينكا : (مقاطعاً بقوة) نعم .. هل تنكر هذا ؟

نيرون : لا أنكره بل اسألك . كم بلغت ثروتك عندما انتهت حياتك ؟

سينكا : (خجلاً ومتردداً) .كانت .. كانت ..

نيرون : (غاضباً) هل بلغت ثلاثمائة مليون سسترس (همهمة) .

العميد : انتظر .. كم ؟.. كم يا دكتور علام .. بعملتنا .

د .علام : ثمانية ملايين جنيه .. تقريباً .. يا سيدي (ضجة وتعليقات مكتومة).

نيرون : سينكا .. عندما اردت ان تسترد قروضك من أقليم بريطانيا .. هل قام السكان بثورة لان استردادها يجرد الأقليم من اغلب النقد المتداول ؟

سينكا : قاموا .. ولكن قروضي كانت من حقي ..

نيرون : (غاضباً) .. حقك ؟.. أيها المنافق ..

العميد : نيرون .. ان المحكمة (يضرب بمطرقته) ..

نيرون : (مستمراً غاضباً) تعيش في قصر وتنام على خشبة .. تأكل التفاح البري وتملك الملايين ...

العميد : كفى يا نيرون .. استمع اليّ ..

نيرون : (مستمراً) تدعو للتقشف وتمجد الفقر في روما .. وترابي في الأقاليم .. كم انا نادم على ما اضعت من ايام قبل ان اعرف حقيقتك .

سينكا : (بقوة وتحد) ــ اسمع ايها الغلام .. لقد جاوزت حدك بكثير لقد قلت من قبل ان جهلك قد أدى الى دمار روما ، وها انت تعترف بجهلك .. الآن تندم على ما اضعت من ايام قبل ان تعرف

الحقيقة وتنسى أنها لم تكن ايامك بل ايام روما .. ومن قبل قلت انك اضعت من جهد ووقت تجر ب الناس والاشياء . ونسيت ان الناس والاشياء لم يخلقوا ليكونوا مادة للتجارب .. نسيت ان حياة الانسان أغلى من ان تتعلم فيها الى ان تعرف كم هي غالية . تلومني على انني كنت أنمي ثروتي خفية في الأقاليم واعيش كما يعيش الزهاد .. هذا أكبر من ان تدركه يابني .. لقد كنت رواقياً زاهداً ولكن روما كانت ابيقورية فاسدة فعشت حياتي رواقياً ولكني تعاملت مع روما طبقاً لنظام تعاملها . وهل كنت تحسب أيها الغر ان الفرد يتحكم في النظام . ان الجزء يتحكم في الكل .. ان تكون مسماراً في مركبة وتحاول ان توقف اندفاعها .. ان مشكلة روما كانت مشكلة نظام للحياة وليست حياة افراد ..

العميد : (متدخلاً) .. مهلاً يا استاذ سينكا .. هذه محكمة وليست رواقاً للجدل ..

سينكا : لقد صبرت عليه كثيراً يا سيدي .. الآن .. وقبل الآن .. على ان ينضج ويتعلم .. ولكنه تجاوز حده .

العميد : ستلزمه حدود المحاكمة .. اهدأ انت .. ودع اقامة الحدود لنا .

سينكا : لك هذا يا سيدي .. ولكني لن اسمح له بان يتجاوز حدوده مرة اخرى .

العميد : (لنيرون) ان كانت لديك اسئلة اخرى فاسألها .. ولكن لا تمس اعتبار الشاهد .. ان المحكمة تمنعك .

نيرون : (مبتسماً) حسن يا سيدي .. وهل استطيع ان امس اعتباره (مبتسماً) هذا مستحيل . كنت اريد ان اخرجه من الصومعة ليظهر في النور على حقيقته .. اني اعرفه جيداً يا سيدي ..

العميد : دعك من هذا .. وسل عما تريد ولتكن اسئلتك في موضوع الاتهام ؟

نيرون : (بهدوء) يا استاذ سينكا .. قلت انني قد اعدت الى الحياة قانون الخيانة واعدمت من اعدمت وسجنت من سجنت .

سينكا : (بحدة صريحة) نعم .. كنت قد اصبحت طاغية .

نيرون : ذكرت من بين من اعدمتهم تراسبابيتس وكاسيوس وأخاك انيوس ميلا واخاك انيوس نوفاتس ..

سينكا : (مقاطعاً) نعم .. واخرين .. لقد اغرقت روما في بحر من الدم .

نيرون : (بهدوء) .. صبراً يا استاذ سينكا .. هل كان من ذكرتهم واخرون على صلة بالمدعو اجلاس بيزو ؟

سينكا : نعم .. كانوا اصدقاء .

نيرون : هل كنت صديقاً لهم ؟

سينكا : كنت اعلمهم الحكمة .

نيرون : (مبتسماً) هل انتهت دراستكم الحكمة الى انني حاكم فاسد لا بد من إسقاطي وتنصيب اجلاس بيزو امبراطوراً ؟

سينكا : (بقوة متحدياً) .. نعم وليتنا أفلحنا .. وهل كنت تظن أيها الغر ان نترك عبثك الصبياني يدمر الأمبراطورية ؟..

نيرون : (للدكتور علام بجدية) .. هذا هو الجواب على تهمتك الثانية يا دكتور علام .. انني لم أقتله تآمر فامرته بان يقتل نفسه طبقاً للقانون .. كان الأمر بقتل النفس هو اسلوب تنفيذ حكم اعدام اذا كان المجرم من سادة روما .. وقد كان سينكا الزاهد منتمياً الى سادة روما .. ننتقل الى التهمة الثالثة .. (لسينكا بهدوء) يا استاذ سينكا .. هل القيت علي دروساً في الحضارة ؟

سينكا : نعم .. وليتني لم أفعل .. لقد كنت احرث في الماء ..

نيرون : مهلاً يا استاذ سينكا .. هل قلت لي أن التمايز بين الأمم .. إنما يكون تبعاً لتقدمها الحضاري واسهامها في رقي البشر ؟..

سينكا : نعم قلت هذا . وما ازال اعتقد صحته .

نيرون : هل قلت لي ان الحرية شرط أول للابداع الانساني ؟
سينكا : نعم : قلت لك هذا .
نيرون : هل كان اليونانيون أكثر تفوقاً حضارياً من الرومان ؟
سينكا : نعم .. ولكن هذا التفوق انتهى ..
نيرون : متى انتهى ؟
سينكا : بالفتح الروماني .. فانتقل الفلاسفة والفنانون من اليونان الى روما .
نيرون : طبقاً لكل ما قلته هل كان عدلاً ان تسيطر أمة متخلفة حضارياً على أمة أكثر تقدماً . لمجرد انها اقدر منها على القتال ؟
سينكا : ليس عدلاً .. ولكن روما كانت قد تفوقت على اليونان في مضمار الحضارة .
نيرون : سنرى .. أذكر للمحكمة اذن المناسبة التي منحت فيها بلاد اليونان استقلالها ؟..
سينكا : (بحدة) لن أذكر شيئاً .. اذكره انت إذا شئت .. انني لست هنا لاتلقى الأوامر منك .
العميد : (متدخلاً) اذكر المناسبة يا نيرون وسنسأل الاستاذ سينكا عن مدى صحة ما تذكر .
نيرون : (متسائلاً بمرح) رجعنا ؟.. فليكن (جاداً) .. كان اليونانيون متفوقين علينا في كل شيء ما عدا الحرب وقد سمعتم من أمي اجربينا أنهم كانوا يعلمون اولادنا ويبنون قصورنا ويقيمون تماثيلنا ويفصلون ملابسنا ويصنعون حلينا ويدربوننا على الرقص والغناء ويؤلفون لنا المسرحيات .. كان كل ما هو جميل في روما من صنع اليونانيين وقد كنت أستطيع منذ صغري الاحساس بالجمال قبل ان اعرف كيف أميز بين الفن الاصيل والتقليد الفني وكنت بحكم منصبي كامبراطور اذهب على رأس جيش كثيف العدد والعتاد لحضور مباريات الأولمبياد .. ممثلاً للسلطة .

واختلس بعض الوقت لأتجول في مدن اليونان لأتأمل ما ابدعوه من فنون . ثم أعود الى روما فأرى ما يصنعه العبيد اليونانيون فيها فأدركت انني عندما انتقل من اليونان الى ايطاليا .. لا اعبر بحراً من ماء بل اعبر فجوة فنية .. اترك ورائي ما هو أصيل وأجد امامي ما هو زائف .. والفجوة تتسع كل يوم . الأصيل يزداد أصالة . والزائف يتراكم .. حاورت استاذي سينكا في الأمر فقال لي ما قال ..

سينكا : (مقاطعاً) .. وقلت لك ان روما أكثر تفوقاً .

نيرون : نعم قلت هذا . فسكت . كنت انتظر فرصة إختبار حضاري وجاء موسم الأولمبياد فأمرت بان يمثل روما جيش ولكن بدون عتاد حربي .. جيش يضم كل الرياضيين والمفكرين والفنانين والشعراء من الرومان وقلت لهم دعونا نثبت لليونانيين اننا أكثر منهم إنسانية وليس أكثر منهم مقدرة على القتل . ذهبنا واشتركنا في كل المباريات اشتركت انا نفسي في كثير منها وحصلنا على عدد من الجوائز ولكن يالروعة اليونانيين لقد كنا بجوارهم بدائيين كانوا سادة الجمال في الشكل والحركة والايقاع كانوا سادة الموسيقيين .. فلم استطع ان احتمل مسؤولية الاحتفاظ بالقيود التي تشل مقدرتهم على استئناف عطائهم الحضاري للبشرية .. فأعلنت هناك .. في ختام الحفلات تحرير اليونان .

العميد : (لسينكا) هل حدث هذا يا استاذ سينكا ؟

سينكا : لم أكن موجوداً لاحضر كل تلك السخافات .. ان كان قد حدث فقد فرط في أملاك الأمبراطورية .

نيرون : (للدكتور علام) وهذا هو الجواب على تهمتك الثالثة .. ماذا بقى ؟ حرق روما ؟ لقد سمعتم انني لم احرقها ومع ذلك فلنسأل

الاستاذ سينكا (لسينكا) استاذ سينكا .. اذكر للناس ماذا فعلت عندما سمعت بان روما تحترق ؟

سينكا : لا تطلب مني ان أذكر شيئاً .. المحكمة وحدها هي التي تطلب انا لست تحت امرك .

العميد : المحكمة لن تطلب منك ان تذكر شيئاً عن حريق روما يا استاذ سينكا لقد قلت ان نيرون لم يحرقها وهذا يكفي .. هل يريد الدكتور علام ان يسأل الشاهد عن شيء ..

د .علام : (ممتعضاً) .. لا ... لا شيء

العميد : (لسينكا) تفضل واسترح يا استاذ سينكا ..
(للمذيع) ناد الشاهد الأخير .

المذيع : (واقفاً) فاؤون المصري .

العميد : (في الوقت ذاته) أو لا تنادي .. انتظر .

يظهر فاؤون ويتقدم ببطء وخوف وهو يتأمل الحاضرين ورجال الشرطة خاصة بينما يكون العميد مشغولاً بمراجعة أوراق امامه .. يرتطم فاؤون بالمنصة . وينتبه (العميد)

العميد : من ؟ انتظر .. انتظر .. (ينكمش فاؤون مرعوباً) .. نيرون .. تقدم .. المحكمة تريد ان تسألك .. (نيرون يتقدم الى المنصة) نسب اليك شاهد الاثبات الاستاذ سينكا منذ قليل ، انك كنت تجرب في حياة الناس ونسيت ان حياة الناس أغلى من ان تتعلم فيها الى ان تعرف انها غالية . فهل كان ذلك صحيحاً ؟

نيرون : نعم يا سيدي .. جربت حتى تعلمت .. أخيراً ..

العميد : هل كانت لتجاربك ضحايا من البشر .. او الأموال .. مثلاً ..

نيرون : لا بد ان كانت لتجاربي ضحايا .. كان لا بد من هذا .. لم اكن لأتعلم لو لم اخطىء ..

العميد : من المسؤول عما أصاب هؤلاء الضحايا ؟

نيرون : لقد اجاب سينكا بنفسه علي وهذا السؤال..المسؤولة أمي..أجربينا..

العميد : كيف تكون أملك مسؤولة عما فعلته انت ؟

نيرون : امي مسؤولة عما لم اعرف كيف افعله فأخطأت طريقي اليه . هي التي انجبتني ولأسباب تتصل بها هي اصبحت انا امبراطوراً لم يكن امامي بعد هذا الا ان استهدف الخير وأحاول تحقيقه ولكني لم اكن اعرف في البداية كيف يتحقق . فكان لا بد لي من ان اختار بين امرين . اما ان أكف نفسي عن المحاولة .. اريح نفسي فتستمر الحياة في روما كما كانت . واما ان احاول تغيير الحياة في روما تاركاً للتجربة والخطأ ان يعلماني .. فاخترت الثانية . فكان لا بد من الضحايا . ولكن كان لا بد أيضاً من إيقاف الفساد في روما عند حد .. أمي هي المسؤولة (للدكتور علام) دكتور علام .. اني اتهم شاهدتك الأولى .. فلماذا لم تتدخل .. قل مثلاً انها مسؤولية تاريخية يتحملها الجيل الذي سبقني .

العميد : طيب .. تفضل .. ناد على فاؤون .

المذيع : (بصوت عال) .. فاؤون المصري .

العميد : (منتبهاً) .. آه .. فاؤون .. هل انت فاؤون المصري ؟

فاؤون : (خائفاً) سيدي .. سيدي .. انا لم افعل شيئاً .. انا فلاح مسكين.. ليس ذنبي يا سيدي لم افعل شيئاً .. هم .. هم .. هم سموني فاؤون المصري .

العميد : (ملاطفاً) أهلاً بك في بلدك يا فاؤون .. لا تخف .. نحن اهل .. ما الذي يخيفك ؟

فاؤون : (اكثر خوفاً) سيدي .. انا مسكين .. لم افعل شيئاً .. انا ..

العميد : (بحنو) فهمنا يا فاؤون انت لم تفعل شيئاً .. طبعاً .. وهل قال احد انك فعلت شيئاً .. الا تعرف اننا اهل .. فما الذي يخيفك .. (لنيرون) ما الذي يخيف فاؤون الى هذا الحد يا نيرون ..

نيرون : لا شيء يخيفه يا سيدي .. هو خائف فقط ..

العميد : ماذا تعني ؟

نيرون : (بأسى) سيدي .. كلهم هكذا .. من كثرة ما اخافوهم به .. اصبحوا بشراً خائفين .. اصبح الخوف فيهم حاسة سادسة ولكن فاؤون ؟ هل تسمح لي يا سيدي ان اتحدث الى فاؤون .. ليطمئن .

العميد : تحدث اليه .. ولكن ليس في موضوع القضية ..

نيرون : (متقدماً نحو فاؤون حانياً عليه) .. اهلاً .. أيها الصديق فاؤون.. تمالك نفسك يا رجل .. نحن بين اصدقاء . لقد طلبت منهم ان يسمحوا لي بان تحضر اجتماعنا هذا انا الذي طلبت يا فاؤون.

فاؤون : (متردداً ولكن اكثر اطمئناناً) وماذا يريدون مني يا ولدي نيرون ؟

نيرون : اكتشفوا سرنا يا فاؤون (ضاحكاً) تصور .. اكتشفوا سرنا (فاؤون يكاد يسقط رعباً وهو ينظر الى العميد تارة والمصورين تارة اخرى .. والى الشرطة أغلب اللحظات) .. لا يهمك لقد قالوا انني قد تغيرت منذ ان التقيت بك .. وماذا في هذا ؟ اني فخور بك وبه .. وانا اريدك الآن معي كما كنا في أيامنا الخالية .

فاؤون : (اكثر اطمئناناً) اكون معك .. هذا افضل .. وماذا تريد ان افعل يا ولدي .

نيرون : ان تحكي لهم حكاية « بي .. والسبعين ملكاً » (يبتسم فاؤون لاول مرة ويطرق برأسه) ..

العميد : وما هي حكاية « بي والسبعين ملكاً » يا نيرون ..

نيرون : (مبتسماً ومتواطئاً بالإشارة مع العميد) .. ستسمعها يا سيدي من فاؤون نفسه وهل يستطيع احد ان يحكيها بمثل الدقة والبراعة التي يحكيها بها فاؤون .. لا .. لا .. يا سيدي لا تحرمنا من الاستماع الى فاؤون (فاؤون يتطلع الى العميد مسروراً) .

العميد : طبعاً .. طبعاً .. سيحكيها لنا فاؤون .. هل سيحكيها لنا يا فاؤون .

فاؤون : اذا شئتم يا سيدي .

العميد : قبل الحكاية .. اريد ان اعرف منك شيئاً يا فاؤون .. هل ما زلت خائفاً ..

فاؤون : (ممسكاً بذراع نيرون) . لا .. لا يا سيدي لست خائفاً .

العميد : طيب قل لي يا فاؤون.. هل كنت حاضراً في الحفل الذي اقامه نيرون .. الأمبراطور نيرون . في روما .. الحفل العظيم الذي اقامه بعد ان احترقت وغنى فيه .. لا بد ان يكون قد دعاك .. انك صديقه .. أليس كذلك يا نيرون ؟

نيرون : (مجاوباً) طبعاً دعوته .. وهل كان عندي من هو أعز من فاؤون ؟

العميد : هل دعاك يا فاؤون ؟

فاؤون : نعم يا سيدي .. وحضرت .. مع كل الناس في روما ..

العميد : يقال ان الأمبراطور نفسه غنى في الحفل ..

فاؤون : نعم يا سيدي .. اكلنا وشربنا ورقصنا وغنينا شعر الأمبراطور .. والحانه وكان هو يغني معنا .

العميد : أين كان الحفل يا نيرون ؟

فاؤون : في ميدان المريخ يا سيدي .. كانت كل الأماكن الأخرى مليئة بالانقاض المحترقة .. وكنا كلنا متعبين كنا نتساقط من التعب بعد تسعة ايام من مكافحة النيران . حتى الأمبراطور (ضاحكاً) رأيت رجلاً تكسوه الأتربة وتغطي حتى عينيه لم اعرفه .. رأيته وقد وقع من فوق جدار وهو يصب الماء على النار من دلو في يده .. ذهبت اليه وإذ به (يضحك ويضرب نيرون على ظهره بمودة) الأمبراطور كنا متعبين يا سيدي ..

العميد : وماذا كان يفعل الأمبراطور هناك ؟

فاؤون : كان معنا يا سيدي . ماذا كان يفعل ؟ كان معنا .. نحاصر النيران ونطفي الحريق وفي آخر الايام التسعة كنا متعبين .. وكان معنا .. فجاء عندي .. كنت نائماً لاستريح في ركن من ميدان المريخ .. وقال لي : فاؤون .. لقد اطفأنا النيران وانقذنا المحاصرين وأغثنا المنكوبين وآوينا المشردين في المباني العامة وفي قصري وفي مدينة الخيام هذه .. كنا يا سيدي قد ملأنا ميدان المريخ الواسع خياماً .. والآن جاء اليوم الذي كنا نتمناه .. قال لي انه يوملك يا فاؤون.. سنبني روما الجديدة الجميلة.. على طراز الاسكندرية.. كما وصفتها لي (يصمت ويهز رأسه كأنه يسترجع ذكرياته) ..

العميد : وبعد .

فاؤون : وبعد يا سيدي .. قضينا الليل والنهار التالي .. نرسم روما الجديدة .. وفي اخر النهار احتفلنا ببداية البناء الجديد .. حفلاً .. غنى فيه الأمبراطور نفسه (لنيرون بصوت خفيض) هل احكي لهم حكاية بي (نيرون يضغط على ذراعه ان اسكت الآن) .

العميد : فاؤون .. هل كان الأمبراطور نيرون يقيم مثل هذه الحفلات . اعني في مناسبات أخرى ؟

فاؤون : طبعاً يا سيدي .. حفلات كثيرة وكان يغني فيها أيضاً .. وكنا نحن فقط الذين نحضرها .. ولكن الملاعب كانت تزدحم بنا .. في احدى المرات في نابلي ، جئنا من جميع اطراف ايطاليا لنحضر الحفل الذي مثل فيه الأمبراطور دور هرقل .

العميد : هل تعرف يا فاؤون .. متى بدأت هذه الحفلات .

فاؤون : بدأت يا سيدي حين الغى الأمبراطور .. ولدي نيرون .. المجتلدات التي كنا نموت فيها صراعاً مع الوحوش .. الحقيقة بعد ان الغاها لم يعد أحد يرتاد الملاعب . وبدأ الاطفال يتبولون

فيها . قال لي الأمبراطور .. يا فاؤون ان الملاعب الفارغة قد اصبحت قبيحة ونتنة.. ألا توجد تسلية اقل وحشية من القتال .. كيف يقضون أوقاتهم في مصر .. قلت له يا سيدي .. في الغناء والرقص والتمثيل والرياضة فقبلني .. قبلني الأمبراطور .. وبدأ يقيم الحفلات في الملاعب .. وكنا نحضرها .. كلنا ونملؤها وحدنا .

العميد : من أنتم .. يا فاؤون .. ماذا تقصد بقولك وحدنا ..؟

فاؤون : نحن العبيد يا سيدي . لم يكن السادة يحضرون حفلات الأمبراطور .. لكنا نحن نحضر . طبعاً لا بد ان نحضر حفلات (يضحك) امبراطورنا ..

العميد : هل كنتم تعتبرونه امبراطوركم ..

فاؤون : (متردداً وناظراً الى نيرون) في المدة الأخيرة يا سيدي عندما عرفنا وعرفناه .. وبعدها كان معنا دائماً حتى عندما ثارت ضده جيوش الأقاليم الغربية في اقليم الغال .. واقليم اسبانيا ومجلس الشيوخ اعلن أن جلبا قائد الجيش في اقليم اسبانيا هو الأمبراطور. وطلب من نيرون ان يقتل نفسه حسب العادة المتبعة . جاء عندي وحده .. ومعه قنينة مليئة بالسم .. واجتمعنا حوله . قال لنا ماذا افعل ايها الاصدقاء .. قلت له لا تنفذ أمرهم .. لا تقتل نفسك .. قال : سيقتلوني إذن .. قلت له : لا تدعهم يقتلونك .. لا تخضع لهم فتقتل نفسك . ولا تستسلم فتتركهم يقتلونك . قال : ما الحل إذن ؟.. فقال ابتروديتس الطيب .. سيدي لقد كنت عبداً ذليلاً فحررتني من العبودية . ولن أسمح بان تنهي حياتك ذليلاً . بأمر منهم او بأديهم .. سأحررك بيدي من موقفك الصعب (يتوقف متأثراً ويكاد يبكي) .

العميد : وبعد ..

فاؤون : دفناه في مكان أمين .. وعندما جاء الجنود يطلبون جثته سلمناهم جثة ابترو ديتس ..

العميد : (متسائلاً مستغرباً) ابترو ديتس الذي ..

فاؤون : نعم يا سيدي .. ابترو ديتس الطيب . بعد ان حرر الأمبراطور .. قال لنا لا تسمحوا لهم بان يلمسوا جثته .. شوهوا جثتي .. والبسوها ملابسه وسلموها لهم .. اما انا فلن أفارقه .. قال هذا ثم طعن نفسه في قلبه .

فاؤون : انتشر الخبر . وخفنا انتقام كل الذين أحبوا نيرون وأحبهم . فقلنا انه لم يمت .. اختفى وسيعود لينقذهم .

العميد : (للدكتور علام) دكتور علام هل لديك ما تقوله ؟

د. علام : انه شاهد نفي .. يسأله نيرون أولاً .

العميد : هل تريد ان تسأله يا نيرون ؟

نيرون : (مرحاً) وهل نسيت يا سيدي .. « حكاية بي والسبعين ملكاً » لقد وعدنا فاؤون بان يحكيها .

العميد : (لنيرون) .. هل لها علاقة بالقضية ؟

نيرون : هي القضية يا سيدي . كنت بين مفترق الطرق بين الأبيقورية والرواقية . هذي تقول ابدأ بالمادة وتلك ابدأ بالفكر . وكنت في مفترق الطرق بين سادة روما وعبيدهم . السادة قادرون والعبيد ضعفاء وكنت في مفترق الطرق بين السلبية والإيجابية . السلبية هروب والإيجابية تحمل في جوفها اجنة الخطأ وكان لا بد لي من ان اختار .. رآني فاؤون مهموماً . اقطع ممرات القصر ذهاباً واياباً طول الليل حتى تعبت فجلست . فاقترب مني وحدثني .. حدثني باللاتينية التي لم يكن يعرف غيري انه يعرفها . كان يعرفها ويخفي معرفتها .. حتى يحتفظ بذلك القدر الضئيل من

الحرية .. لا يقول لا ما يريد . قال لي : سيدي .. هل تريد ان تسمع حكاية تسليك .. قلت .. أحك يا فاؤون .. قال (ثم لفاؤون) أحك يا فاؤون .

فاؤون : (يحكي قصة ويجسدها في ذاته تعبيراً وحركة الى ان يصبح في النهاية فلاحاً ثائراً) يحكى يا سيدي انه منذ اربعة الاف عام كان في مصر ملك اسمه بي .. وكان يحب شعبه ويحبه شعبه كان يملك كل الارض وكل الشعب .. ولهذا كان اسمه فرعوناً .. أي البيت الكبير بلغة مصر . ولكنه لم يكن يأخذ من شعبه الا ما يكفيه ويكفي نساءه وخدمه من ناتج الارض . فكان الشعب يسميه اباً ولا يسميه ملكاً لأن الاب يملك كل شيء ولكن لاولاده (لنيرون) هل استمر ..

العميد : استمر يا فاؤون .. اختصر فقط ..

فاؤون : لما زاد حب الناس له قالوا له انك لست مثلنا انك إله . حاول ان يقنعهم بانه بشر مثلهم له عينان وأذنان ويأكل ويشرب .. قالوا : ولكنك تملك ولا تأخذ ولا يفعل هذا الا الآلهة . اقاموا له معبداً كبيراً على شاطيء النيل واختاروا لمعبده كهنة من بينهم يقدمون القرابين ويصحبون الملك الآله في مراكب الشمس بعد أن ينتقل ليخدموه في الحياة الأخرى. لانه وهو الآله لا يموت.. وخصصوا قطعة من اخصب أرض الوادي ليأكل منها الكهنة ويتفرغوا لرعاية الآله في حياته معهم وبعد ان يغيب ومر الف عام . فقال الايماخو الأكبر ..

العميد : ايماخو ؟.. ماذا يعني يا دكتور علام ..

د. علام : لا اعرف يا سيدي .. ماذا تعني يا فاؤون ؟..

فاؤون : ايماخو أي التابع . كنت اقول ان الأيماخو الاكبر جمع اعوانه

وقال لهم : السنا خالدين مثل الآله ما دمنا سنتبعه .. قالوا نعم . قال فمن يخدمنا نحن عندما ننتقل مع الآله . ومن اين سنحصل على القرابين .. لا بد ان يكون لنا تابعون حتى نستطيع ان نتبع الآله . فأقام كل واحد منهم تمثالاً لنفسه ومعبداً وكهنة تابعين وأخذ قطعة من الارض الخصبة ثم مر الف عام .

العميد : اختصر يا فاؤون .

فاؤون : كان كل تابع قد اختار تابعاً ، وكل تابع تابع اختار تابعاً وكل تابع تابع تابع اختار تابعاً وامتلأت ارض الوادي بالتماثيل والمعابد والتابعين العاطلين الذين استنفذوا الارض الخصيبة قطعة قطعة . ومع كل قطعة أرض يتحول الفلاحون من خدم لإله لخدم لالآف الآلهة . حتى لم يعد الفلاح يحصل من أرضه على قدر من الشعير إلا بعد إذن التابعين .

العميد : (مستعجلاً وقد بدأ الحماس يدب في فاؤون) وبعد ؟

فاؤون : وبينما كان الكهنة يمطرون الارض بسيل من الدعوات والصلوات والوعود كانت الدماء في عروق الفلاحين تغلي وتفور . لم يفهم الأغبياء ان صبر الفلاحين ليس عجزاً بل علماً بان الارض لا تمنح الثمار الا في أوانها . ولم يفهم الأغبياء اننا تعلمنا الصبر على البذور حتى تنبت ثم الصبر على النبات حتى يزهر ثم الصبر على الزهور حتى تثمر ثم الصبر على الثمار حتى تنضج ثم نحصد (ممثلاً بيده) .. بضربة منجل سريعة حتى لا تفسد الثمار الناضجة .. هكذا علمتنا امنا الارض ..

العميد : وبعد ؟

فاؤون : وبعد ، غضب الصابرون ونهض الراكعون ونطق الصامتون

وارتفعت الفؤوس فوق الرؤوس ، وتدفق سيل من البشر الأقوياء على المعابد يحطمونها والتماثيل يسحقونها . والكهنة يقتلونهم . والارض يستردونها .. وتحول النيل الى بركة من الدماء . وانتهى الامر الى ما كان لا بد من ان ينته اليه منذ ان اخطأ ببي خطأه الاول .. ان يصبح الهاً على حساب الشعب ..

العميد : اهدأ .. يا فاؤون .. لماذا كل هذا الحماس .. هذه حكاية ببي فأين السبعين ملكاً ؟

فاؤون : آه كدت انسى .. لم تكن دماء ملك واحد كافية لتطهير رجس السنين الطويلة .. كان الشعب يريد ملوكاً جدداً .. ليقتلهم .. فظل سبعين يوماً .. يقيم في صباح كل يوم ملكاً ، ويحاكمه ظهراً ويقتله مساءً .. لم يكونوا في الاصل ملوكاً .. كانوا من ابناء الفلاحين الابرياء ولكنهم دفعوا بعد الفي عام ثمن خطأ ببي .

العميد : (لنيرون لائماً) . هل هذه هي الحكاية .. وفيم عبرتك .. ما علاقتها بالقضية ..

نيرون : سمعتها فاخترت يا سيدي .. من بين المادة والفكر اخترت الانسان .. من بين الاقوياء والضعفاء اخترت المظلومين .. من بين السلبية والايجابية اخترت التحدي .. لكي احول دون ان يتحول نهر التيبر الى بركة من الدماء .. ولو بعد الفي عام .

العميد : طيب . هل لدينا اسئلة اخرى ؟

نيرون : لا يا سيدي العميد ..

العميد : (للدكتور علام) . ما قول المدعي ؟

د .علام : اتمسك بالإدانة .

العميد : (لنيرون) ما دفاع المتهم ؟

نيرون : اتمسك بالعدالة .

العميد : طيب . نرفع الجلسة قليلاً .. ونعود فننطق بالحكم (يهم بالوقوف) .

نيرون : (معترضاً بقوة) .. أي حكم يا سيدي ومن انت حتى تحكم في قضية لوسيوس نيرون ؟

العميد : (مندهشاً) وغاضباً .. ما هذا ؟.. هل تعترض الآن على حكمي.. الم تخترني قاضياً .. وقلت انك ستقبل ما احكم به .

نيرون : (بقوة) كان هذا في البداية يا سيدي العميد قبل حوارنا حول مقياس العدالة .. يبدو انك نسيت يا سيدي .. هنا تسجيل كل ما حدث .. (للمخرج) .. اعد علينا يا سيدي ، من تسجيل الجلسة الأولى ، الفقرة التي تبدأ بقول السيد العميد .. « مهلاً يا نيرون لا تعقد الامور اكثر مما يجب ..

العميد : (للمخرج) اعدها .

(المخرج يعالج اجهزة التسجيل . صمت مطبق وتوتر . يبدأ الصوت واضحاً بينما ينزل الستار بالتدريج) .

صوت العميد : « مهلاً يا نيرون . لا تعقد الامور اكثر مما يجب . مانزال بعد بشراً . ولسنا قادرين على ان نتجاوز واقعنا البشري لنبلغ مستوى المثالية . ان الافكار المثالية ، عن العدالة وغيرها افكار جميلة . ولكنها – كما يجب ان تعرف – ليست انسانية . انها – بشرياً – فاشلة بقدر بعدها عن الواقع الانساني . فلا تحملنا ما لا طاقة لنا به .. واذا كنت تريد ان تثبت براءتك للناس ، فلتقبل حكم الناس ، طبقاً لمقاييس عدالتهم فهل تقبل ؟ »

صوت نيرون : اقبل يا سيدي .. اقبل حكم الناس .. اقبل حكم الناس .

ستـــار

(٣)

النظم

في الفترة الحالمة من العمر ، فترة المراهقة ، يحاول الشباب التعبير عن مشاعرهم الجياشة بشعر فياض . ويسقطون على ما يقولون قدراً من اعجابهم غير المحدود بذواتهم فيقرأونه على من يستطيعون حمله على سماعه . ويدخرونه دليلاً مبكراً على مواهبهم المبكرة . وينقضي هذا بانقضاء زمانه الا ما قاله ذوو المواهب الكامنة . اولئك تكون قصائد المراهقة في حياتهم طلائع حياة شعرية خصيبة .

ولقد كنت من الأولين ولم أكن من الآخرين . فشعرت ونظمت واعجبت بما قلت ثم تجاوزت الفترة الحالمة وتركت فيها كل ما شعرت ونظمت وقلت . ودسته الايام في كهف النسيان الذي لا مخرج منه . وادركت بعد من أمري ما لا اماري فيه . لست أملك من مواهب الشعراء الا قدراً من الخيال ان كان الخيال مقصوراً على الشعراء . وهو غير مقصور . أما المقدرة على التعبير بتلك اللغة الجميلة الخلاقة المخلوقة فلا نصيب لي منها .

ومع هذا ،

ففي لحظات لا اعرف كيف كانت كتبت « رسالة الى زوجتي » .

كتبتها دفعة واحدة كما لو كان ثمة من يمليها وانا اكتب . وفي لحظات أخرى عشت عقلاً ووجداناً مع طلاب الجامعات وهم يقتحمون حاجز الخوف فيجتازون اسوار السجون فيملأون الزنازين شباباً وشعراً والحاناً . وكأن موجتهم الدافقة قد حملتني الى ايام الشباب . فكتبت « حكاية شباب » . كتبتها دفعة واحدة كما لو كان ثمة من يمليها وانا أكتب . ونسبتها – اتفاقاً – الى استاذ هذا اللون من الشعر ، جاري في السجن ، الشاعر أحمد فؤاد نجم . فغناها الشباب الذين يغنون شعره الشعبي العبقري ...

ثم توهمت المقدرة فحاولت مرة ثم مرات عدّة ان أضيف اليها شيئاً فلم استطع . وبدأت الأغنية الثالثة افتعالاً ولم تكمل قط . كيف كتبت بدون محاولة فلما حاولت لم اكتب ؟. لست أدري . إنها عبقرية الزنزانة التي املت عليّ ما أملت ثم كفت حين شاءت .

ولكن هل هو شعر ؟

لست ادري أيضاً . فلم اسمه شعراً . أسميته ما اعرف منه . انه نظم . وتركت لمن يعرف ان يسميه اسمه . فإن كان شعراً فهي ومضة من مصباح خفي كانت ثم بانت . وإن لم يكن شعراً فهو اولى بالذي يقرأ الشعر ويطرب له ولكنه لا يعرف كيف يخلق ذلك الفن الخلاق حتى لو عرف كيف ينظم الكلام نظماً .

ولأمر لا يخفى على الذين ما يزالون يعيشون قو امتهم العربية ، لا أقدم الى القاريء الا « حكاية شباب » .. نموذجاً كافياً للتدليل على ما اريد ان اقول . أما « رسالة الى زوجتي » .. فقد كانت رسالة الى زوجتي .

حكاية شباب

١ يا عم حمزة كنّا تلامذة أيام زمان وزمان دا راح
النار في سينا حرقت أيدينا قبل الأوان دقنا الجراح
٢ جراح اليمة يوم الهزيمة شقت قلوبنا حطّت وشالت
حطت رجولة بدل الطفولة كتبت كتابنا على نجمة غابت
٣ نجمة بلدنا اللي ولدنا على ضي نورها نحلم ونلعب
أحلام شباب مع الكتاب تستنى دورها تبنى وتتعب
٤ تبنى خميلة لكل عيله شجرها يطرح سلام وحب
سلام وغنوة وعيشة حلوه في كل مطرح لكل قلب
٥ وفي كل يوم كنا نعوم في بحور خيالنا أحلامنا تكبر
أحلام روائع والنجم ساطع وخيوط أملنا شعاع منور

٦ وفي يوم صحينا لقينا سينا مليانة نار لهب ورعد
لهب لمسنا وشم نفوسنا يلفظ « عار اليوم وغد »
٧ اليوم مغامرة والا مؤامرة والا فساد فين الجواب ؟
فين الوعود فين الجنود فين العتاد هاتوا لحساب

٨ هاتو الدفاتر　　مخفي وظاهر
نكشف ونضرب　　اللي تسبب
٩ جيشنا اللي راح　　فوق البطاح
أمر القيادة　　والغدر عادة
١٠ تسرى تخش　　في كل كرش
غيره بيزرع　　غيره بيصنع
١١ سرير كبير　　مكسى حرير
ما نام وقام　　وشد الحزام
١٢ كلام بينبض　　على فرخ أبيض
خطاب خطر　　داكان أمر
١٣ ضباب وصيف ؟　　دا أصله ضيف
شادد رحاله　　ومعاه عياله

١٤ لولا الهنود　　ما طلعم أسود
كان علمي قدر　　وايماني قرر
١٥ لولا الصديق　　ما كان دقيق
أيده اللي كانت　　حديد ولانت

من شهر يوليو　　نفحص كشوفنا
في خمسة يونيو　　وغدر بجيشنا
تحت النابالم　　بالأمر يجري
لها ألف اسم　　وعدوى تسرى
شبع زياده　　من كد غيره
وصاحب السيادة　　على سريره
ما شافه حد　　ولا في المنام
ووقف بجد　　يبيع كلام
اسمع يا شعب　　فصل الخطاب
يدخل في حرب　　لولا الضباب
كان حاله حال　　شدة وضيق
رايح شمال　　تاه في الطريق

آخر نوفمبر　　ولا عندي علم
أول ديسمبر　　احسمها حسم
في حساب مصالحه　　وكش ايده
وأنا باصافحه　　وأبوس خدوده

١٦ لـولا أميركـا ولـولا تركه خصـام وطيش ما كان له لازمة
لا الازمة تحلت والفرحـة هلت وأكلنـا عيش وأخدنـا رزمة
١٧ لـولا اليسـار مـا كان يسار لـولا اليمـين ما كان يمينـا
لـولا الـوسط مـا كان وسط كان من زمـان حررت سينـا
١٨ لـولا ولـولا لانـه دي غـير لولا ديه ان كنت تفهم
اذ ان لـولا تلك اللي فاتت غـير اللي جايه والله أعلـم

١٩ وفاتـت سنـين وحـل وطـين وجيلنـا صابـر عـلى الكبـار
خـلاص جهزنا اللـي عاوزنا نعدي حاضـر خدنـا القـرار
٢٠ قرارنـا حازم الحـرب لازم أبـدا مـا نرجع استنـو بكره
كـلام خطـير يروح في بير لاحـد يسمـع ولا حـد يدري
٢١ مسرح وزفـه في امـه واقفـه وسط الظـلام على جمر نـار
والا رزقيـة الفهلويـة نازلـين كلام ورا الستـار
٢٢ جـات الاشارة رفعو الستـارة قمنـا نبـص : « شلة عوالـم »
نيكسون يزمـر تقـوم تشمر وهـات يا رقص عـلى السلالـم

٢٣ بصينـا فـوق بكـل شوق شفنـا شهيـد طويـل وأسمر

راكب سحابه فيها كتابه بقلم حديد ودم أحمر

٢٤ أحمر حريق سد الطريق على كل هارب من القتال
أمر شبابنا نسيب كتابنا ونروح نحارب شرق القنال

٢٥ آدي الحكاية من البداية يا عم حمزة وسبب القطيعة
إحنا رجال عايزين قتال محناش تلامذة احنا طليعة

(٤)

الرسم

هذا ميدان لي فيه باع قصير .

بعد أن رصصت ابنائي صوراً على جدار الزنزانه، كان لا بد لي من أن أرسم حتى استهلك تماماً قلم الفحم الذي حصلت عليه في سجن القناطر العامر . فرسمت زنزانتي كما رأيتها من مواضع ثلاثة . ورسمت نفسي كما كنت فيها . ثم رسمت الوجوه التي طاب لي رسمها رمزاً لمعان كنت اريد أن أعبر عنها . ويذكرني هذا النشاط الممتع بطرائف كانت في ظروفها ممتعة ..

اولاها عن الشيخ عبد الوهاب ...

إن الشيخ عبد الوهاب شخصية فذه . عجوز ضرير بالغ الشراسة نزيل قسم « الجوازات » من سجن القناطر . ويضم قسم « الجوازات » أولئك الذين يجتازون الحدود الى مصر بدون إذن . والشيخ عبد الوهاب لا يملك أوراقاً من أي نوع . لا هوية ولا جواز سفر . ولكنه يملك خبرته الطويلة بالحياة (١١٢ سنه) وذكاءه الخارق . وهو يعرف — ربما من خبرة سابقة — ان قسم « الجوازات » في السجن ليس سجناً بل محل إقامة يحتجز فيه الذين لا يعرف أحد من هم أو من اين جاءوا الى ان تعرف اشخاصهم وبلادهم فيحملون

الى حيث يجب ان يكونوا . فإليه والى غيره تقدم مصلحة السجون المنزل والرعاية الطبيه بدون مقابل – وتقدم مصلحة « الجوازات والجنسية » مأكلاً فاخراً في السجن مستجلباً من مطاعم القاهرة وشايا وسجائر ... وما على أي متشرد في القاهرة يريد ان يتمتع بتلك الاقامة الا ان يزعم – حين يقبض عليه – انه ينتمي الى إحدى الدول الاجنبية حضر سائحاً وفقد أوراقه وماله . فإن كان في مثل ذكاء الشيخ عبد الوهاب وخبرته فسيقول انه ينتمي الى دولة عربية . ويختارها بعيدة . المغرب مثلاً . كذلك فعل الشيخ عبد الوهاب . حينئذ – يحمل الى قسم الجوازات ليعيش بدون قيود ومع قدر كبير من الرعاية رعاية لعلاقات الأخوة بين الدول العربية . وعلى مصلحة الجوازات ان تكفل له حياة رغده نسبياً الى أن تسأل دولة المغرب عما اذا كان الشيخ عبد الوهاب من رعاياها . وما اذا كانت مستعدة لدفع نفقات اعادته اليها .

ودولة المغرب لا تعرف عبد الوهاب . ولو عرفته لأنكرته . ولو عرفته ولم تنكره لما قبلت أن يعود اليها . أما اذا أصر على العودة فعلية ان يدفع من عنده نفقات العودة . وليس عند الشيخ عبد الوهاب شيء . فتتبادل الدولتان رسائل عديدة بينما يعيش الشيخ عبد الوهاب حياته المريحة ...

ولم تكن الحياة مريحة دائماً . ان سلاطة لسانه وعماه كليهما يغريان به كثيراً من نزلاء السجن فيعبثون به ويعابثونه . ويدفع الشيخ عبد الوهاب عبث المسجونين بما يقدر عليه من صياح وشتائم وضرب اهوج في الهواء بعصاه الغليظة لعله أن يصيب أحداً .

ضاق بالعبث يوماً فإذ بالشيخ عبد الوهاب ينسى حرصه ويرد على العابثين مكرراً لفظ : « طْعَوْ »

طعو ؟؟ ! !

هذه كلمة تقال رداً على عواء الكلاب . وتقال في تلك المنطقة الوسطى

من صعيد مصر حيث نشأت . وينطقها عبد الوهاب كما كنا ننطقها ونحن صغار . وكيف عرفها عبد الوهاب ؟

في فترة هدوء سمع الشيخ عبد الوهاب من يفاجئه قائلاً :— يا شيخ عبد الوهاب ، لماذا تقول انك من المغرب وانت بلدينا . اني أعرف انك من أسيوط .

كان قولاً هادئاً حاسماً لم يسمح لذكاء الشيخ عبد الوهاب بالمراوغة وسقطت فوراً لهجته المغربية وعاد الى الحديث بلهجتنا الصعيدية الجافة المحببة . وعلمت منه ما لم تعلم مصلحة الجوازات . ومن بين ما علمته أنه قضى عمره جائلاً ومقيماً في البلاد العربية وبعض البلاد الاوروبية وذهب الى حيث يقيم العرب في البرازيل . لم يتزوج قط ولم يعمل شيئاً الا لينتقل من مكان الى مكان . تلك هي هواية عمره . عرف خلالها شيئاً من بعض اللغات ، وعرف كل اللهجات العربية . ثم عرف ما هو اكثر فائدة له في شيخوخته : نظم كل السجون . ثم عرفت عنه ان ما يشاع عن غفلة أهل الصعيد مجرد دعابة غير ذكية يطلقها سكان القاهرة حيث توجد مصلحة الجوازات ومصلحة السجون بكل ضباطها ومباحثها ومخبريها ..

وكان طبيعياً أن أعبر عن إعجابي بواحد من بلدياتي فرسمته .

* * *

الثانية :

« الدين أفيون الشعوب » .

« لا توجد أية قوة ميتافيزيقية خارج الطبيعة » .

« المادة هي المحرك القائد للفكر ..... الخ » .

من يقول هذا ويردده ؟...

الشيوعيون . ويرتبون على هذا القول نتائج فكرية ومواقف سياسية

يواجهون من أجل الدفاع عنها مخاطر السجون . وهكذا دخل أحدهم السجن تنفيذاً لحكم جسيم .

وتقابلنا فتذاكرنا أياماً قضيناها معاً في كلية الحقوق . وتولى – بحكم خبرته السابقة – تعريفي بالسجين ونزلائه . وقدمني الى الشيخ علي . والشيخ علي ضرير يحترف النبوه . ضرير يتنبأ بأقدار المسجونين . يثبت مفتاحاً عند فاتحة سورة « النور » من المصحف . ويحمل المصحف معلقاً على طرفي اصبعيه عند قبضة المفتاح بدون أن يقبض عليه حتى يبقى المصحف متأرجحاً . ويتلو كلاماً غير ذي معنى . ثم يأمر احدى الارواح بالحضور . فتحضر . وتكون علامة حضورها أن يميل المصحف نحو اليمين . ويسأل المصحف اسئلة تهم « الزبون »، بعد ان يكون الزبون قد قدم ما يهم الشيخ علي بغير سؤال ، شاياً وسجائر . والاسئلة لا تحتمل الا جواباً واحداً من اثنين . نعم أو لا . ولما كان المصحف من ورق والورق لا ينطق فعلى الروح التابعة هناك ان تجيب بالاشارة . ان لف المصحف نحو اليمين فهي « نعم » وان مال الى اليسار فهي « لا » . فان ثبت لا يلف ولا يدور فالروح لا تريد ان تجيب .

استعرض الشيخ علي مهاراته امامنا ، وبشرني بالبراءة من غير محاكمة . ثم انصرفنا لنناقش معاً ظاهرة النزوع الميتافيزيقي كمنهج للمعرفة في المجتمعات المتخلفة . وسمعت من صاحبي اضخم الكلمات التي صاغها الماركسيون في ادانة الميتافيزيقا ...

ثم اختفى اياماً قابعاً في زنزانته . وكان لا بد لي من ان اكتشف علة احتجابه اشفاقاً عليه من أن يكون عليلاً ..

كان هناك . الشيوعي والمصحف وكراسة وقلم في مناخ بالغ الجدية . فماذا كان يفعل صاحبنا أيام احتجابه ..؟

صنع اداة تحضير الارواح كما تعلمها من الشيخ علي . وغلق على نفسه باب الزنزانه اياماً يستدعي روحاً بعد روح حتى استدعى رئيس مملكة الارواح ذاته .

وعرف منه نظام ملكه دستورياً وقانونياً واقتصادياً واجتماعياً وانعقدت بينهما صداقة وطيدة سمحت لصاحبي بأن يطلب من صاحبه روحاً خاصة لخدمته . فجاءته الروح من عند سيدها تقف عند باب الزنزانه ، يناديها ويصرفها ويكلفها حمل رسائل مطوله منه واليه . والالفة ترفع الكلفة حتى بين الناس والارواح . فقد استدرج صاحبي الروح الحارسة ليعرف تفاصيل شيقة ومذهلة عن الحياة الخاصة بالارواح ، وأهمها ـ بالنسبة لأي مسجون ـ تفاصيل الحياة الجنسية كما تمارسها الارواح . لو كتب صاحبنا في كراسته كل ما عرف بلغة عربية يمكن لأي متلصص ان يقرأها . فرأى ان يتعلم لغة الارواح ذاتها . يقرأها ويكتب بها . وبدأ في التعلم من روح معلمه . كتب اولاً الحروف الابجدية فاذ هي الحروف العربيـــة . وانتقل الى الكلمات . يذكر حروف الهجاء العربية حسب ترتيبها المعروف ويجمع الحروف التي يميل المصحف عند ذكرها نحو اليمين فتكون كلمة . كلمة غريبة هي المقابل الروحي للكلمة العربية التي يسأل عنها . وتكاثرت المفردات الروحية فأخذ يفرزها ويرتبها في مشروع قاموس عربي ـ روحي .... الخ .

رأيت كل هذا وعرفت منه قصته وهو يكاد يجن فرحاً باكتشافه العظيم الذي لم يسبقه اليه أحد . لم اجادله ـ لم يكن ألمي من اجله ليسمح لي بأن اجادل . ان الامر قد تجاوز حدود العقل فلا مبرر للحوار . ـ وينبغي ـ بعد ـ الانتظار الى ان تنحسر الموجة التي رفعته عن أرض الواقع . ولم يطل الامر . فقد انقطع عن تجربته أو اخفاها عندما قدم مسجون منقول من سجن بني سويف . انه الامين العام للحزب الماركسي اللينيني الذي كان صاحبنا قد انشأه أو اتهم بانشائه . ويقضي الامين العام عقوبة جسيمة اخرى . وعندما حضر الى قائده كف القائد عن محاولته الميتافيزيقية او اخفاها ..

فلم املك الا أن أسجل له رسماً .

قال سياسي آخر مسجون منذ خمس عشرة سنة ، كخلاصة لتجربته

الطويلة ، ان مأساة المسجونين السياسين انهم لا يعملون . يعني أنه غير مأذون لهم بأشغال انفسهم في أي من أوجه النشاط المتاحة في السجن لغيرهم . وفي السجن ألوان شتى من النشاط الصناعي والزراعي والفني . فلا يكون امامهم الا قطع الوقت بالتذكر أو القراءة أو التأمل . تلك مراحل ثلاث .

في المرحلة الاولى يتذكر كثيراً ويقرأ قليلاً ولا يتأمل الا نادراً . يكون مشغولاً باسترجاع الاحداث القريبة . المحاكمة ، الدفاع ، الاتهام ، القبض عليه ، الزملاء ، من قال ومن لم يقل ، الاسرة ... الخ . انه نوع من النزوع النفسي للبقاء خارج السجن . وتتسع دائرة تذكره حتى تشمل حياته كلها . وقد يميل في هذه المرحلة الى كتابة شيء عن تاريخ حياته . وما يزال يتذكر ويجتر ذكرياته مرة ومرات ... آلاف المرات حتى تصبح احداث حياته غير قابلة لمزيد من التذكر . تبهت على مدى الزمان صور الاشياء والاشخاص والعلاقات والقيم . كالصورة تتداولها الايدي تباعاً حتى تبهت وتبلى وتضيع معالمها . انه نوع فريد ورهيب من النسيان . نتذكر الشيء وننسى اهميته فلا يهمنا أن نتذكره مرة أخرى .

وتبدأ المرحلة الثانية ، مرحلة القراءة ، في الاستحواذ على مزيد من انتباه ووقت المسجون السياسي كلما بهتت صورة الماضي في ذاكرته . ثم تصبح القراءة همه الاول . فيقرأ أولاً دارساً . وقد ينقد أو يلخص ما يقرأ . ويحاول أن يجعل من قراءته نموا ثقافياً مخططاً . وفي كل خطوة يخطوها على صفحات الكتب تتراءى له مجموعة من الاسئلة . تقتحم عليه خلوته متفرقه ومن آن الى آن . ثم تلح على انتباهه حتى تشغله عن القراءة :

لماذا اقرأ ؟.. لازداد معرفة . ولماذا استزيد من المعرفة ؟ ولأكون أقدر على مواجهة مشكلات الحياة . ولكن رتابة الايام في السجن تجعل الحياة محدودة الشكل محدودة المضمون متكررة بحيث تصبح العادة كافية لمواجهة مشكلاتها النمطية التي لا تتغير . في السجن لا شيء جديد وليس من المتوقع أن تجد تجربة

غير مسبوقة – وبالتالي فان الشعور بالحاجة الى المعرفة ومزيد من المعرفه معدوم . وتبدو القراءة مملة وعقيمة الا أن تكون للتسلية . فتتحول القراءة من دراسة الى مجرد قراءة لأي شيء مكتوب . ويجنح العقل المجهد الى ما لا يجهده ، فتصبح الكتابات التافهة هي الكتابات المفضلة . ثم يفقد كل شيء ، حتى التافه منه ، معناه فيكفون عن القراءة .

المرحلة الثالثه ، مرحلة مصاحبة لكل مسجون منذ البداية . انها مرحلة التأمل . أو مرحلة التصور . يعني بها صاحبنا – على أي حال – استغراق المسجون في احلام اليقظة – ولا بد للتأمل أو التصور أو احلام اليقظة من « مادة » يتأملها الانسان أو يتصورها أو يعيد تشكيلها على ما يتفق مع احلامه . ومع مرور السنين تنفذ المادة فلا يبقى للانسان ما يتأمله أو يحلم به.فيصبح العقل – هكذا قال محدثي – كالطاحونة الدائرة انقطعت عنها الحبوب ، فهي تدور وتدور ولكن تطحن رحاها . ومهما تكن الرحا صلبة فانها لا تلبث أن تتآكل وتخف . وما تزال تتآكل وتخف وصاحبها غير قادر على أن يوقف دورانها المدمر حتى .....

الذين يفطنون الى مخاطر المرحلة الثالثة يتشبثون بالمرحلة الثانية فيقرأون ويقرأون ويكتبون ما استطاعوا لا طلباً للمعرفة ولا رغبة في التعبير ولا للتسلية بل هروباً ارادياً من احلام اليقظة . أولئك ينقذون انفسهم . أما الآخرون فيصبحون نماذج « عقلية » غريبة . عندما يصب السجن في عقولهم مواده المتاحة يسلكون مسالك سوية . فتراهم في علاقاتهم بالسجن وادارته ونزلائه وفي معالجتهم لمشكلاتهم اليومية اشخاصاً كاملي الوعي . فإذا فرغت مادة السجن اصبحت عقولهم فارغه ... تدور وتجعجع ولا غلة هناك ولا طحين ...

فهل يلوم أحد شيوعياً قضى في السجن خمسة عشر عاماً ، وتنظره خمسة عشر عاماً أخرى ان اختلى بنفسه يستدعي الارواح فيتعلم لغتها ؟. لا . لا لوم يا صاحبي ولا جـــدال . وقد رسمتك إذ رسمتك لأقول رأيي فيك وفي غيرك :

ليس أجراماً أن يؤمن انسان بفكرة ، ولكن الاجرام حقاً ان يسجن الانسان من أجل فكرة .

. . .

الثالثه :

— هل يمكن أن اطلب من سيادتك امراً ولا تردني ..
— قل يا زكريا .
— ارجو أن ترسمني .
— أنه أمر بسيط . ولكن تأمل معي يا زكريا . ما الذي يحدث لو أن كل نزيل اعرفه أو يعرفني قد جاء مثلك يطلب أن ارسمه ؟ واذا لم اردك اليوم فكيف ارد غيرك غداً ؟
— ان حالتي خاصة . بعد اسبوع سيفرج عني . واريد رسمي بيدك تذكاراً منك . وهدية مقابل هدية ...
— وما هديتك المقابلة يا زكريا ..
— ان خالي عضو نشيط في الاتحاد الاشتراكي العربي . قال لي خلال زيارته الاخيرة ان لك كتاباً جديداً اسمه « نظرية الثورة العربية » لم ينشر إلا بعد ان شرفت سيادتك هنا . ولا شك في انك تريد ان تراه . وانا استطيع ان احضر اليك نسخة منه . يوم أن يأتي اهلي ليصحبوني معهم يحضرون الكتاب واسلمه اليك . ان قيود السجن يوم الافراج تكون غير محكمة مجاملة للخارج واهله ...
— طبعاً . طبعاً . يا زكريا .. سأرسمك هدية بهدية .. وقد كان .

اعني رسمته واعطيته صورته موقعة مني . واعطيته رسالة لمن يعطي أهله نسخة من كتابي ليحضروها معهم . وقد احضروها فعلاً . ولكنهم ظنوا انها مباحة فأظهروها فضبطت واصبح زكريا وأهله في ورطة حقيقية . ان ثبت ضبط الكتاب مع زكريا في « محضر » رسمي لن يخرج زكريا الى ان ينتهي التحقيق في جرائمه الجديدة . حيازة كتاب غير مأذون بتداوله . شروعه في

تهريب ممنوعات الى داخل السجن ... وزكريا انسان دمث الخلق محبوب : وقد كان — بعد — مخصصاً لخدمة مأمور السجن نفسه . فالاولى أن يغض البصر عما فعل زكريا : ولكن كيف يمكن أن يغض البصر . وعيون كثيرة رأت الكتاب .. وأسوأ ما في الامر إن من بينها عيون مخبري مصلحة السجون . اولئك الذين يخشاهم الضباط ، خشية المسؤولية . ادارة السجن هي التي اصبحت في ورطة حقيقية .

وانتهت الورطتان بأن خرج زكريا كأنه لم يدخل كتاباً ممنوعاً ، وبقي الكتاب في مكتب احد الضباط كأنه لم يدخل .

هو هناك في مكتب الضابط ...

لا بد من الحصول عليه لنقرأه بعد ان ننتهي من قراءة كتاب « زاد الميعاد » للعالم العلامة ابن القيم — ولم يلبث ان جاء من حل محل زكريا في خدمة مكاتب الادارة . جاء يعرض الكتاب مقابل علبتين من السجائر « كليو باترة » . وتمت الصفقة . ولم يلبث ان تبادل كتاب « نظرية الثورة العربية » وكتاب « زاد الميعاد » غلافيهما . وكنت ان تفتح « زاد الميعاد » في ثوبه الجديد الاسود الانيق ، الذي يحمل عنوانه المستعار « نظرية الثورة العربية » .. قد تقرأ : .. قال استاذنا الامام الاكبر ابن تيمية ان الطلاق لا يصح في فترة الطمث ولا يصح في فترة الطهر إلا ان يكون الزوج قد اجتنب زوجته منذ طهرها ، لتحسب القرؤ الثلاثة ابتداء من طهر كامل ... الى آخر تلك الاجتهادات العبقرية التي كاد الامام ابن تيمية ان يشعل بها ثورة فكرية لولا ان القى به في سجن القلعة ..

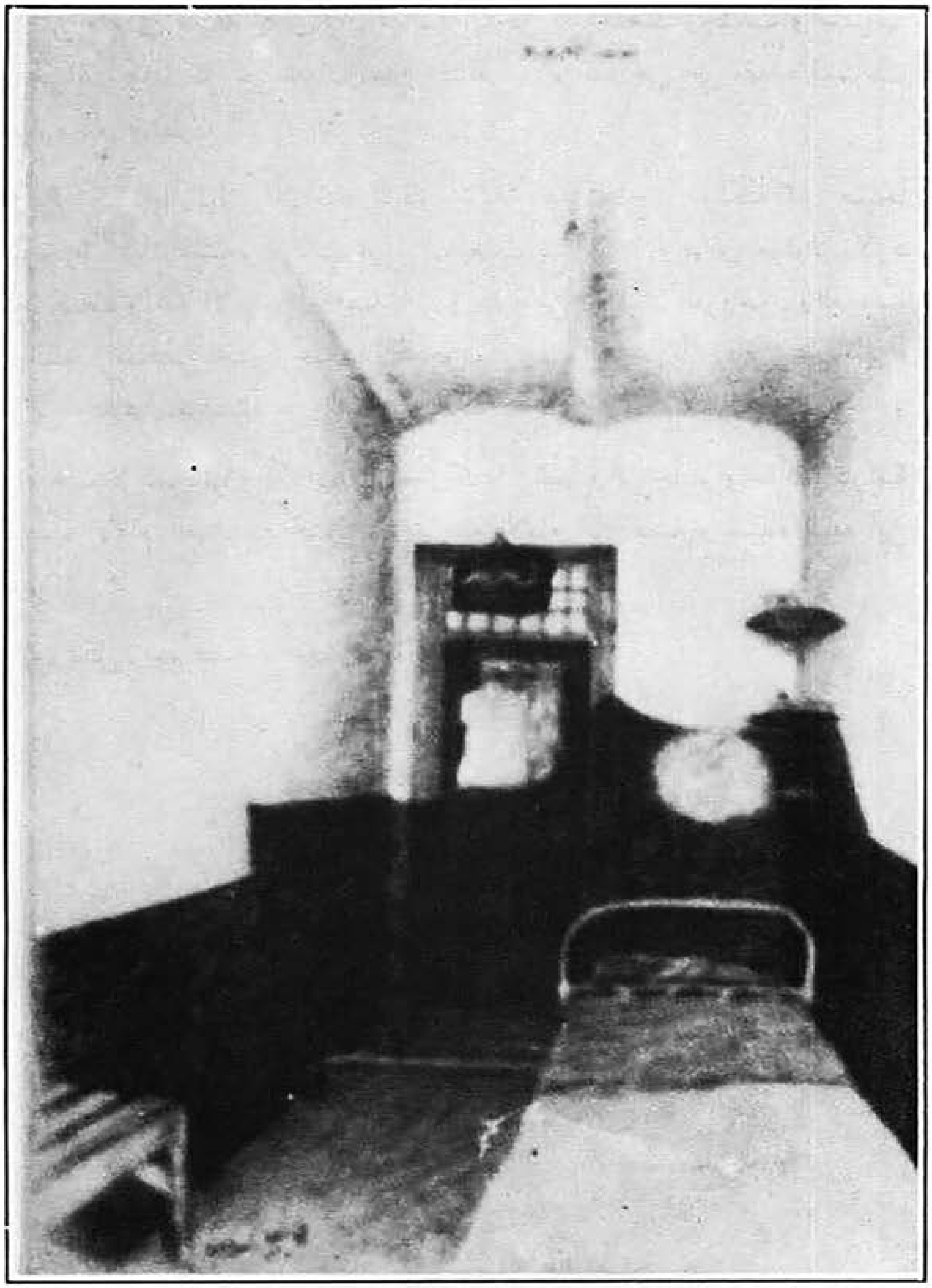
على أي حال فان فرحتنا بكتاب « نظرية الثورة العربية » لم تتم . فقد تبين أن واحداً من ضباط السجن من هواة الادب السياسي وأنه كان مشغولاً بقراءة كتابنا هذا حينما يكون مكلفاً بالمبيت في السجن ومسؤولاً عن امنه ليلة كاملة. وقد جاء دوره ليكون مسؤولاً في الليلة التالية لحصولنا على الكتاب خلسة. واتصوره وقد فرغ من حشر المسجونين في منازلهم الضيقة وتأكد من ان كل

حارس قائم في مكانه المعين وان مفاتيح السجن قد جمعت وختمت واستقرت في خزانتها وان كل شيء هادىء في القناطر ، ثم استرخى على مقعده ليستأنف حواره مع « نظرية الثورة العربية » ....

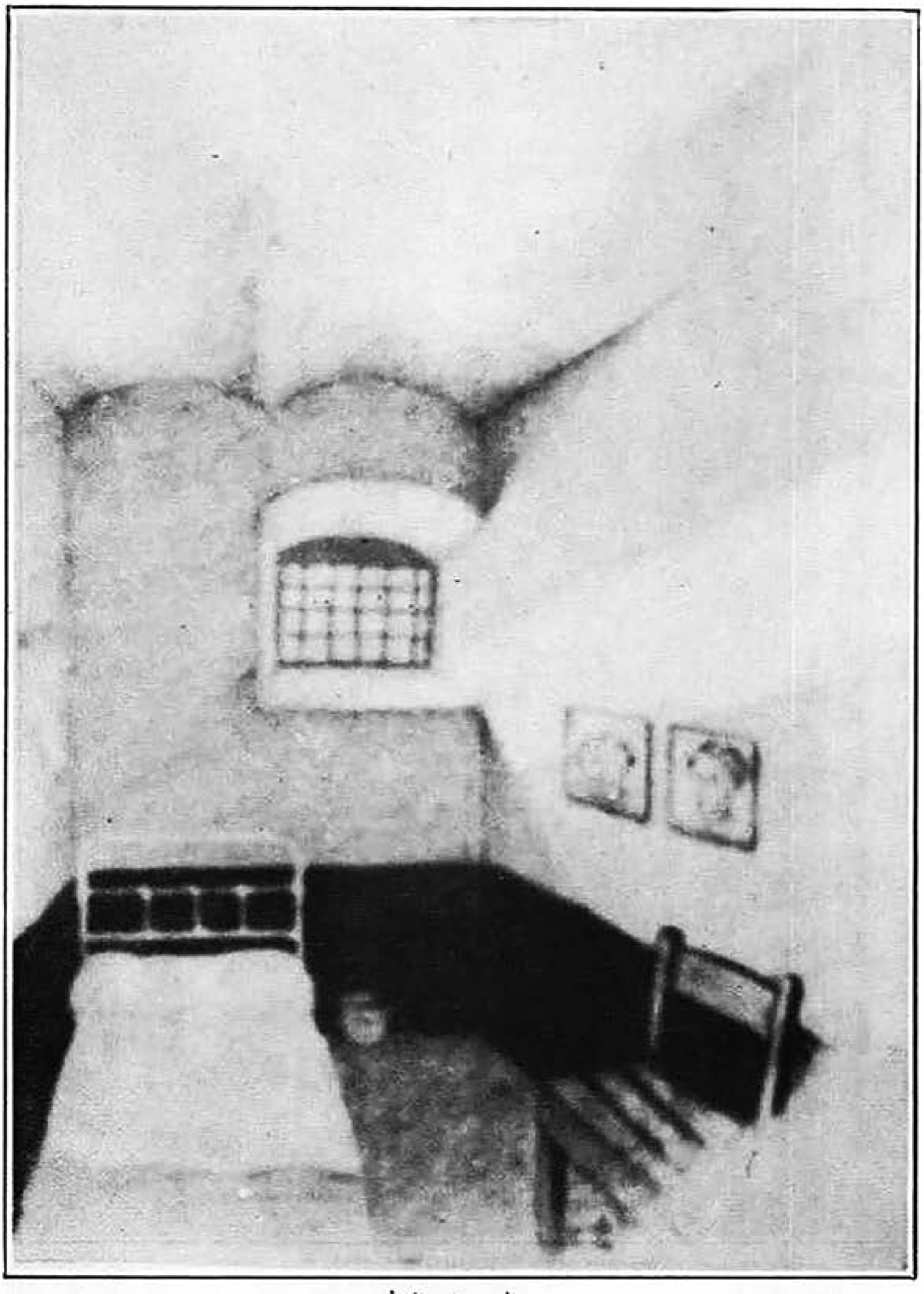
لم تكن ليلة ليلاء فإن فتح الزنازين ليلاً غير مباح .. ولكنه كان صبحاً أسود على ذلك المسجون الذي اراد ان يعبث بسجانه . وجاءني مولولاً لأرد اليه الكتاب واعيد الامور الى نصابها .. وأعفيه من احتضان العروسة . والعروسة في السجن شخص خشبي يحتضنه المسجون ثم يشد اليه عارياً ليتلقى على ظهره سوط الجلاد . فأعفيناه من العروسة بالكتاب .

خسرنا السجائر والكتاب وربح زكريا رسماً وافراجاً ، واستأنفنا دراسة مذهب الامام أحمد بن حنبل كما يعرضه الامام ابن تيمية وتلميذه النابه ابن القيم ..

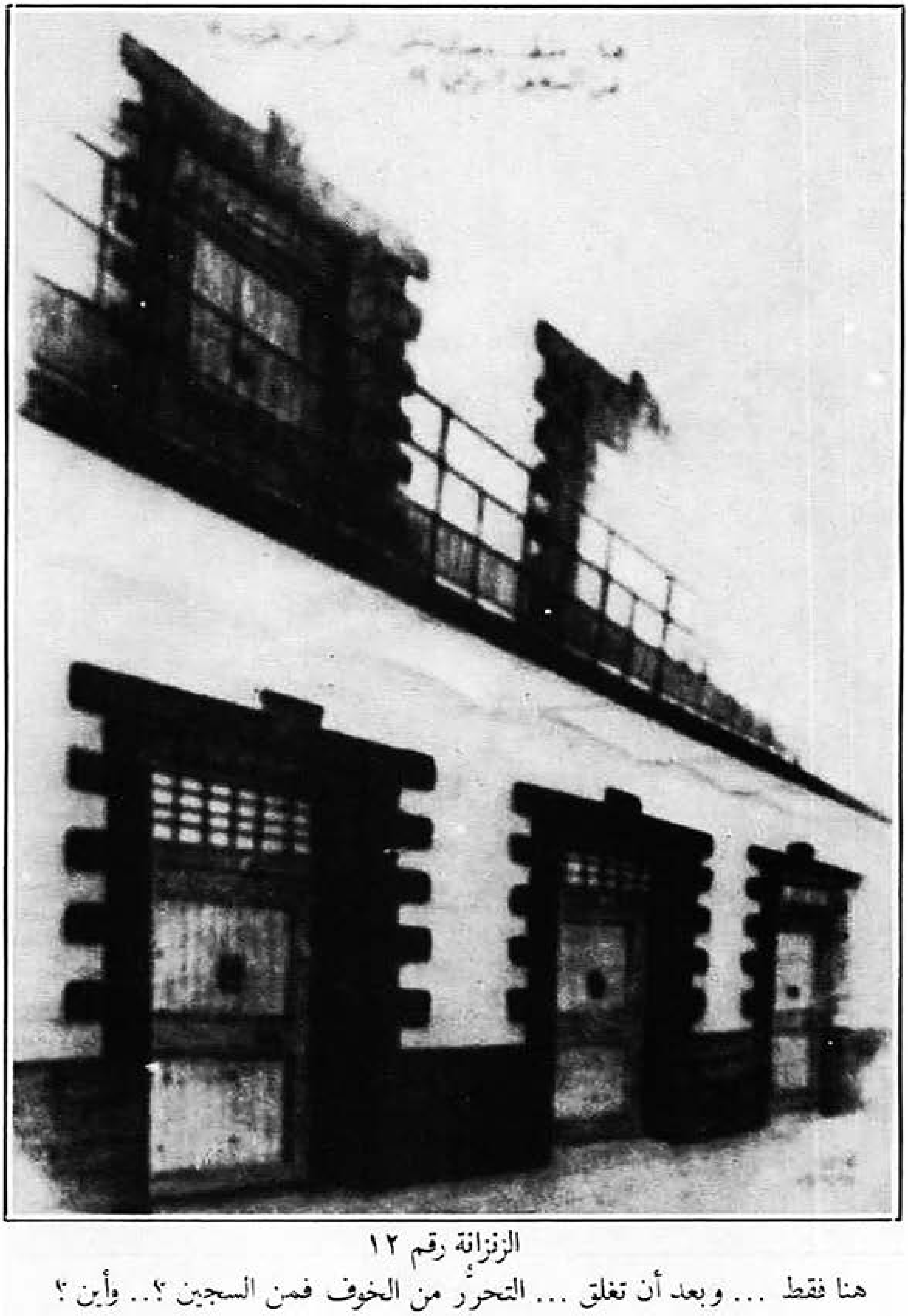
ولكل رسم قصة ، غير أن ما سبق يكفي .



نصف الحقيقة ...



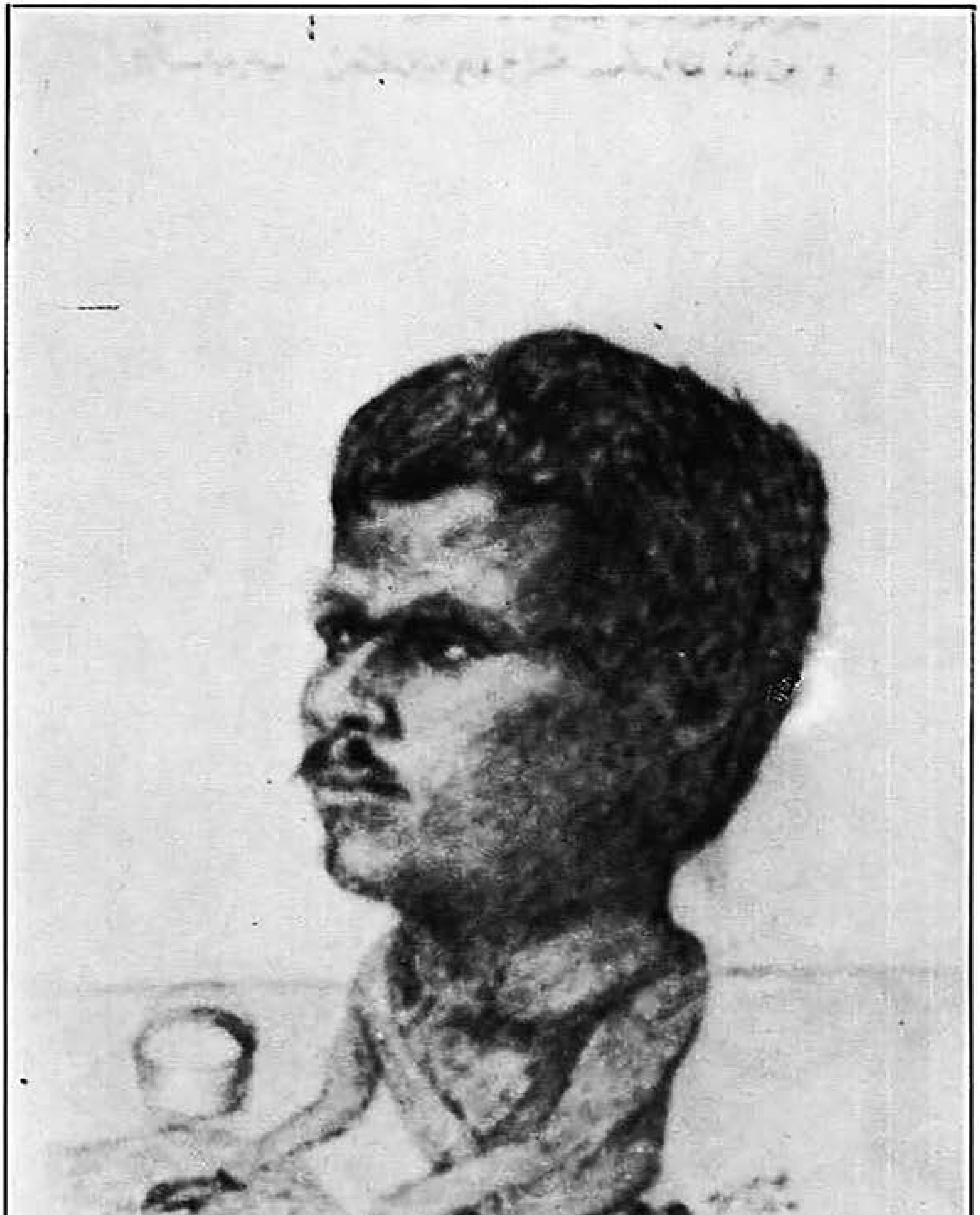
... والنصف الثاني



الزنزانة رقم ١٢
هنا فقط ... وبعد أن تغلق ... التحرر من الخوف فمن السجين ؟.. وأين ؟



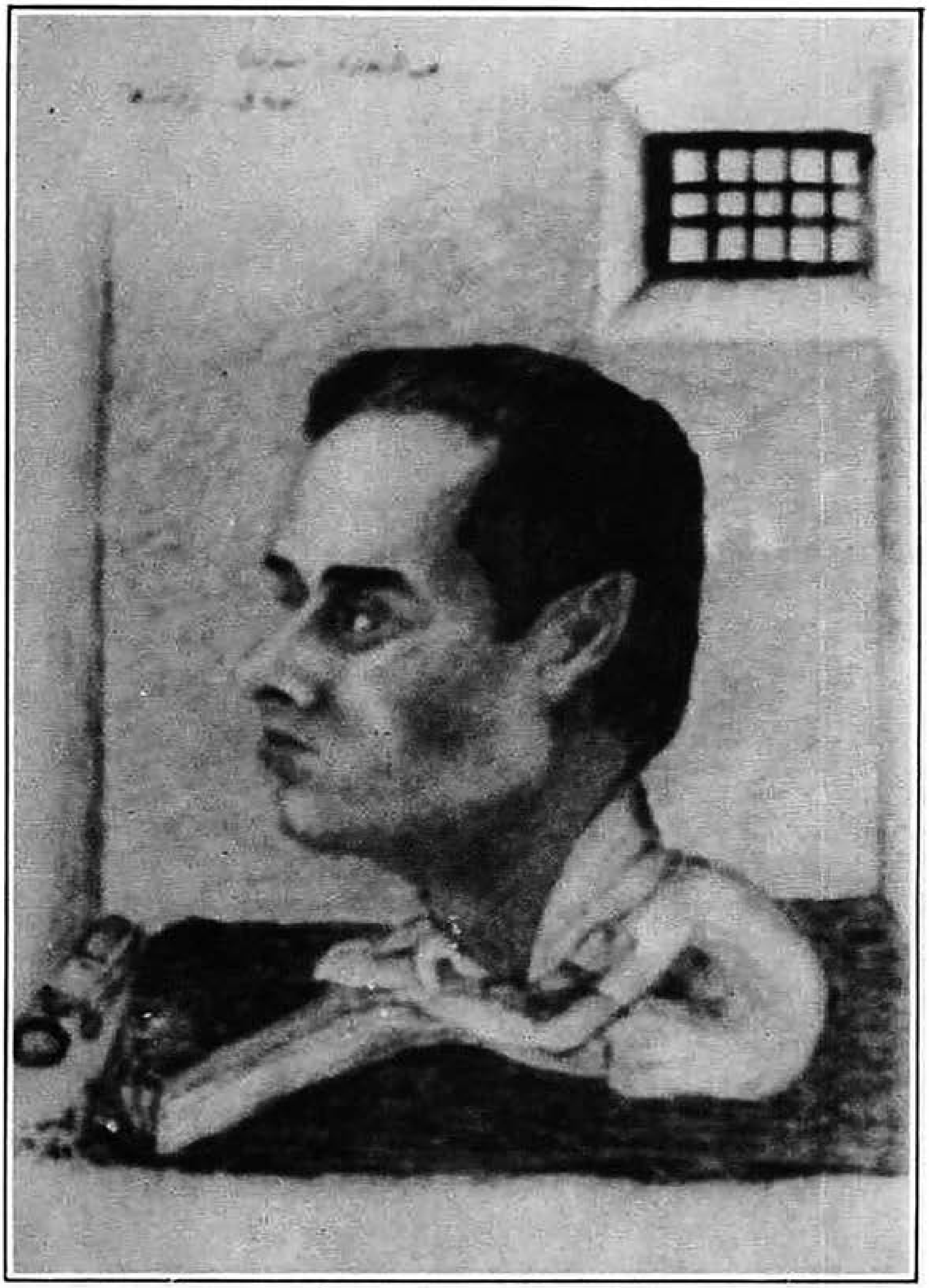
المسجون رقم ٣٦١٤٣ ... لماذا ؟



عباس النوباشي (فرّاش) يمسح بلاط السجن
و .. من جُنِّد فقاتل فأُصيب فسُرِّح فجاع فسرق فسُجِن .. صار عباساً



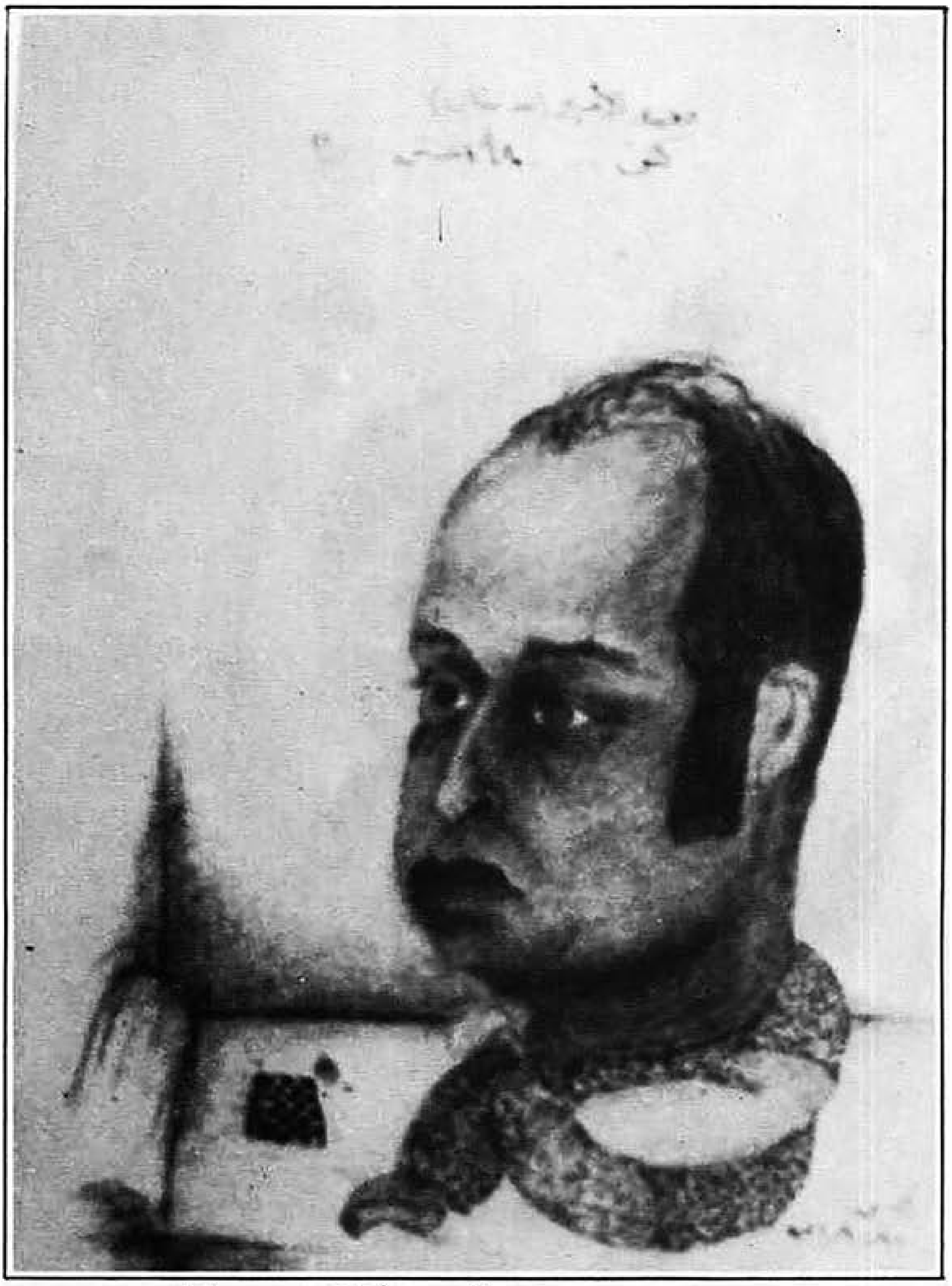
عبد الموجود ... السجّان ... الغلبان .. الجوعان .. المرضان : ينوء بحمله



محمد السخاوي (١٠ سنوات) ثورة في زنزانة ! !



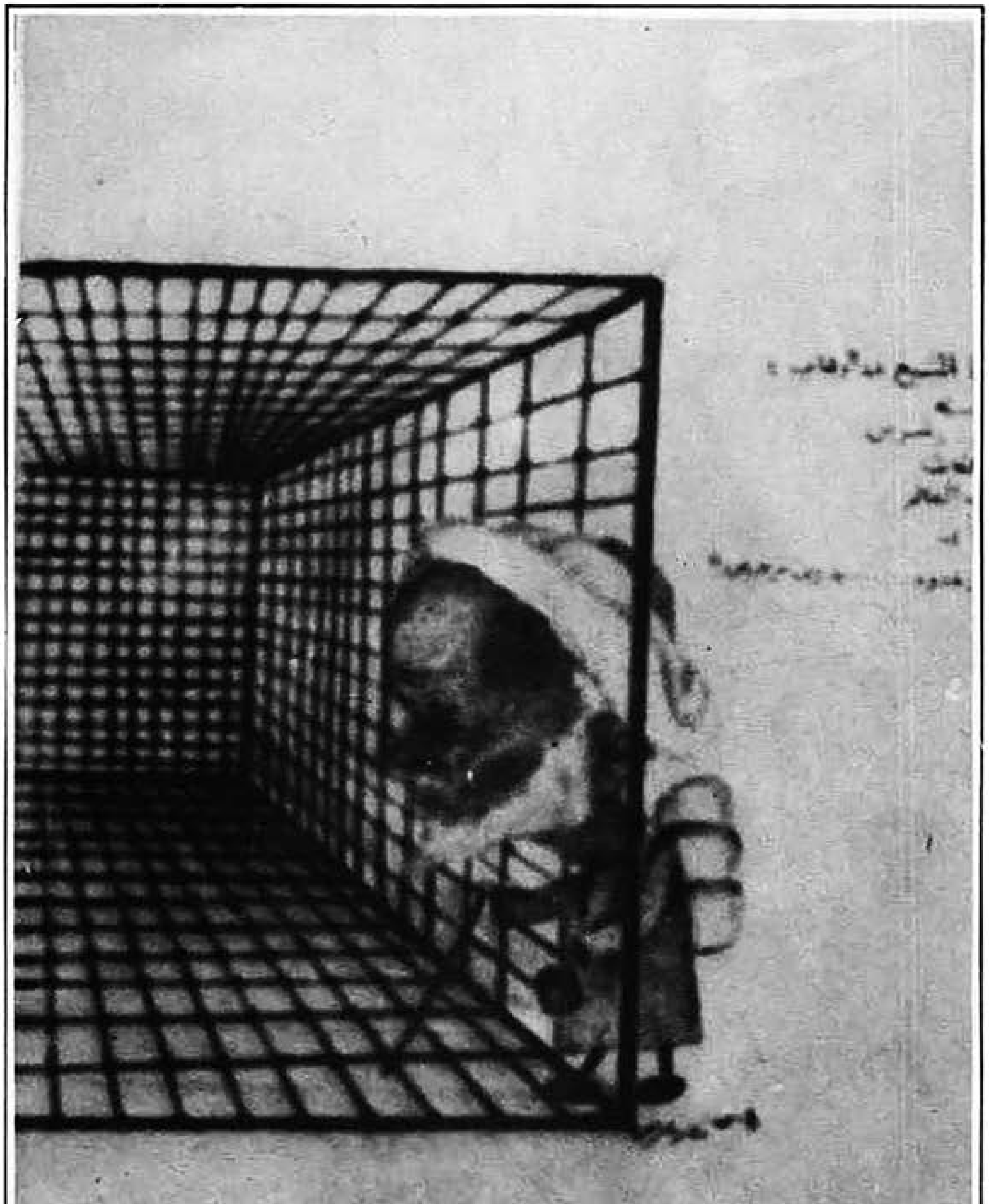
... « ولد » بحروق ... فمن اللاعب ؟



محمدِ الأمير (سنتان) كِشْ ... ما أنا كاشش ...!!



... آخر طريق الشقاوة سنتان
يسبّح بحمد الله ... أم يلعن أبا ... على السبحة الكريستال



الشيخ عبد الوهاب ... اجتاز الحدود بدون ترخيص



شيوعي يحضِّر الأرواح

(٥)

اليمك

« يمك » بفتح الياء والميم اسم لطعام . انها وجبة متميزة لا امتياز فيها تقدم الى المسجونين اكثر من مرة كل اسبوع . لا لون لها ولا رائحة ولا طعم لكنها ليست ماء . نريد أن نقول انها تتغير لوناً ورائحه وطعماً في كل مرة . ذلك لأنها طبخة من خليط كثيف العدد من اعشاب شتى . وكأن الطباخين في السجن يجمعون حصيلة ما جمعه الكناسون من عشب ويحشرونه في القدور يغلي ويغلي تاركين للصدفة وحدها ان تحدد في النهاية لونه ورائحته وطعمه . هذا مثل ضربته لأعبر عن عدم معرفتي كيف يتأتى لهم الحصول على كل هذه الاعشاب المختلفة وكيف يصنعون منها غذاء يسميه المسجونون « يمك » .

سألت مسجوناً ظريفاً يعمل في مكتبة السجن : ما معنى يمك ؟

قال : انه اسم مكون من الحروف الأولى لكلمات جملة انجليزية هي : your Awful Meal وترجمتها « وجبتك الفظيعة » .

قلت : ان تلك الجملة لا تقدم لنا الا حروفاً ثلاثة تصلح ان تكون « يم » فمن أين جاءت الكاف لتكون « يمك » .

قال : ان كل السجون القائمة في مصر انشأها الانجليز في العقد الاخير من

القرن الماضي . وكان حراسها من الانجليز . يتكلمون الانجليزيه ويستعملون بعض الالفاظ العربية عندما يخاطبون المسجونين . فكان الحارس يقدم الوجبة الفظيعة لكل مسجون قائـلاً بالانجليزيه : Your Awful Meal ثم يأمره بالعربية : « كل » . فأخذت الكاف من الامر بالاكل واصبح الاسم « يمك » .

انها اقصوصة تبدو ملفقة .

ومع ذلك فاليمك اسم صادق الدلالة على كل خليط من اشياء شتى كالاعشاب التي تجتمع اعتباطاً في الوجبة الفظيعة . من اجل هذا اخترته عنواناً لهذا القسم من ثمار النشاط اليدوي الذي كان يلفق شيئاً ما من كل مواد قابلة للتلفيق ولا يعني مجرد عناية باختيار مواده ليصنع شيئاً معيناً . ولقد كنت كتلك الطيور التي تجمع في اعشاشها كل ما تلتقطه . وعرف رفاق السجن عني هذا فأصبح من الطرائف المتكرره ان يحمل إليّ بعضهم ما يجدونه من اشياء لا يعرفون لها فائدة خاصة ، قطع من الخشب او الحديد او الزجاج او النسيج ... « ربما يكون الدكتور في حاجة اليها » . واصبح قسم من الزنزانه الضيقة مكاناً لغريب النفايات . ولقد كان ذاك الخليط المتزايد من الاشياء الغريبة يزيد خيالي توهجاً كلما ازداد عدداً وغرابة . وجاءت فترة كنت فرحاً به فرحة الاطفال بلعبهم المزوقة . اتأمله جملة ، وأتأمله قطعة قطعة واتخيل ما يمكن ان الفقه منه واعيد تلفيقه كأني فعلت شيئاً .

لم ينقصني الا الادوات لافعل شيئاً . وتبينت ان الادوات أياً كان شكلها أما ادوات قاطعة أو ادوات لاصقة . ففي عملية الخلق اما ان تجزيء وأما ان تركب قبل ان تخلق – وكانت الالفة بيني وبين بسطاء المسجونين قد نمت وتحولت الى ما يقرب من الصداقه . وهو امر قريب الى نفس من نشأ في القرى حيث الناس بسطاء وان كانوا غير مسجونين . فأمدوني بما اردت . اصبح لي صندوق من الورق المقوى (كرتون) يحتوي كل النفايات وادوات تلفيقها . اما القاطعة منها فسكاكين وازاميل ومنشاران . وأما اللاصقة فإناء

كبير من « الغراء » واناء آخر من الصمغ . لم يجتمع لي كل هذا دفعة واحدة بل تجمع على مراحل يتسق نموها مع نمو علاقة المودة بيني وبين زملاء السجن ، القادرين على الحصول على أي شيء يريدون ، المتطوعين دائماً لاداء ما يراد منهم مقابل الكلمات الودودة .. ثم السجائر .

كان أول ما خطر لي هو أن ارفع في الزنزانة ، وعلنا ، علم دولة الوحدة الاشتراكية الديموقراطية ، تعبيراً عن موقفي الذي لا يتبدل من هذا الهدف العظيم وتحدياً رمزياً للذين ارادوا لي ان اكف عن الدعوة اليه .

لو رسمته على الحائط فوق رؤوس ابنائي كما اتمنى لهم ان يكونوا لكان مكشوفاً للتأويل فقابلاً للمحو . فلأرفعه حيث يبقى مرفوعاً ومصوناً في الوقت ذاته من ايدي العابثين . ولكن كيف يكون علم دولة الوحدة ؟

الاجابة قديمة . رسمته في منتصف عام ١٩٦٣ . كانت محادثات « الوحدة الثلاثية » بين مصر وسورية والعراق دائرة في القاهرة . وكان فنانو القاهرة مشغولين بتصميم شكل العلم الجديد لدولة الوحدة المنتظرة ورفعت في القاهرة فعلاً اعلام مبتكرة رمزاً للوحدة الثلاثية . وكانت كلها تتضمن التعبير باشكال مختلفة عن فكرة واحدة : ان يحتوي العلم نجمة ترمز لكل دولة . وقد انتهت تلك المحاولات فعلاً بعلم ثورة ٢٣ يوليو مضافاً اليه ثلاث نجمات خضراء ترمز كل منها لاحدى الدول الثلاث .

والذين يعرفون مما اكتب كيف افكر يعلمون ان كراهيتي للاقليمية قد وصلت الى حد التعصب المتوتر الذي يرفض التسامح حتى في الهين من الامور. اني اكره الاقليمية ارضاً وبشراً ودولاً وفكراً ورمزاً وأملا وفناً ورياضة ... اكرهها ظاهرة وخفية ومنافقة ، وافتش في كل فكرة وفي كل خطوة عن جراثيم الاقليمية التي تكون قد اندست في افكار وخطى الوحدويين بدون ان يفطنوا . من تلك الافكار الجرثومية التي ارفضها بل اكرهها ، أي اني اعاديها عقلاً وعاطفة ، فكرة التمثيل الاقليمي . كل ما يرمز الى وجود الدول

الاقليمية في الوطن العربي ارفضه واكرهه لانني ارفض واكره تجزئه وطني الكبير . وقد رأيت أن علم الوحدة الثلاثيه كما اسموها ، المرشحة في ذلك الوقت لتكون دولة الوحدة النواة ، يجب ان يكون مطهراً تماماً من كل ما يرمز الى الوجود السابق للدول العربية الثلاث . يجب أن يكون رمزاً للمستقبل المشرق وليس الماضي المظلم . ولما كنت اعرف شيئاً عن الرسم فقد ترجمت هذا الخاطر الى علم لدولة الوحدة الاشتراكية الديمقراطية .

- كتلة واحدة ولكن سوداء رمز وحدة الوجود القومي المتخلف .
- نجمة واحدة منبثقة من تلك الكتلة رمز دولة واحدة تنبثق من الواقع القومي .
- على قاعدة حمراء رمز الاشتراكية والمساواة في دولة الوحدة .

وبقي علم الوحدة رسماً على ورقة تاهت بين اوراقي ... الى ان استفزني السجن فأردت ان اتحداه برفع علم الوحدة ... وقد كان .

صندوق من الورق القوي (كرتون) كسوته بنسيج مما يلبس المسجونون بلونه الازرق الداكن — قبل ان يبهت وهو يبهت سريعاً — وصنعت له غطاء من قطع الخشب المهملة ، ويدين مفتولين من ليف « البرش » ، ثم رسمت علم الوحدة على جانبين منه ، ورسمت رموزاً للسجن (قيداً ونافذة الزنزانة) على الجانبين الآخرين ، وجمعت على الغطاء بين العلم والقضبان في رسم واحد . ثم جعلت في قاعه مخبأ خفياً له قصة أخرى . ولما أن اكتمل صنعاً رفعته على حامل عند مدخل الزنزانة بحيث يظهر منه الجانبان اللذان يحملان علم الوحدة . ولقد بقى معي الى ان خرجت معه . ولما علم بعض الرفاق ما يعينيه الرسم ، سرعان ما تحولت قطع « البلاستيك » الملونة الى شارات مصغرة لعلم الوحدة نثبتها على صدورنا في قلب السجن ذاته ...

أما من أين جاءت الالوان فمن السجن ذاته . فمن غرائب لائحة السجون أن المحبوسين احتياطياً (الموقوفين) على ذمة اتهام لم تثبت صحته بعد أو قضايا

لم يحكم فيها ، أي الابرياء طبقاً لقاعدة « ان كل انسان بريء الى أن تثبت إدانته » ، هؤلاء محرومون (قانوناً وليس فعلاً) من ممارسة هواياتهم . أما اولئك الذين ادينوا فعلاً واصبحوا في نظر القانون – على الاقل – مجرمين فان لهم الحق في ان يطلبوا ويحصلوا على ما يطلبون من مواد وادوات لازمة لممارسة هواياتهم . وفي السجن شاب لص ومزور ... اعني انه قد اتهم فأدين بكل هذا ، يعرف كيف ينقل الصور (الفوتوغرافية) على لوحات ملونة . اعتبرها هواية وتم له الحصول على اخشاب ونسيج والوان وما شاء من ادوات الرسم . وتحولت الهواية الى مهنة . فهو يرسم للمسجونين صورهم منقولة مكبرة الى لوحات ملونة مقابل عشرين علبة صغيرة من السجائر ، أي ما يساوي في سوق السجن مائتين وخمسين قرشاً ..

من ذاك الهاوي اللص حصلت على ما اردت من الوان ، بالرغم من اللائحة التي حرمت علينا ما اباحت للصوص .

الصور التالية لبعض ، وليس كل ، ما استطعت تلفيقه من مهملات السجن ولا يستحق منها الذكر الا صورتان . احداهما موجودة والاخرى مفقودة .

اما الموجودة فهي الصورة الثانية . انها لوحة بارزة لابني محمد مادتها الخبز الذي يأكله المسجونون . وقد تحدثت في قسم سابق عن الخبز واهملت هناك ذكر بعض خصائصه . من تلك الخصائص انه عندما يجف يتحول الى مادة داكنة في مثل صلابة حجر الصوان . ويستفيد المسجونون من تلك الخاصية ليصنعوا منه اشياء عديدة : احجار النرد وقطع الشطرنج مثلاً . وقد استفدت من تجاربهم فصنعت منه تمثالاً لابني اكتشف خلال صنعه خصائص اخرى . ان اقترب الخبز بعد جفافه من النار اصبح لونه احمر فان ازداد اقتراباً اصبح لونه اسود ، فان لم يقترب اصبح كلون ابناء الصعيد ، كلون ابني الذي علمني الصبر عليه طفلاً ، وعاد تمثاله يعلمني الصبر مرة أخرى . عشرات الليالي انقضت في وضع طبقة من الخبز ، تجف حتى تتشقق ، فتملأ الشقوق بخبز

جديد ما يلبث ان يجف فيتشقق فيملأ ... وهكذا الى ان ننتهي من طبقة صلبة سوية ، فتضاف اليها طبقة أخرى ثم طبقة أخرى .. الى ان اكتمل فأصبح كما تعبر عنه الصورة .. والفصل الاول للخبازين الغشاشين الذين يأبون الا أن يقدموا لرفاقهم عجيناً ساخناً يسمونه خبزاً ...

اما الصورة المفقودة فقصتها اكثر تعقيداً وحركة ..

ادارة السجن ، وكل المسجونين ، يعرفون ان لدي في زنزانتي « ورشة » وانني مشغول عنهم وعن سجنهم بالقراءة أو الكتابة أو بما أصنع تلفيقاً من المواد المتاحة . ويتأملون ما اصنع . ويطلب مني بعض الضباط « هدايا » صغيرة تذكاراً للايام التي نقضيها معاً . ويسهل لي بعضهم الحصول على ما أريد أو ارسال ما أريد مما صنعت الى منزلي خارج السجن ...

ثم يتدخل عبد الخالق .

كنت قد حصلت على قطعة مربعة من الخشب لاصنع منها قاعدة لتمثال صغير . وخانتني أدوات الحفر فإذ بالخشبة تنشطر الى مثلثين وانا احاول ان احفر في وسطها خرقاً اثبت فيه التمثال . فما الذي افعله بقطعتي خشب كل منهما مثلثة الشكل ؟ .. القيهما ؟.. اني لا القي شيئاً بل اتلقى ما يلقيه الآخرون . وخطرت لي فكرة اخذت من وقتي – الذي اصبح ثميناً – اكثر من اسبوعين لتنفيذها . في النهاية تحولت قطعة الخشب المثلثة الى « مسدس » بالغ غاية الاتقان. حتى رؤوس – المسامير الصغيرة والكتابات الدقيقه اخذت مكانها حفراً دقيقاً في سلاحنا الخشبي . ولم يكن عسيراً ان نحصل من « مصنع النجارة » على ما يلزم لصباغة جزء من الخشب بلون الحديد وان يصبغ المقبض بلون الخشب المصقول . تحفة حقيقية . أخرجها من مخبئها ليلاً ، المعها ، واتأملها واكاد اشعر معها بطمأنينة المسلحين .. كم سيكون ابني فرحاً بها عندما ادسها في جيبه في الزيارة القادمة ...

ثم تطل رأس قميئة من بين قضبان النافذة لتقول ما كان يقول الحراس

في ليال كثيره : مساء الخير يا دكتور . فأرد التحية بما كنت اردها به في كل ليلة تطل فيها رأس من النافذة : كلام وسجائر للحارس الذي افتقد السجائر فرفع نفسه الى النافذه ليحييني ..

كان الحارس في تلك الليلة عبد الخالق . وعبد الخالق شاب ، ريفي حديث العهد بخدمة مصلحة السجون ولكنه طموح . انه يريد ان يغيّر موقعه من الظاهر الى الباطن . لا أعني ان يموت بل أعني ان ينتقل من فريق الحراس الى فريق المباحث . وقد طلب هذا مراراً ولم يستجب له أحد . وعندما أطل في تلك الليلة لمح « المسدس » الخشبي وانا ارد له التحية سجائر وكلاماً . وما كان لعبد الخالق او لغير عبد الخالق ان يكتشف من بعد ، أو حتى من قرب بدون لمس ، حقيقة المادة التي صنع منها السلاح المخيف .

وجدها عبد الخالق فرصة ليثبت كفاءته كمباحثي . ولم يشأ ان يبلغ ادارة السجن حتى لا يأخذ الضباط لانفسهم فضل اكتشاف وجود سلاح خطير مع احد النزلاء بل ابلغ ادارة مباحث السجون مباشرة .

وفوجئت كما فوجيء ضباط السجن وحراسه ونزلاؤه ، في اليوم التالي ، بجماعة من ضباط ومخبري مصلحة السجون تقتحم زنزانتي جهاراً نهاراً للبحث عن ... ماذا ؟ .. ان المباحثيين لا يقولون . وامتلأت بهم الزنزانه يفتشون فلم اجد لي مكاناً الا خارجها منضماً الى جماعة المسجونين الذين يتفرجون ويتساءلون عن النبأ العظيم .

توقعت أنني سأفقد كل شيء لا تسمح « اللائحة » — التي نشطت فجأة — بحيازته . ولكن التفتيش الدقيق الى حد العبث لم يسفر عن شيء . لقد كانوا يبحثون عن شيء معين ولم يعثروا عليه مع أنه موجود . كذلك ارادوا الا يعثروا على اشياء أخرى موجودة : بطارية ، راديو ، نموذج خشبي لمفتاح الزنزانه ، منشار ، مبرد ، امواس ، شاي ، بن .... الخ . وانصرف الركب الذي جاء من مصلحة السجون حافياً . اعني انه انصرف حافياً . أي حتى بدون

خفي حنين . وازدادت ثقتي بالمخابيء التي صنعتها في غرفتي الضيقة (المخبأ الثابت تجويف اعمدة السرير المعدنية . والمخبأ المتنقل معلق تحت قاعدة الكرسي الخشبي الذي اجلس عليه وانا اراقب التفتيش أو – ان لم افعل – يجلس عليه احد الذين يفتشون ، بالاضافة الى قاع صندوق علم الوحدة) .

الفشل يثير التهكم . والتهكم يكشف الاسرار . وهكذا عرف من لم يكن يعرف من نزلاء السجن أنني امتلك سلاحاً نارياً في مكان ما بداخل السجن .اما نوع السلاح فقد اختلفت فيه الاراء . فهو مسدس .. لا . . انـــه مدفع رشاش لا .. انه قنبلة .. واتسع الكلام فغطاني برداء كثيف من الاوصاف التي تؤهلني لحمل السلاح . واكتشف المسجونون نواياي الثورية أو الاجرامية تبعاً لتقدير كل مسجون على حدة – ولكنهم اتفقوا جميعاً على انني أعد للهرب ... ولو بالقـــوة .

ضباط السجن لا يتركون مصائرهم للمخاطر . فمع أن المسألة تبدو منتهية بفشل مباحث مصلحة السجون الا أن احتمال صحة الخبر قائم . وعبد الخالق ما يزال مصراً على أنه رأى السلاح اللعين بعينيه . وتوالت حملات التفتيش تصيبني وتصيب كل من يخطر بالبال أنني قد اودعت سلاحي عنده ... وضاعت « الورشة » . اخذوا صندوق النفايات العزيز .

ضقت ذرعاً وقررت أن اسمح لهم « بضبط » سلاحي الخشبي . ولما كان من تقاليد السجن أن تصطنع ادارته عيوناً لها من المسجونين ، وهي عيون مفضوحة ، فقد همست في اذن احدهم ارجوه ان يقبل اخفاء صندوق « العلم » عنده . رفض طبعاً وكنت اعرف انه سيرفض واسرع فأبلغ ادارة السجن وكنت اقصد ان يبلغ . وجاءت حملة التفتيش الاخيرة . وقلبوا الصندوق وعدلوه على كل وجه فلم يجدوا فيه ثغرة . ودسوا ايديهم في كل مكان من الزنزانه فلم يجدوا شيئاً . واردت أن انهي الامر فأرشدتهم الى قاعه المزدوج ثم الى « سلاحي » وسلمته اليهم طالباً ان يحتفظ به في « الامانات » لاسترده حينما

اخرج . ولم يتمالك الضباط انفسهم فضحكنا واصبحت القصة كلها مثاراً للتندر والفكاهة ... ولم يحزن أحد الا السيد خلَف .

السجن عامر « ببلدياتى » الصعايدة . نسبة كبيرة من نزلاء السجن المحكوم عليهم بسنين طويلة من اجل جرائم قتل وافدون من « البداري » ، المركز الاداري لقريتي ، ومن المراكز المجاورة . وقد تعارفنا لاننا في « القناطر » ، التابعة ادارياً لوجه بحري ، غرباء . اننا بين « البحاروه » صعايدة . وهو تمييز لازم للتغلب بالعصبية على الشعور بالغربة . هكذا برروا تعارفنا .

من هؤلاء الصعايدة السيد خلف . كان سنه ١٩ عاماً عندما قتل لاول مرة اثنين . ومنذ ذلك الوقت لم يفارق السجن الا ليقتل فيعود اليه . وهو الآن كهل ذو شارب كث أبيض ومكان مرموق . انه مسؤول عن شؤون المطبخ . ومن بين يديه ينساب ما يريد له ان ينساب من مأكل للنزلاء جميعاً . وتبقي يده الطويلة ما يريد له أن يبقي . ولقد كان فخوراً بأن قريته لا تورد للسجن قتلة فقط بل منها يرد السياسيون المتمردون أيضاً . ولما كان يتمتع بنفوذ غير محدود فقد كان يزورني في أي وقت شاء باعتباري « بلدياته » ومبعثاً لفخره ...

كيف تقبل خلف قصة مسدسي الخشبي ؟ ... كيف تقبلها بالرغم من أنه قضى في السجن اكثر من عشرين عاماً ؟ ... كما يتقبلها أي صعيدي عامة ، ومن البداري خاصة : انه لمن العار الذي لا يحتمل ان يتضح أن السلاح الذي يحوزه « الدكتور بلدياتي » سلاح خشبي . لعبة . ان أهل البداري لا يمكن ان يحوزوا الا اسلحة حقيقية من أجل غايات جدية .

تصدر خلف مجلساً يضم اعوانه ومريديه ، وراح ينفي نفياً حاسماً ان يكون « المسدس » لعبة من خشب . الحقيقة — بس يا جدعان محدش يقول — انه لما رأى « الدكتور بلدياتي » انهم يفتشونه كل يوم بحثاً عن السلاح الحقيقي ، وهو — بالمناسبة — مسدس « برابل » معه عشرون طلقة رأيته بعيني — هكذا يؤكد خلف في حديثه . اراد الدكتور ان يلهيهم فأحضر لهم مسدساً خشبياً

ليظل محتفظاً بسلاحه الحقيقي الذي سيستعمله في وقت معلوم هو — أي خلف — يعرفه ولكن لا يفشيه .. لان أهل البداري لا يفشون الاسرار .

ومن فم خلف انتقل الحديث الى افواه المسجونين حتى كاد أن يعرضني لمتاعب التفتيش مرة أخرى ، لولا أن نبهته الى انني افضل الا اتعرض لمتاعبه على ان اؤكد انتمائي إلي الصعيد . فكف نفسه عن مزيد من الحديث واصبحت نظرته الي أقل تقديراً .. ولم يعد يزورني الا لماما . كيف يزور واحد صعيدي واحداً « افندياً » اتضح ان سلاحه من خشب .. انه عار .

بقي ان أقول انني لم استرد « المسدس الخشبي » قط ، فلم اثبت له صورة «في اليمك» الذي اقدمه . ذلك لأن احد السادة الضباط كان قد اعجب به الى الدرجة التي حالت دون استرداده ، أو أنه لم يعجب به فالقاه في مكان لا يعرفه فلم استرده .

أياً ما كان الامر فقد اكتسبت من خلال الممارسة مهارات لم تكن تخطر لي على بال . وصنعت اشياء عجيبة حقاً . قد لا تكون عجيبة من حيث هي انتاج فني أو صناعي ، ولكنها كانت عجيبة من حيث أثرها النفسي . لقد كنت اظن دهراً ان الخلق الفكري هو قمة النشاط الانساني ، فإذ بي اتبين ان انسانية الانسان لا تبلغ أقصى تألقها او توهجها الا من خلال العمل اليدوي الخلاق . لم اجد في حياتي متعة حقيقيه بمعنى كاملة ، تماثل متعة الخلق اليدوي ، حيث يتكون الانسان كله ، فكراً وجسداً ، مسغرقاً استغراقاً كاملاً في نشوة تتصاعد مع تحول الاشياء في يديه من مجرد مواد لا دلالة لها ولا جمال فيها الى مادة جميلة معبرة تجسد ذاته فتضاعف شعوره بانسانيته . اني عاجز حقاً عن ايضاح ذلك الشعور ايضاحاً كاملاً . واحسب انني اعبر عنه تعبيراً اكثر صدقاً اذا قارنته بالشعور الانساني المتألق الذي تثيره « الاوبرا » . انها اذ تجمع شتات الفنون الاخرى من شعر وتمثيل ورقص وموسيقى في خلق في واحد تضاعف انسانية خالقها ومؤديها ومشاهدها . والخلق اليدوي ليس يدوياً الا من حيث أنه

يضيف النشاط البدني الى النشاط الفكري ليصوغ الفكرة في مادة جميلة . تجسد في ذاتها كل ملكات صاحبها الفكرية والجسدية والفنية فتضاعف شعوره بانسانيته بقدر ما تجمع فيها من ملكاته الانسانية . ولقد شعرت بهذا شعوراً قوياً عندما اتممت تمثال « لماذا يركع الانسان ؟ » ... فلاح مقيد اليدين راكع يشكل علامة الاستفهام ذاتها . ولست أريد ان أزيد لأني غير قادر على مزيد من التعبير . كل ما استطيع أن اؤكده ان ذلك النشاط اليدوي قد شغلني – لأول مرة في حياتي – عن القراءة . وزاد فشغلني عن السجن ذاته بكل ما يتضمنه السجن من ضغوط مادية وفكرية ونفسية . بكل ما يعنيه السجن من مساس بانسانية الانسان .. ولقد كنت الاحظ بدون دهشة دهشة حراس السجن وانا اطلب اليهم ملحاً ان يغلقوا عليّ الزنزانه قبل موعد غلقها لأن « عندي شغل » ...

واني لاقارن مشاعري وانا اعمل بما اعرفه من مشاعر العاملين في المصانع والمزارع والمكاتب ، حيث تسلب النمطية والبيروقراطية اللذة من كل عمل . وحيث يشل الخوف مقدرة العاملين على الخلق . وحيث يصبح العامل الخلاق جزءاً من آلة . وحيث يمتص الارهاق انسانية العاملين . فأحلم بمجتمع يؤدي كل عامل فيه العمل الذي يحبه ويقدر عليه وليس العمل الذي يفرض عليه وان كان عليه قدير . بمجتمع يقسم العمل فيه على اساس الهواية بين القادرين فيصبح العمل مصدراً للرزق وللمتعة معاً .

لو تحقق الحلم لكان مجتمعاً بدون سجون . فهل يمكن تحقيقه ؟ .. من يدري . ان مقدرة الانسان لا حدود لها ، بشرط ان يكون الانسان متحرراً من القيود التي تفرض على مقدرته . بشرط ان تتاح للانسان فرصاً للعمل تتجاوز مقدرته فيختار منها ما يحب مما يقدر عليه . بشرط ان يكون الناس شركاء فعلا فيما هو متاح لهم فلا يسلب احد احداً فرصة عمله ...

كأننا نتحدث عن دولة الوحدة الاشتراكية الديموقراطية .

وأين المفر .

بحكم الواقع الموضوعي الذي لم يصطنعه أحد وبالتالي لا يجدي احداً شيئاً انكاره ، تقدم دولة الوحدة الاشتراكية الديموقراطية الحلول الصحيحة الكاملة لمشكلات الانسان العربي حتى مشكلة السجون .



علم الوحـــدة





محمد ... إبني



« الحقيقة » العارية – في الوطن العربي – خجلى

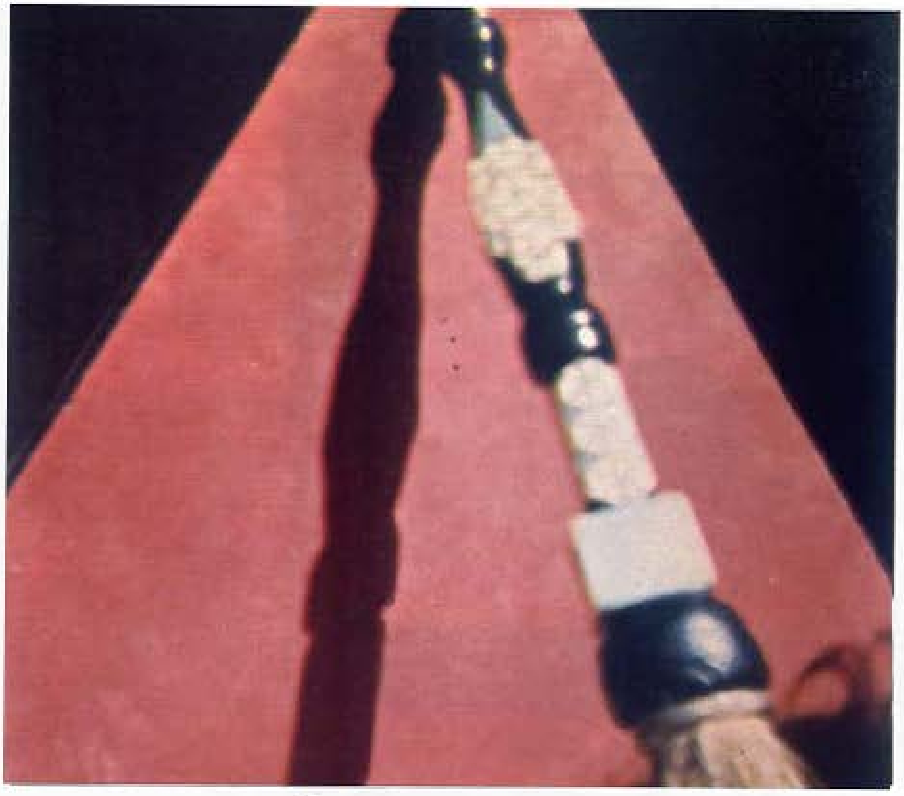


« الأمل » ... السلام والرخاء والحب ... لكلّ إنسان

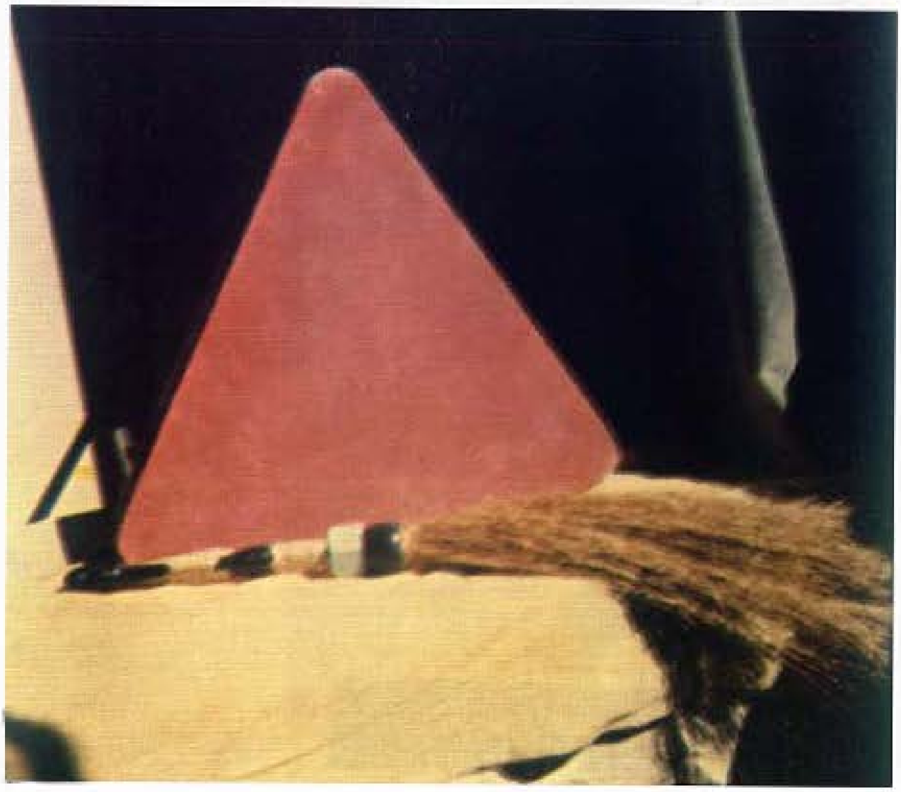


« لمـــاذا » ؟ يركع الإنسان





تركيبة من
النفايات







المدخل إلى
عصر البلاستيك
كانت يد الجردل
وعلب مزوقة

فهرس

دار المسيرة
للصحافة والطباعة والنشر
هاتف : ٣١١٣٥٠ - بناية ريفييرا سنتر - كورنيش المزرعة
سجل تجاري : ٣٣٩٠٨ - ص.ب ١٤٥٢٩٩ - برقياً : ناصيرات - بيروت

الإخراج والتصميم الفني :
نزيه كركي
التنفيذ والطباعة :
مطبعة فينيقيا